ثُمَّ اهتَدَيت

بقلم

محمد التيجاني السماوي

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

كتابي متواضع لا تكلف فيه ، هو قصة رحلة ، قصة اكتشاف جديد ، ليس اكتشافا في عالم الاختراعات التقنية أو الطبيعية ، و لكن في دنيا المعتقدات في خضم المدارس المذهبية و الفلسفات الدينية .

و لما كان الاكتشاف يعتمد أولا على العقل السليم و الفهم القويم الذي ميز الإنسان عن بقية المخلوقين .

فإنني أهدي كتابي إلى كل عقل سليم ، يمحص الحق فيعرفه من بين رُكام الباطل ، و يزن الأقوال بميزان العدل فيرجح كفَّة المعقول ، و يقارن الكلام و الأحاديث فيتبين المنطقي من المعسول ، و القوي من المهزول ، قال تعالى : { ... فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ و أُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ } [1] .

إلى كل هؤلاء أهدي كتابي هذا ، راجيا منه سبحانه و تعالى أن يفتح بصيرتنا قبل بصرنا و أن يهدينا و ينور قلوبنا و يرينا الحق حقا لا غبار عليه فنتبعه ، و يرينا الباطل باطلا لا لُبس فيه فنجتنبه ، و يدخلنا في عباده الصالحين إنه سميع مجيب .

محمد التيجاني السماوي

[1] سورة الزمر (٣٩) ، الآية : ١٧ و ١٨ .

بسم الله الرحمن الرحيم

ديباجة

الحمد لله رب العالمين ، خلق الإنسان من سلالة من طين ، فجعله في أحسن تقويم ، و فضله على سائر المخلوقين ، و أسجد له ملائكته المقربين ، و كرَّمه بالعقل الذي يبدل شكه باليقين ، و جعل له عينين و لسانا و شفتين و هداه النجدين ، و أرسل له رسلا مبشرين و منذرين لينبهوه و يمنعوه من ضلالات إبليس اللعين ، و عهد إليه أن لا يعبد الشيطان لأنه له عدو مبين ، و أن يعبد الله وحده و يتبع صراطه المستقيم ، على بصيرة و إيمان و علم يقين ، و أن لا يقلد في عقيدته الأصحاب و الأقربين و الآباء الأولين ، الذين أتبعوه من قبلهم بلا أدلة واضحة و لا براهين ، و من أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا و قال إنني من المسلمين .

و صلوات ربي و سلامه و تحياته و بركاته على المبعوث رحمة للعالمين ، ناصر المظلومين و المستضعفين ، و منقذ البشرية من ضلالة الجاهلين ، إلى هداية المؤمنين الصالحين ، سيدنا و مولانا محمد بن عبد الله نبي المسلمين ، و قائد الغر المحجلين ، و على آله الطيبين الطاهرين الذين اصطفاهم الله على سائر المخلوقين ، ليكونوا قدوة المؤمنين ، و منار العارفين و علامة الصادقين المخلصين و أوجب مودتهم في القرآن

الكريم ، بعد أن أذهب عنهم الرجس ، و جعلهم من المعصومين و وعد من ركب سفينتهم بالنجاة و من تخلف عنهم كان من الهالكين ، و على أصحابه الكرام الميامين ، الذين نصروه و عزروه و وقروه و باعوا أنفسهم لنصرة الدين ، و عرفوا الحق فبايعوه بيقين ، و ثبتوا بعده على المنهاج القويم و لم يغيروا و لم يبدلوا و كانوا من الشاكرين ، فجزاهم الله خيرا عن الإسلام و المسلمين . و على التابعين لهم و السائرين على هديهم إلى يوم الدين . ربي تقبل مني فأنت السميع العليم ، و اشرح لي صدري فأنت الهادي إلى حق اليقين ، و احلل عقدة من لساني فأنت واهب الحكمة لمن تشاء من عبادك المؤمنين ، رب زدني علما و ألحقني بالصالحين .

* * *

لمحة وجيزة عن حياتي

لا زلت أذكر كيف أخذني والدي معه إلى مسجد الحي الذي تقام فيه صلاة التراويح في شهر رمضان ، و كان عمري عشر سنوات ، و قدمني إلى المصلين الذين لم يخفوا إعجابهم بي .

كنت أعلم منذ أيام إن المؤدِّب [1] رتب الأمور لكي أشفع [2] بالجماعة ليلتين أو ثلاثا ، و جرت العادة أن أصلي خلف الجماعة مع مجموعة من أطفال الحي و أنتظر وصول الإمام إلى النصف التالي من القرآن الكريم أي إلى سورة مريم ، و بما أن والدي حرص على تعليمنا القرآن في الكتّاب [3] و في البيت خلال حصص ليلية يقوم بها إمام الجامع و هو من أقاربنا مكفوف البصر يحفظ القرآن الكريم ، و بما أني حفظت النصف في تلك السن المبكرة أراد المؤدب أن يظهر فضله و اجتهاده من خلالي فعلمني مواقع الركوع من التلاوة و راجعني عدة مرات ليتأكد من فهمي . . . بعد نجاحي في الامتحان و إنهاء الصلاة و التلاوة بالجماعة على أحسن ما كان يتوقع والدي و المؤدِّب ، انهال علي الجميع مقبلين و معجبين

---

[1] المؤدِّب : هو معلم القرآن .

[2] أشفع : أصلي التراويح ، سميت صلاة التراويح للاستراحة بين كل ركعتين ، و سميت أيضا صلاة الإشفاع لأنها تشفع يوم القيامة لمن يقيمها ، كما يروي أهل السنة .

[3] الكتّاب : هي المدرسة القرآنية التي يتعلم فيها الأطفال حفظ القرآن الكريم .

و شاكرين المعلم الذي علَّمني و مهنئين والدي و الكل يحمد الله على نعمة الإسلام " و بركات الشيخ " .

و عشت أياماً سوف لن تمحى من مخيلتي لما لقيته بعد ذلك الحدث من إعجاب و شهرة تعدت حارتنا إلى كل المدينة و طبعت تلك الليالي الرمضانية في حياتي طابعا دينيا بقيت آثاره حتى اليوم ، ذلك أني كلما اختلطت عليَّ السبل أحسست بقوة خارقة تشدني و ترجعني إلى الجادة ، و كلما شعرت بضعف الشخصية و تفاهة الحياة رفعتني تلك الذكريات إلى أعلى الدرجات الروحية ، و أوقدت في ضميري شعلة الإيمان لتحمل المسؤولية .

و كأن تلك المسؤولية التي حملنيها والدي أو بالأحرى مؤدبي لإمامة الجماعة في تلك السن المبكرة جعلتني أشعر دائما بأنني مقصر عن أن أكون في المستوى الذي أطمح إليه أو على الأقل المستوى الذي طلب مني . لذلك قضيت طفولتي و شبابي في استقامة نسبية لا تخلو من لهو و عبث يسودهما في معظم الأحيان البراءة و حب الإطلاع و التقليد ، تحوطني العناية الإلهية لأكون متميزا من بين أخوتي بالرصانة و الهدوء و عدم الانزلاق في المعاصي و الموبقات .

و لا يفوتني أن أذكر أن والدتي رحمها الله كان لها الأثر الكبير في حياتي ، فقد فتحت عيني و هي تعلمني قصار السور من القرآن الكريم كما تعلمني الصلاة و الطهارة و قد اعتنت بي عناية فائقة لأني ابنها الأول ، و هي ترى إلى جانبها في نفس البيت ضرتها التي سبقتها منذ سنوات عديدة و لها من الأولاد من يقارب سنها ، فكانت تتسلى بتربيتي و تعليمي و كأنها تتبارى في سباق مع ضرتها و أبناء زوجها .

كما أن اسم التيجاني الذي سمتني به والدتي له ميزة خاصة لدى عائلة السماوي كلها التي اعتنقت الطريقة التيجانية و تبنَّتها منذ أن زار أحد أبناء

الشيخ سيدي أحمد التيجاني مدينة قفصة قادما من الجزائر و نزل في دار السماوي فاعتنق كثير من أهالي المدينة خصوصا العائلات العلمية و الثرية هـــذه الطريقـــة الصوفية

و روجوا لها ، و من أجل إسمي أصبحت محبوبا في دار السماوي التي يسكنها أكثر من عشرين عائلة و كذلك خارجها ممن لهم صلة بالطريقة التيجانية ، لذلك كان كثير من شيوخ المصلين الذين حضروا تلك الليالي الرمضانية التي ذكرتها يقبلون رأسي و يدي مهنئين والدي قائلين له :

" هذا فيض من بركات سيدنا الشيخ أحمد التيجاني " و الجدير بالذكر أن الطريقة التيجانية انتشرت بكثرة في المغرب و الجزائر و تونس و ليبيا و السودان و مصر و أن معتنقي هذه الطريقة متعصبون نوعا ما ، فهم لا يزورون مقامات الأولياء الآخرين و يعتقدون بأن كل الأولياء قد أخذوا عن بعضهم بالتسلسل ما عدا الشيخ أحمد التيجاني فقد أخذ علمه مباشرة عن رسول الله (صلى الله عليه و آله) رغم تأخره عن زمن النبوة بثلاثة عشر قرنا ، و يروون بأن الشيخ أحمد التيجاني كان يحدث بأن رسول الله (صلى الله عليه و آله) جاءه يقظة لا مناما ، كما يقولون بأن الصلاة الكاملة التي ألفها شيخهم أفضل من أربعين ختمة من القرآن الكريم .

و حتى لا نخرج عن الاختصار نقف عند هذا الحد من التعريف بالتيجانية و لنا عودة إليهم إن شاء الله في موضع آخر من هذا الكتاب .

و نشأت و ترعرعت على هذا الاعتقاد كغيري من شبان البلد فكلنا مسلمون بحمد الله من أهل السنة و الجماعة و كلنا على مذهب الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة غير أننا منقسمون في الطرق الصوفية التي كثرت في شمال أفريقيا ففي مدينة قفصة وحدها هناك التيجانية ، و القادرية ، و الرحمانية ، و السلامية ، و العيساوية و لكل من هذه الطرق أنصار و أتباع يحفظون قصائدها و أذكارها و أورادها التي تقام في الحفلات و السهرات بمناسبة عقد القران أو الختان أو النجاح أو النذور و رغم بعض السلبيات فقد لعبت هذه الطرق دورا كبيرا في الحفاظ على الشعائر الدينية و احترام الأولياء و الصالحين .

الحج إلى بيت الله الحرام

كان عمري ثمانية عشر عاما عندما وافقت الجمعية القومية للكشافة التونسية على انتدابي للمشاركة في المؤتمر الأول للكشافة العربية و الإسلامية الذي أقيم في مكة المكرمة ضمن مجموعة تتكون من ستة أشخاص من كامل الجمهورية التونسية ، و وجدت نفسي أصغر أعضاء البعثة سناً و أقلهم ثقافة إذ كان اثنان منهما من مدراء المدارس و الثالث أستاذا بالعاصمة و الرابع يعمل في الصحافة و الخامس لم أعرف وظيفته غير أني علمت أنه أحد أقرباء وزير التربية القومية في ذلك العهد .

كانت رحلتنا بطريق غير مباشر ، فقد نزلنا في أثينا عاصمة اليونان حيث أمضينا فيها ثلاثة أيام ، و منها إلى عمان عاصمة الأردن التي مكثنا فيها أربعة أيام وصلنا بعدها إلى السعودية حيث شاركنا في المؤتمر و أدينا مناسك الحج و العمرة .

كان شعوري و أنا أدخل بيت الله الحرام لأول مرة لا يتصور و كان قلبي كأنه يحطم الأضلاع – التي تحوطه – بدقاته العنيفة يريد الخروج ليرى بعينه هذا البيت العتيق الذي طالما كان يحلم به ، و فاضت الدموع حتى ظننت أنها لن تتوقف ، و خيل إلي أن الملائكة – تحملني فوق الحجيج لأصل إلى سطح الكعبة المشرفة و ألبّي نداء الله من هناك " لبيك اللهم لبيك هذا عبدك جاء إليك " و قد استنتجت و أنا أسمع تلبية الحجيج أن هؤلاء قضوا أعمارهم و هم يتجهزون و يعدون العدة و يجمعون الأموال للمجيء أما أنا فكان مجيئي مفاجئا على غير استعداد مني ، و أذكر أن والدي عندما رأى تذاكر الطائرة و تيقن من سفري إلى

الحج بكى و هو يقبلني مودعا قائلا : " هنيئا لك يا بني لقد أراد الله أن تحج قبلي و أنت في هذه السن ، فأنت ولد سيدي أحمد التيجـــاني أدع الله لي في بيتـــه أن يتوب علي ويرزقني حج بيته الحرام " .

لذلك ظننت أن الله هو الذي ناداني و أحاطني بعنايته و أوصلني إلى ذلك المقام الذي تموت الأنفس دون الوصول إليه حسرة و رجاء ، فمن أحق بالتلبيـــة مني فكنت أبالغ في الطواف و الصلاة و السعي و حتى في شرب ماء زمـــزم ، و الصعود إلى الجبال حيث تتسابق الوفود للوصول إلى غار حراء فوق جبل النـــور فلم يسبقني إليه غير شاب سوداني فكنت " ثاني اثنين " و تمرغت فيـــه و كـــأني أتمرغ في حجر الرسول الأكرم و أشم أنفاسه ، يا لها مـــن صـــور و ذكريـــات تركت في نفسي أثرا عميقا لن يمحى أبدا ! ! .

عناية ربانية أخرى جعلت كل من يراني من الوفود يحبني و يطلب عنواني للمراسلة ، و قد أحبني رفاقي الذين احتقروني في أول لقـــاء جمعنـــا في تـــونس العاصمة لترتيب السفر و أحسست ذلك منهم و صبرت لعلمي مسبقا بأن أهـــل الشمال يحتقرون أهل الجنوب و يعتبرونهم متخلفين ، و سرعان ما تغيرت نظرتهم خلال السفر و المؤتمر و الحج ، و قد بيضت وجوههم أمام الوفود بمـــا كنـــت أحفظه من أشعار و قصائد و بما أحرزته من جوائز في المسابقات الـــتي أقيمـــت بالمناسبة ، و قد عدت إلى بلادي و معي أكثر من عشرين عنوانا لأصدقاء مـــن مختلف الجنسيات .

كانت إقامتنا في السعودية خمسة و عشرين يوما كنا نلتقي فيها بعلمـــاء و نستمع إليهم في محاضراتهم ، و قد تأثرت ببعض المعتقدات الوهابية التي أعجبـــت بها و تمنيت أن يكون المسلمون عليها ، و ظننت في تلك الفترة أن الله اصطفاهم من بين العباد لحراسة بيته الحرام فهم أطهر و أعلم خلق الله على وجـــه الأرض و

قد أغناهم الله بالبترول ليتمكنوا من خدمة الحجيج ضيوف الرحمن و السهر على سلامتهم .

و عند رجوعي من الحج إلى بلادي كنت مرتديا اللباس السعودي بالعقال و فوجئت بالاستقبال الذي أعده لي والدي ، فكانت جموع من الناس محتشدة في

المحطة يتقدمهم شيخ الطريقة العيساوية و شيخ التيجانية و شيخ القادرية بالطبول و البنادير [١] .

و طافوا بي شوارع المدينة مهللين و مكبرين و كلما مررنا بمسجد أوقفوني على عتبته بعض الوقت ، و الناس من حولي يتسابقون لتقبيلي و خصوصا الشيوخ المسنين كانوا يلثمونني و هم يبكون شوقا لرؤية بيت الله و الوقوف على قبر رسوله و هم لم يعتادوا رؤية حاج في مثل عمري كما لم يروا هذا في قفصة قبلي .

و عشت أسعد أيام حياتي في ذلك الوقت و قد جاء إلى بيتنا أشراف المدينة و كبراؤها يسلمون مهنئين وداعين ، و كثيراً ما كان يطلب مني قراءة الفاتحة مع الدعاء بحضرة والدي فكنت أخجل حينا و أتشجع أحيانا ، و كانت والدتي في كل مرة تدخل بعد خروج الزائرين لإطلاق البخور و التعاويذ لحمايتي من شر الحاسدين ، و دفع كيد الشياطين .

و أقام والدي ثلاث ليال متواليات للحضرة التيجانية يذبح في كل يوم كبشا للوليمة . و كان الناس يسألونني عن كل كبيرة و صغيرة ، و كانت أجوبتي كلها تنطوي على الكثير من الإعجاب و الإطراء للسعوديين و ما يقومون به لنشر الإسلام و نصرة المسلمين .

و لقبني سكان المدينة " بالحاج " فإذا أطلق هذا الاسم لا ينصرف إلا إلي ، و أصبحت بعد ذلك معروفا أكثر ، و خصوصا في الأوساط الدينية كجماعة الإخوان المسلمين ، فكنت أطوف في المساجد و أنهي الناس عن تقبيل الأضرحة

---

[١] البنادير : مفرده بندير و هو طبل مثل الدف يستعمله الصوفية للمدائح و الأذكار و الشطح ، و يقال أن سيدي عبد السلام الأسمر أول من استعمله و قد نزل بنديره من السماء ؟ ! .

و التمسح بالأخشاب ، و أحاول جهدي إقناعهم بأن ذلك شرك بالله ، و أزداد نشاطي توسعا فكنت ألقي الدروس الدينية في المساجد يوم الجمعة قبل خطبة الإمام و أتنقل من جامع أبي يعقوب إلى الجامع الكبير ، لان صلاة الجمعة تقام فيهما في أوقات مختلفة بينما تصلى الأولى وقت الظهر تقام الثانية وقت العصر و كثيرا ما كان يحضر تلك الحلقات التي أقيمها يوم الأحد أغلب تلاميذ المعهد الثانوي الذي أدرس فيه مادة التكنولوجيا و المبادئ التقنية ، و كانوا يعجبون لهذا و يزدادون حبا و تقديرا لأني

أعطيتهم من وقتي الكثير لأزيح عن أفكارهم تلك الغيوم التي لبدها بعض أساتذة الفلسفة الملحدين و الماديين و الشيوعيين و ما أكثرهم ! ، فكانوا ينتظرون بفارغ الصبر موعد تلك الحلقات الدينية و منهم من يأتي إلى البيت ، فقد اشتريت بعض الكتب الدينية و التهمتها بالمطالعة حتى أكون في مستوى الإجابة عن الأسئلة المختلفة و في تلك السنة التي حججت فيها ملكت أيضا نصف ديني ، فقد رغبت والدتي رحمها الله في تزويجي قبل موتها ، و هي التي ربت كل أولاد زوجها و حضرت زواجهم فكانت أمنيتها أن تراني عريسا ، و قد أعطاها الله ما تتمنى و أطعت أمرها في الزواج من فتاة لم أرها من قبل ، و حضرت ميلاد إبني الأول و الثاني ، و فارقت الحياة و هي عني راضية كما سبقها والدي رحمه الله قبل عامين و قد حج بيت الله الحرام و تاب توبة نصوحا قبل وفاته بعامين .

و نجحت الثورة الليبية في تلك الظروف التي يعاني فيها المسلمون و العرب من هزيمة النكبة في حربهم ضد إسرائيل و طلع علينا ذلك الشاب قائد الثورة و هو يتكلم بإسم الإسلام و يصلي بالناس في المسجد و ينادي بتحرير القدس ، و قد استهواني كما استهوى أغلب الشباب المسلم في البلاد العربية و الإسلامية ، و دفعنا حب الإطلاع إلى تنظيم رحلة ثقافية إلى ليبيا و جمعنا أربعين رجلا من رجال التعليم حيث قمنا بزيارة إلى القطر الشقيق في بداية الثورة ، و رجعنا من هناك معجبين بما رأينا مستبشرين بالمستقبل الذي رجونا أن يكون في صالح الأمة العربية و الإسلامية في كل المعمورة .

طوال السنوات المنصرمة كانت الرسائل مع بعض الأصدقاء متواصلة و الأشواق متزايدة ، و قد توطدت علاقتي مع نخبة منهم ألحوا علي أن أزورهم ، فأعددت العدة و رتبت الأمور للقيام برحلة طويلة تستغرق عطلة الصيف التي تدوم ثلاثة أشهر ، و كان التخطيط يمر بليبيا عن طريق البر ثم إلى مصر و منها

إلى لبنان عبر البحر ثم إلى سوريا و الأردن فالسعودية ، و هـــي المقـــصودة لأداء العمرة و تجديد العهد مع الوهابية التي روجت لها كـــثيرا في أوســـاط الـــشباب الطالبي و في المساجد التي يكثر فيها الإخوان المسلمون .

و تعدت شهرتي حدود مدينتي إلى مدن أخرى مجاورة ، فقد يمر المـــسافر فيصلي الجمعة و يحضر تلك الدروس و يتحدث بها في مجتمعه ، و وصل الحديث إلى

الشيخ إسماعيل الهادفي صاحب الطريقة الصوفية المعروفة بمدينة تـــوزر عاصـــمة الجريد ، و مسقط رأس أبي القاسم الشابي الشاعر المعروف .

و هذا الشيخ له أتباع و مريدون في كامل الجمهورية التونسية و خارجها في الأوساط العمالية بفرنسا و ألمانيا .

و جاءتني منه دعوة لزيارته ، عن طريق وكلائه في قفصة الذين كتبـــوا إلي رسالة طويلة يشكرونني فيها على ما أقوم به لخدمة الإسلام و المسلمين و يدعون أن ذلك لا يقربني من الله قيد أنملة ما لم يكن عن طريق شيخ عارف ، و علـــى الحديث المشهور عندهم " من لم يكن له شيخ فشيخه الـــشيطان " و يقولـــون أيضا : " لا بد لك من شيخ يريك شخوصها و إلا فنصف العلم عندك نـــاقص " و بشروني بأن " صاحب الزمان " و يقصدون به الشيخ إسماعيل قد اصطفاني من بين الناس لأكون من خاصة الخاصة .

و طار قلبي فرحا لهذا الخبر و بكيت تأثرا لهذه العناية الربانية التي ما زالت ترفعني من مقام سام إلى ما هو أسمى و من حسن إلى ما هو أحسن ، لأنني اتبعت في ما مضى من حياتي سيدي الهادي الحفيان و هو شيخ متصوف يحكى عنه عدة كرامات و خوارق و صرت من أعز أحبائه ، كما صـــاحبت ســـيدي صـــالح بالسائح و سيدي الجيلاني و غيرهم من أهل الطرق المعاصرين و انتظرت ذلـــك اللقاء بفارغ الصبر ، و لما دخلت بيت الشيخ كنت أتفرس الوجوه بلهفة و كان المجلس مليئا بالمريدين و فيهم مشايخ يرتدون لباسا ناصع البياض ، و بعد مراسم التحية خرج علينا الشيخ إسماعيل و قام الجميع يقبلون يده بـــإحترام فـــائق ، و غمزني الوكيل بأن الشيخ هو ذا ، فلم أبد حماسا لأنني كنت منتظرا غير الـــذي رأيت و قد كنت رسمت له صورة خيالية حسب الكرامات و المعجـــزات الـــتي رسخها في ذهني وكيل الشيخ و أتباعه ، و رأيت شيخا عاديا ليس فيه وقار و لا

هيبة ، و خلال المجلس قدمني الوكيل إليه فرحب بي وأجلسني على يمينه و قـــدم إلي الطعام ، و بعد الأكل و الشرب بدأت الحضرة ، و قدمني الوكيل من جديد لأخذ العهد و الورد من الشيخ ، و هنأني الجميع بعد ذلك معانقين و مباركين ، و فهمت من خلال حديثهم بأنهم يسمعون عني الكثير ، و قـــد دفعـــني هـــذا الإعجاب إلى أن أعترض على بعض

أجوبة الشيخ التي كان يلقيها على السائلين ، و أعلل رأيي بالقرآن و السنة ، و استاء بعض الحاضرين من هذا التطفل و اعتبروه سوء أدب في حضرة الشيخ ، و قد اعتادوا أن لا يتكلموا بحضرته إلا بإذنه ، و أحس الشيخ بحرج الجالسين فأزاح تلك السحابة بلباقة و أعلن قائلا : " من كانت بدايته محرقة تكون نهايته مشرقة " و اعتبر الحاضرون هذا وساما من حضرته و سوف يكون أكبر ضمان لنهايتي المشرقة و هنأوني بذلك ، و لكن شيخ الطريقة ذكي و مدرب لم يترك لي المجال مفتوحا لمواصلة هذا التطفل المزعج و روى لنا قصة أحد العارفين بالله عندما جلس في حلقته بعض العلماء ، فقال له : قم فاغتسل ، و ذهب العالم و اغتسل و جاء ليجلس في الحلقة فقال له ثانية : قم فاغتسل ، و ذهب العالم و عاود الغسل كأحسن ما يكون ظنا منه بأن الغسل الأول لم يكن على الوجه الصحيح ، و جاء ليجلس فانتهره الشيخ العارف و أمره بالاغتسال من جديد فبكى العالم و قال له : يا سيدي لقد اغتسلت من علمي و من عملي و لم يبق عندي إلا ما يفتح الله به على يديك .

عند ذلك قال له العارف ، الآن اجلس .

و عرفت بأني أنا المقصود من هذه القصة كما عرف ذلك الحاضرون الذين لاموني بعد خروج الشيخ للاستراحة و أقنعوني بالسكوت و لزوم الاحترام بحضرة الشيخ صاحب الزمان لئلا تحبط أعمالي مستدلين بالآية الكريمة : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ }[1] صدق الله العظيم .

[1] سورة الحجرات (٤٩) ، الآية : ٢ .

و عرفت قدري و امتثلت للأوامر و النصائح ، و قربني الشيخ منه أكثر ، و أقمت عنده ثلاثة أيام كنت أسأل خلالها أسئلة عديدة بعضها للاختبار و كان الشيخ يعرف ذلك مني فيجيبني قائلا بأن للقرآن ظاهرا و باطنا إلى سبعة أبطـــن كما فتح لي خزانته و أطلعني على كراسه الخاص و الذي فيه سلسلة الصالحين و العارفين

مسندة و متصلة منه إلى أبي الحسن الشاذلي مرورا بعدة أولياء مـــذكورين إلى أن يصل السند إلى الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه و رضي الله عنه . و لا يفوتني أن أذكر هنا بأن الحلقات التي يقيمونها كانت روحية إذ يفتتحها الـــشيخ بقراءة ما تيسر من كتاب الله المجيد تلاوة و تجويدا ثم بعد فراغـــه يبـــدأ بمطلـــع القصيدة و يتبعه المريدون الذين يحفظون المدائح و الأذكار و أكثرها ذم للـــدنيا و ترغيب في الآخرة و فيها زهد و ورع بعد ذلك يعيد المريد الأول الجالس علـــى يمين الشيخ قراءة ما تيسر من القرآن و عندما يقول صدق الله العظيم يبدأ الشيخ مطلعا من قصيدة جديدة و يشارك الجميع في إنشادها و هكذا يتناوب الحاضرون و لو بآية واحدة يشاركون بها إلى أن يأخذ الحال الحاضرين فيتمـــايلون يمينـــا و شمالا على رنات تلك المدائح إلى أن ينهض الشيخ و ينهض معه المريدون فتكون حلقة هو قطبها و يبدؤون بذكر إسم الصدر قائلين آه . آه . آه . آه . و الشيخ يدور وسطهم متوجها في كل مرة إلى واحد منهم حتى يحمى الوطيس و تـــصبح الحركات و الشطحات شبيهة بدق الطبول و يقفز البعض في حركات جنونية و ترتفع الأصوات في نغمة منسقة و لكنها مزعجة إلى أن يعود الهدوء بعد عنـــاء و تعب ، بقصيدة ختامية للشيخ فيجلس الجميع بعد ما قبّلوا رأس الشيخ و أكتافـــه بالتداول ، و قد شاركتهم بعض هذه الشطحات محاكيا لهم في غير قناعة مـــني و وجدت نفسي متناقضاً مع العقيدة التي تبنيتها و هي عـــدم الإشـــراك أي عـــدم التوسل بغير الله فسقطت على الأرض جاهشا بالبكاء متحيرا مشتتا بين تيـــارين متناقضين ، تيار الصوفية و هي أجواء روحية يعيشها الإنـــسان فـــتملأ أعماقـــه بشعور الرهبة و الزهد و التقرب إلى الله عن طريق أوليائه الـــصالحين و عبـــاده العارفين ، و تيار الوهابية الذي علمني أن ذلك كله شرك بـــالله ، و الـــشرك لا يغفره الله .

و إذا كان محمد رسول الله (صلى الله عليه و آله) ، لا ينفع و لا يتوسل به إليه سبحانه فما قيمة هؤلاء الأولياء و الصالحين بعده ؟ ! .

و بالرغم من المنصب الجديد الذي نصبني فيه الشيخ ، إذ أصبحت وكيله في قفصة لم أكن مقتنعا كليا في داخلي و إن كنت أميل أحيانا إلى الطرق الصوفية ، و أشعر دائما أني أكن لها احتراما و مهابة من أجل أولياء الله و الصالحين من عباده

، و لكني أكابر و أجادل محتجا بقوله تعالى : { وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ... } [١] و إذا قال لي قائل أن الله تعالى يقول : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ ... } [٢] أرد عليه بسرعة كما علمني علماء السعودية " الوسيلة هي العمل الصالح " ، و المهم أنني عشت تلك الفترة مضطربا مشوش الفكر ، و قد يتوافد علي في بيتي بعض المريدين فنحيي سهرات منتظمة و نقيم العمارة [٣] .

و بدأ الجيران يتذمرون من الأصوات المزعجة التي تبعث من حناجرنا بذكر (آه) ، و لكنهم لا يجاهرون لي بذلك غير أنهم يشتكون لزوجتي عن طريق نسائهم ، و لما علمت بذلك طلبت من المجموعة أن يقيموا الحلقات في أحد منازلهم ، و اعتذرت بأنني سوف أسافر إلى الخارج لمدة ثلاثة أشهر . . . و ودعت الأهل و الأقارب و قصدت ربي متوكلا عليه . لا أشرك به شيئا .

* * *

[1] سورة القصص (٢٨) ، الآية : ٨٨ .

[2] سورة المائدة (٥) ، الآية : ٣٥ .

[3] العمارة : هي الحلقة التي يذكر فيها إسم الصدر في شطحات منتظمة .

الرحلة الموفقة

في مصر

لم تطل إقامتي في طرابلس عاصمة ليبيا إلا بقدر ما حصلت على تأشيرة من السفارة المصرية للدخول إلى أرض الكنانة .

و قد التقيت بعض أصدقائي هناك فأعانوني شكر الله سعيهم ، و في طريقي إلى القاهرة و هو طريق طويل يدوم ثلاثة أيام بلياليها كنت في سيارة أجرة جمعتني بأربعة مصريين عاملين في ليبيا و عائدين إلى وطنهم ، و خلال السفر كنت أحدثهم و أقرأ لهم القرآن فأحبوني و دعاني كل منهم للنزول عنده ، و تخيرت من بينهم من ارتاحت نفسي إليه لورعه و تقواه إسمه أحمد و أولاني من الضيافة و القبول ما هو أهل له جزاه الله ، و أمضيت عشرين يوما بالقاهرة زرت خلالها الموسيقار فريد الأطرش في عمارته على النيل فقد كنت معجبا به لما قرأت عن أخلاقه و تواضعه في مجلات مصرية تباع عندنا في تونس ، و لم يكن حظي منه سوى عشرين دقيقة لأنه كان خارجا للمطار ليسافر إلى لبنان ، و زرت الشيخ عبد الباسط محمد عبد الصمد المجود الشهير و كنت معجبا به أشد الإعجاب ، بقيت معه ثلاثة أيام كان النقاش خلالها مع أقاربه و أصدقائه في مواضيع متعددة و كانوا يعجبون لحماسي و صراحتي و كثرة إطلاعي ، فإذا تحدثوا عن الفن غنيت و إذا تحدثوا عن الزهد و التصوف ذكرت لهم أني من الطريقة التيجانية و المدنية أيضا ، و إذا تحدثوا عن الغرب حكيت لهم عن باريس و لندن و بلجيكا و هولندا و إيطاليا و أسبانيا التي زرتها خلال العطل الصيفية ، و إذا تحدثوا عن الحج فاجأتهم بأني حججت و إني ذاهب إلى

العمرة و حكيت لهم عن أماكن لا يعرفها حتى الذي حج سبع مرات كغار حراء و غار ثور و مذبح إسماعيل ، و إذا تحدثوا عن العلوم و الاختراعات شفيت غليلهم بالأرقام و المصطلحات و إذا تحدثوا عن السياسة أفحمتهم بما عندي من آراء قائلا : " رحم الله الناصر صلاح الدين الأيوبي الذي حرم على نفسه التبسم فضلا عن الضحك ، و عندما لامه الناس المقربون إليه و قالوا له : كان رسول الله (صلى الله عليه و آله) لا يرى إلا باسم الثغر ، أجابهم : كيف تريدون مني أن أتبسم و المسجد الأقصى يحتله أعداء الله ، لا و الله لن أتبسم حتى أحرره أو اهلك دون ذلك " .

و كان شيوخ من الأزهر يحضرون تلك الجلسات و يعجبون لما أحفظ من أحاديث و آيات و ما أملكه من حجج دامغة فكانوا يسألونني عن الجامعة التي تخرجت فيها ، فأفخر بأني من خريجي جامعة الزيتونة و هي تأسست قبل الأزهر الشريف ، و أضيف بأن الفاطميين الذي أسسوا الأزهر انطلقوا من مدينة المهدية بتونس .

كذلك تعرفت في جامعة الأزهر الشريف على العديد من العلماء الأفاضل الذين أهدوني بعض الكتب ، و كنت يوما ما في مكتب أحد المسؤولين عن شؤون الأزهر ، إذ أقبل أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة المصرية و دعاه لحضور تجمع المسلمين و الأقباط في أكبر الشركات المصرية للسكك الحديدية بالقاهرة ، على أثر أعمال تخريبية وقعت بعد حرب حزيران فأبى أن يذهب إلا و أنا معه ، و جلست في منصة الشرف بين العالم الأزهري و الأب شنودة ، و طلبوا مني إلقاء كلمة في الحاضرين ففعلت بكل سهولة لما تعودته من إلقاء المحاضرات في المساجد و اللجان الثقافية في بلادي .

و المهم من كل ما حكيته في هذا الفصل ، هو أن شعوري بـــدأ يكـــبر و ركبني بعض الغرور و ظننت فعلا بأنني أصحبت عالما ، كيف لا و قد شـــهد لي بذلك علماء الأزهر الشريف و منهم من قال لي : يجب أن يكون مكانك هنا في الأزهر ، و مما زادني فخرا و اعتزازا بالنفس ، أن رسول الله (صلى الله عليه و آلـه) أذن لي في الدخول لرؤية

مخلفاته ، حسب ما ادعاه المسؤول عن مسجد سيدنا الحسين بالقاهرة و قد أدخلني منفردا إلى حجرة لا تفتح إلا إذا فتحها هو ، و أغلق الباب خلفي و فتح الخزانة و أخرج لي قميص رسول الله (صلى الله عليه و آله) فقبلته و أراني بعض المخلفات الأخرى ، و خرجت من عنده باكيا متأثرا على عناية الرسول بي شخصيا و خصوصا أن هذا المسؤول لم يطلب مني نقودا ، بل امتنع و أخذ مني شيئا بسيطا بعد إلحاحي و هنأني مبشرا بأنني من المقبولين عند حضرة الرسول الأكرم .

و ربما أثر هذا الحادث في نفسي و جعلني أفكر مليا عدة ليال في ما يقوله الوهابيون من أن الرسول مات و انتهى أمره كغيره من الأموات ، فلم أرتح لهذه الفكرة بل و تيقنت تفاهة هذا الاعتقاد ، فإذا كان الشهيد الذي يقتل في سبيل الله ليس بميت بل هو حي يرزق عند ربه فكيف بسيد الأولين و الآخرين ، و زاد هذا الشعور قوة و وضوحا ما تلقيته في سابق حياتي من تعاليم الصوفية الذين يعطون لأوليائهم و شيوخهم صلاحية التصرف و التأثير في مجريات الأمور و يعترفون بأن الله وحده هو الذي أعطاهم هذه الصلاحية لأنهم أطاعوه سبحانه و رغبوا في ما عنده ، أ لم يقل في حديث قدسي " عبدي أطعني تكن مثلي تقل للشيء كن فيكون " .

بدأ الصراع الداخلي يتجاذبني ، و أهيت إقامتي في مصر بعد إن قمت خلال الأيام الأخيرة بزيارة المساجد المتعددة ، و صليت في جميعها من مالك إلى أبي حنيفة إلى مسجد الشافعي و أحمد بن حنبل ، ثم إلى السيدة زينب و سيدنا الحسين ، كما زرت زاوية التيجانية و لي في ذلك حكايات طويلة يطول شرحها ، و قد رمت الاختصار .

* * *

لقاء في الباخرة

و سافرت إلى الإسكندرية في اليوم المقرر حسب حجز المكان في الباخرة المصرية التي تسافر إلى بيروت و وجدت نفسي مرهقا متعبا جسديا و فكريا ، و أنا ملقى على السرير المخصص لي ، فنمت قليلا و كانت الباخرة قد أبحرت منذ ساعتين أو ثلاثة ، و استيقظت على صوت مجاوري و هو يقول : " يبدو أن الأخ متعب " .

قلت نعم أتعبني السفر من القاهرة إلى الإسكندرية و قد بكرت للوصول على الموعد فلم أنم البارحة إلا قليلا .

و فهمت من لهجته أنه غير مصري ، و دفعني فضولي كعادتي إلى أن أتعرف عليه فعرفته نفسي و عرفت أنه عراقي و هو أستاذ في جامعة بغداد اسمه منعم ، و قد جاء إلى القاهرة لتقديم أطروحة الدكتوراه في الأزهر .

و بدأنا الحديث عن مصر و عن العالم العربي و الإسلامي و عن هزيمة العرب و انتصار اليهود و الحديث ذو شجون ، قلت في معرض كلامي أن سبب الهزيمة هو انقسام العرب و المسلمين إلى دويلات و إلى طوائف و مذاهب متعددة ، و رغم كثرة عددهم فلا وزن لهم و لا اعتبار في نظر أعدائهم .

و تكلمنا كثيرا عن مصر و المصريين و كنا متفقين على أسباب الهزيمة ، و أضفت بأنني ضد هذه الانقسامات التي ركزها الاستعمار فينا ليسهل عليه احتلالنا و إذلالنا ، و نحن ما زلنا نفرق بين المالكية و الأحناف و رويت له قصة

مؤسفة وقعت لي عندما دخلت إلى مسجد أبي حنيفة في القاهرة و صليت معهم صلاة العصر جماعة فما راعني بعد الصلاة إلا و الرجل الذي كان قائما بجانبي يقول لي في غضب " لماذا لا تكتف يديك في الصلاة " فأجبته بأدب و احترام أن المالكية يقولون بالسدل و أنا مالكي فقال لي : " إذهب إلى مسجد مالك وصل هناك " فخرجت مستاءً ناقما على هذا التصرف الذي زادني حيرة على حيرتي .

و إذا بالأستاذ العراقي يبتسم و يقول لي إنه هو الآخر شيعي .

فاضطربت لهذا النبأ و قلت غير مبال لو كنت أعلم أنك شيعي لما تكلمت معك ، قال : و لماذا ؟ قلت لأنكم غير مسلمين فأنتم تعبدون علي بن أبي طالب و المعتدلون منكم يعبدون الله و لكنهم لا يؤمنون برسالة النبي محمد (صلى الله عليه و آله) ، و يشتمون جبرائيل و يقولون بأنه خان الأمانة فبدلاً من أداء الرسالة إلى علي أدَّاها إلى محمد ، و استرسلت في مثل هذه الأحاديث بينما كان مرافقي يبتسم حينا و يحوقل [1] أحياناً ، و لما أنهيت كلامي سألني من جديد : أنت أستاذ تدرس الطلاب ؟ قلت نعم ، قال : إذا كان تفكير الأساتذة بهذا الشكل فلا لوم على عامة الناس الذين لا ثقافة لهم ! قلت : ماذا تقصد ؟ أجاب : عفوا و لكن من أين لك هذه الادعاءات الكاذبة ؟ قلت من كتب التاريخ و مما هو مشهور عند الناس كافة .

قال : لنترك الناس كافة و لكن أي كتاب تاريخ قرأت ؟ بدأت أعدد بعض الكتب مثل كتاب فجر الإسلام و ضحى الإسلام و ظهر الإسلام لأحمد أمين و غيرها ، قال : و متى كان أحمد أمين حجة على الشيعة ؟ و أضاف : إن مقتضى العدل و الموضوعية أن تتبين الأمر من مصادرهم الأصلية المعروفة .

---

[1] حوقل ، يحوقل : يكثر من قول : لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم .

قلت : و كيف لي أن أتبين في أمر معروف لدى الخاص و العام ، قـــال : إن أحمد أمين نفسه زار العراق و كنت من بين الأساتذة الـــذين التقـــوا بـــه في النجف و عندما عاتبناه على كتاباته عن الشيعة اعتذر قائلا : إني لا أعلم عـــنكم أي شيء و أني لم أتصل بالشيعة من قبل و هذه أول مرة ألتقي فيها بالشيعة .

قلنا له رب عذر أقبح من ذنب فكيف لا تعرف عنا إي شيء و مع ذلك تكتب عنا كل شيء قبيح ؟ ! ثم أضاف قائلا :

يا أخي نحن إذا حكمنا بخطأ اليهود و النصارى من خلال القرآن الكريم و هو عندنا الحجة البالغة فموقفنا ضعيف لأنهم لا يعترفون به ، و تكون الحجة أقوى و أبلغ عندما نبين خطأهم من خلال كتبهم التي يعتقدونها ، و ذلك من باب " و شهد شاهد من أهلها " .

نزل كلامه هذا على قلبي نزول الماء الزلال على قلب العطشان و رأيتني أتحول من ناقد حاقد إلى باحث فاقد ، لأنني أحسست بمنطق سليم و حجة قوية ، و ما علي لو تواضعت قليلا و أصغيت إليه ! قلت له :

أنت إذا ممن يعتقدون برسالة نبينا محمد ؟ أجاب : (صلى الله عليه و آله) و كل الشيعة مثلي يعتقدون ذلك و ما عليك يا أخي إلا أن تتحقق من ذلك بنفسك حتى تكون على بينة من الأمر ، و لا تظن بإخوانك الشيعة الظنونا " لان بعض الظن إثم " و أضاف قائلا : و إذا كنت فعلا تريد معرفة الحقيقة و تطلع عليها بعينيك و يستيقن بها قلبك ، فأنا أدعوك لزيارة العراق و الاتصال بعلماء الشيعة و عوامهم و ستعرف عند ذلك أكاذيب المغرضين و الحاقدين .

قلت : إنها أمنيتي أن أزور العراق في يوم من الأيام و أتعرف على آثارها الإسلامية المشهورة التي خلفها العباسيون و على رأسهم هارون الرشيد ، و لكن ، أولا : إمكانياتي المادية محدودة و قد رتبتها لأداء العمرة ، ثانيا : إن جواز السفر الذي أحمله لا يسمح لي بالدخول إلى العراق ، قال : أولا عندما قلت لك أدعوك لزيارة العراق فذلك يعني أني أتكفل بتغطية نفقات سفرك من بيروت إلى بغداد ذهابا و إيابا و إقامتك بالعراق ستكون معي في بيتي فأنت ضيفي ، و ثانياً بشأن الجواز الذي لا يسمح لك بالدخول إلى العراق فلنترك ذلك إلى الله سبحانه

و تعالى فإذا قدر لك أن تزور فسوف يكون ذلك حتى بدون جـــواز ســـفر ، و سوف نحاول الحصول على تأشيرة للدخول فور وصولنا إلى بيروت .

فرحت كثيرا بهذا العرض و وعدت صاحبي بأن أرد عليه الجواب غدا إن شاء الله تعالى .

خرجت من غرفة النوم و صعدت إلى سطح الباخرة أتنفس الهواء الجديد ، و أنا أفكر تفكيرا جديدا و عقلي شارد في البحر الذي ملأ الآفاق ، و أسبح بحمد ربي الذي خلق الأكوان و أحمده ، و أشكره على أن أوصلني إلى هذا المكان و أسأله سبحانه و تعالى أن يحميني من الشر و أهله و يحفظني من الزلل و الخطأ ، و سرح تفكيري و أنا أستعرض شريطا أمام عيني للأحداث التي عشتها و السعادة التي تذوقتها من طفولتي إلى ذلك اليوم و أحلم بمستقبل أفضل ، و أشعر كأن الله و رسوله يحيطانني بعناية خاصة ، فالتفت صوب مصر التي ما زالت بعض شواطئها تتراءى من حين لآخر مودعا تلك الأرض التي فيها قبلت قميص رسول الله (صلى الله عليه و آله) و هي أعز ما بقي عندي من تلك الذكريات التي عشتها في مصر ، و عدت أستعرض كلام الشيعي الجديد الذي أدخل علي فرحا كبيرا لتحقيق حلم كان يراودني منذ صغري ألا و هو زيارة العراق ، تلك البلاد التي رسمها في ذهني بلاط الرشيد و المأمون مؤسس دار الحكمة التي كان يقصدها طلاب العلوم المختلفة من الغرب أيام ازدهار الحضارة الإسلامية ، أضف إلى ذلك فهي بلاد القطب الرباني و الشيخ الصمداني سيدي عبد القادر الجيلاني الذي ملا صيته الأقطار كلها و دخلت طريقته كل قرية و علت همته كل همة فها هي عناية جديدة من الله لتحقيق هذا الحلم ، و بدأت أتخيل و أسبح في بحر الخيال و الآمال حتى نبهني مذياع الباخرة و هو ينادي المسافرين إلى التوجه للمطعم لتناول العشاء ، ذهبت صوب المكان المذكور فإذا الناس يتزاحمون كعادتهم في كل تجمع و كل و احد يريد الدخول قبل غيره و كثر الصياح و الهرج ، و إذا بالشيعي يمسك بثوبي ليسحبني بلطف إلى الخلف و هو يقول : تعالى يا أخي لا تتعب نفسك فسوف نأكل فيما بعد بدون زحمة و قد فتشت

عنك في كل مكان ، ثم سألني : هل صليت ؟ قلت : لم أصل بعد ، فقـــال : إذا تعال نصلي ثم نأتي للأكل و قد خلص هؤلاء من الزحام و الصياح .

استحسنت رأيه و صاحبته إلى مكان خال من الناس حيـــث توضـــأت و قدمته ليصلي إماما قصد اختباره كيف يصلي على أن أعيد صلاتي فيما بعـــد ، و ما إن أقام الصلاة لأداء فريضة المغرب و استرسل في القراءة و الدعاء حتى غيرت رأيي ، و تخيلت بأني مأموم بأحد الصحابة الكرام الذين أقرأ عنهم و عن ورعهم

و تقواهم ، و بعد فراغه من الصلاة ، أطال الدعاء و لم أسمع قبلا هذه الأدعية في بلادنا و لا في البلاد التي عرفتها ، و كنت أطمئن و أرتاح كلما سمعته يصلي على محمد و آله و يثني عليه بما هو أهله .

بعد الصلاة لاحظت في عينيه أثر البكاء كما سمعته يدعو الله أن يفتح بصيرتي و يهديني .

اتجهنا إلى المطعم و قد بدأ يخلو من الآكلين و دخلنا فلم يجلس حتى أجلسني و جيء لنا بصحنين من الأكل فرأيته يغير صحنه بصحني لان نصيبي من اللحم كان أقل من نصيبه و أخذ يلح علي و كأني ضيفه و يلاطفني و يروي لي روايات لم أسمعها من قبل تخص الأكل و الشرب و آداب المائدة .

و أعجبت بأخلاقه ، و صلى بنا صلاة العشاء و أطالها بالدعاء حتى أبكاني و سألت الله سبحانه أن يغير ظني فيه لان بعض الظن إثم .

و لكن من يدري ؟ ! .

و نمت أحلم بالعراق و ألف ليلة و ليلة و استيقظت على ندائه يوقظني لصلاة الفجر ، و صلينا و جلسنا نتحدث عن نعم الله على المسلمين .

و رجعنا للنوم ثانية و لما أفقت وجدته جالسا على سريره و في يده مسبحة و هو يذكر الله فارتاحت له نفسي و اطمأن له قلبي و استغفرت ربي .

كنا نتغذى في المطعم عندما سمعنا المذيع يعلن عن اقتراب الباخرة من الشواطئ اللبنانية و سوف نكون في ميناء بيروت بحول الله بعد ساعتين سألني هل فكرت مَلياً و ماذا قررت .

قلت إذا سهل الله سبحانه و تعالى الحصول على تأشيرة الدخول فلا أرى مانعا و شكرته على دعوته .

نزلنا في بيروت حيث أمضينا تلك الليلة و من بيروت سافرنا إلى دمـــشق حيث اتجهنا فور وصولنا إليها إلى سفارة العراق ، و حـــصلت علـــى التأشـــيرة بسرعة مذهلة لم أتصورها ، و خرجنا من هناك و هو يهنئني و يحمـــد الله علـــى إعانته .

زيارة العراق لأول مرة

سافرنا من دمشق إلى بغداد في إحدى سيارات شركة النجف العالمية الضخمة المكيفة و كانت الحرارة تبلغ أربعين درجة مئوية في بغداد ، عندما وصلنا اتجهنا فورا إلى بيته في حي جميلة ، دخلت البيت المكيف و استرحت ثم جاءني بقميص فضفاض يسمونه " دشداشة " .

أحضر الفاكهة و الأكل و دخل أهله يسلمون عليّ في أدب و إحترام و كان والده يعانقني و كأنه يعرفني من قبل ، أما والدته فوقفت بالباب في عباءة سوداء تسلم و ترحب ، و اعتذر صديقي عن والدته بأن المصافحة عندهم محرمة ، و أعجبت أكثر و قلت في نفسي : هؤلاء الذين نتهمهم نحن بالخروج عن الدين يحافظون عليه أكثر منا .

و قد لمست خلال أيام السفر التي قضيتها معه نبل أخلاق و عزة نفس في كرامة و شهامة و تواضع و ورع لم أعهده من قبل .

و شعرت بأني لست غريبا بل و كأني في بيتي .

صعدنا في الليل إلى سطح الدار حيث فرشت لنا أماكن للنوم ، و بقيت حتى ساعة متأخرة أهذي أفي حلم أنا أم في يقظة ، أحقا إنني في بغداد بجوار سيدي عبد القادر الجيلاني .

ضحك صديقي متسائلا ماذا يقول التونسيون عن عبد القادر الجيلاني ؟ ،

و بدأت أحكي له عن الكرامات التي تروى عندنا و عن المقامات التي تـــشيد في ربوعنا باسمه و أنه قطب الدائرة و كما أن محمد رسول الله هو سيد الأنبياء فعبد القادر هو سيد الأولياء و قدمه على رقبة كل الأولياء و هو القائل : " كل الناس يطوف بالبيت سبعا و أنا البيت طائفاً بخيامي" .

و حاولت إقناعه بأن الشيخ عبد القادر يأتي إلى بعض مريديـــه و محبيـــه جهرة و يعالج أمراضهم و يفرج كربتهم و نسيت أو تناسيت العقيدة الوهابيـــة التي تأثرت بها من أن ذلك كله شرك بالله و لما شعرت بعدم حمـــاس صـــديقي حاولت أقناع نفسي بأن ما قلته لا يصح ، و سألته عن رأيه .

قال صديقي و هو يضحك : نم الليلة و استرح من التعب الذي لقيتـــه في السفر و غدا إن شاء الله سنزور الشيخ عبد القادر ، و طرت فرحا لهذا الخـــبر و وددت لو طلع الفجر وقتئذ .

فاستغرقت في نوم عميق .

* * *

عبد القادر الجيلاني و موسى الكاظم

ذهبنا بعد الفطور إلى باب الشيخ و رأيت المقام الذي طالما تمنيت زيارته ، و هرولت كأني مشتاق لرؤيته و دخلت أتلهف كأني سوف أرتمي في أحضانه و صديقي يتبعني أينما رحت ، و اختلطت بالزوار الذين يتراكمون على المقام تراكم الحجاج على بيت الله الحرام و منهم من يلقي قبضات من الحلوى و الزوار يتسابقون لالتقاطها و أسرعت لأخذ اثنتين منها أكلت إحداها على الفور للبركة و خبأت الأخرى في جيبي للذكرى ، صليت هناك و دعوت بما تيسر لي و شربت الماء و كأني أشرب من ماء زمزم ، و رجوت صديقي أن ينتظرني ريثما أكتب إلى أصدقائي في تونس بعض البطاقات البريدية التي اشتريتها من هناك و تمثل كلها صورة مقام الشيخ عبد القادر بالقبة الخضراء ، و أردت بذلك أن أبرهن لأصدقائي و أقاربي في تونس عن علو همتي التي أوصلتني لذلك المقام الذي لم يصلوا إليه .

بعد ذلك تناولنا طعام الغداء في مطعم شعبي وسط العاصمة ، ثم أخذني صديقي في سيارة أجرة إلى الكاظمية ، عرفت هذا الاسم من خلال ما ذكره صديقي لسائق السيارة وصلنا إليها و ما أن نزلنا من السيارة نتمشى حتى اختلطنا بمجموعات كبيرة من الناس يمشون في نفس الاتجاه نساء و رجالا و أطفالا و يحملون بعض الأمتعة ، ذكرني ذلك بموسم الحج و لم أكن بعد أعرف وجهة المكان المقصود حتى تراءت لي قباب و مآذن ذهبية يأخذ إشعاعها بالأبصار ، و فهمت أنه مسجد من مساجد الشيعة لسابق علمي بأنهم يزخرفون مساجدهم بالذهب

و الفضة التي حرمها الإسلام ، و شعرت بحرج في الدخول إليها ، غير أني – مراعاة لعواطف صديقي – اتبعته من غير اختيار .

دخلنا من الباب الأول و بدأت ألاحظ تمسح الشيوخ بالأبواب و تقبيلها ، و سليت نفسي بقراءة لوحة كبيرة كتب عليها " ممنوع دخول النساء السافرات " مع حديث للإمام علي يقول فيه : " يأتي على الناس زمان يخرج فيه النساء كاسيات عاريات . . إلى آخره " ، وصلنا إلى المقام و بينما كان صديقي يقرأ إذن الدخول كنت أنظر إلى الباب و أعجب من هذا الذهب و النقوش التي تملا صفحاته و كلها آيات قرآنية .

دخل صديقي و دخلت خلفه و أنا على حذر تجول بخاطري عدة أساطير قرأتها في بعض الكتب التي تكفر الشيعة و رأيت داخل المقام نقوشا و زخرفة لم تخطر على بالي و دهشت لما رأيت و تصورت نفسي في عالم غير مألوف و لا معروف ، و من حين إلى آخر أنظر بإشمئزاز إلى هؤلاء الذين يطوفون حول الضريح باكين مقبلين أركانه و قضبانه بينما يصلي البعض الآخر قرب الضريح ، و استحضرت في خاطري حديث الرسول (صلى الله عليه و آله) و هو يقول : " لعن الله اليهود و النصارى اتخذوا قبور أوليائهم مساجد " .

و ابتعدت عن صديقي الذي ما أن دخل حتى أجهش بالبكاء ثم تركته يصلي و اقتربت من اللوحة المكتوبة للزيارة و هي معلقة على الضريح .

و قرأتها و لم أفهم الكثير منها بما حوته من أسماء غريبة عني أجهلها ، ابتعدت في زاوية و قرأت الفاتحة ترحماً على صاحب الضريح قائلا : " اللهم إن كان هذا الميت من المسلمين فأرحمه فأنت أعلم به مني " .

و اقترب مني صديقي و همس في أذني قائلا : إن كانت لديك حاجة فاسأل الله في هذا المكان لأننا نُسمية باب الحوائج و ما أعطيت أهمية لقوله

سامحني الله ، بل كنت أنظر إلى الشيوخ الطاعنين في السن و علـــى رؤوســـهم عمائم بيض و سود و في جباههم آثار السجود ، و زاد في هيبتهم تلك اللحـــى التي أعفوها و تنطلق منها روائح طيبة و لهم نظرات حادة مهيبة .

و ما أن يدخل الواحد منهم حتى يجهش بالبكاء ، و تساءلت في داخلي أيمكن أن تكون هذه الدموع كاذبة ؟ أيمكن أن يكون هؤلاء الطاعنون في السن مخطئين ؟

خرجت متحيرا مندهشا مما شاهدته بينما كان صديقي يرجع أدراجه احتراما لئلا يعطي المقام ظهره .

سألته : من هو صاحب هذا المقام ؟ .

قال : الإمام موسى الكاظم .

قلت : و من هو الإمام موسى الكاظم ؟ .

قال : سبحان الله ! أنتم إخواننا أهل السنة و الجماعة تركتم اللب و تمسكتم بالقشور .

قلت غاضبا منقبضا : كيف تمسكنا بالقشور و تركنا اللب ؟ .

فهدأني و قال : يا أخي أنت منذ دخلت العراق لا تفتأ تذكر عبد القادر الجيلاني فمن هو عبد القادر الجيلاني الذي استوجب كل اهتمامك ! ؟ .

أجبت على الفور و بكل فخر : هو من ذرية الرسول ، و لو كان نبي بعد محمد لكان عبد القادر الجيلاني رضي الله تعالى عنه ! .

قال : يا أخ السماوي هل تعرف التاريخ الإسلامي ؟ .

و أجبت في غير تردد بنعم ! و في الحقيقة ما عرفت من التاريخ الإسلامي قليلا و لا كثيرا لان أساتذتنا و معلمينا كانوا يمنعوننا من ذلك مدعين بأنه تاريخ أسود مظلم لا فائدة من قراءته ، و أذكر على سبيل المثال أن الأستاذ المختص في تدريسنا مادة البلاغة كان يُدرِّسنا الخطبة الشقشقية من كتاب نهج البلاغة للإمام علي ، و احترت كما احتار عدد من التلاميذ عند قراءتها ، و تجرأت و سألته إن

كان هذا من كلام الإمام علي حقا ، فأجاب : " قطعا و من لمثل هذه البلاغـــة سواه .

و لو لم يكن كلامه كرم الله وجهه ، لم يكن علماء المسلمين أمثال الشيخ

محمد عبده مفتي الديار المصرية ليهتم بشرحه " .

عند ذلك قلت : إن الإمام علي يتهم أبا بكر و عمر بأنهما اغتصبا حقه في الخلافة فثارت ثائرة الأستاذ و انتهرني بشدة و هددني بالطرد إن عدت لمثل هذا السؤال ، و أضاف قائلا : نحن ندرس بلاغة و لا ندرس التاريخ و ما يهمنا شيئا من أمر التاريخ الذي سودت صفحاته الفتن و الحروب الدامية بين المسلمين و كما طهر الله سيوفنا من دمائهم فلنطهر ألسنتنا من شتمهم .

و لم أقنع بهذا التعليل و بقيت ناقما على ذلك الأستاذ الذي يدرسنا بلاغة بدون معان ، و حاولت مرارا عديدة دراسة التاريخ الإسلامي و لكن لم تتوفر عندي المصادر و الإمكانات لتوفير الكتب ، و ما وجدت أحدا من شيوخنا و علمائنا يهتم بها و كأنهم تصافقوا على طيها و عدم النظر فيها ، فلا تجد أحدا يملك كتابا تاريخيا كاملا .

فلما سألني صديقي عن معرفة التاريخ أحببت معاندته فأجبته بنعم و لسان حالي يقول : أعرف أنه تاريخ مظلم مسود لا فائدة فيه ، إلا الفتن و الأحقاد و التناقضات .

قال : هل تعرف متى ولد عبد القادر الجيلاني ، في أي عصر ؟ قلت :

حسب التقريب في القرن السادس أو القرن السابع ، قال : فكم بينه و بين رسول الله (صلى الله عليه و آله) ؟ قلت ستة قرون ، قال : فإذا كان القرن فيه جيلان على أقل تقدير فيكون نسبة عبد القادر الجيلاني للرسول بعد إثني عشر جداً ، قلت نعم ! قال : فهذا موسى بن جعفر بن محمد بن عليّ بن الحسين بن فاطمة الزهراء يصل نسبه إلى جده رسول الله بعد أربعة أجداد فقط .

أو بالأحرى فهو من مواليد القرن الثاني للهجرة فأيهما أقرب إلى رسول الله موسى أم عبد القادر ؟ .

و بدون تفكير قلت : هذا أقرب طبعا ! و لكن لماذا نحن لا نعرفـــه و لا نسمع بذكره ؟ قال : هذا هو بيت القصيد و لذلك قلت بأنكم – و اسمح لي أن أعيدها – تركتم اللب و تمسكتم بالقشور فلا تؤاخذني و أرجوك المعذرة .

كنا نتحدث و نمشي و نتوقف من حيث لآخر حتى وصلنا إلى منتدى علمي يجلس فيه الطلبة و الأساتذة و يتبادلون الآراء و النظريات ، هناك جلسنا و كان يبحث بعينيه في الجالسين و كأنه على موعد مع أحدهم ، جاء أحد الوافدين و سلم علينا و فهمت أنه زميله في الجامعة و سأله عن شخص علمت من الأجوبة أنه دكتور و سيأتي عما قريب ، في الأثناء قال لي صديقي : أنا جئت بك لهذا المكان قاصدا أن أعرفك بالدكتور المتخصص في الأبحاث التاريخية و هو أستاذ التاريخ في جامعة بغداد و قد حصل على الدكتوراه في أطروحته التي كتبها عن عبد القادر الجيلاني و سوف ينفعك بحول الله ، لأنني لست مختصا في التاريخ .

شربنا بعض العصير البارد حتى وصل الدكتور و نهض إليه صديقي مسلماً عليه و قدمني إليه و طلب منه أن يقدم إلي لمحة عن تاريخ عبد القادر الجيلاني ، و استأذننا في الانصراف لبعض شؤونه .

طلب لي الدكتور مشروبا باردا و بدأ يسألني عن إسمي و بلادي و مهنتي كما طلب مني أن أحدثه عن شهرة عبد القادر الجيلاني في تونس .

و رويت له الكثير في هذا المجال حتى قلت و الناس عندنا يعتقدون بأن الشيخ عبد القادر كان يحمل رسول الله على رقبته ليلة المعراج عندما تأخر جبريل خوفا من الاحتراق و قال له رسول الله (صلى الله عليه و آله) : قدمي على رقبتك و قدمك على رقاب كل الأولياء إلى يوم القيامة .

و ضحك الدكتور كثيرا عند سماعه كلامي و ما دريت أكان ضحكه على هذه الروايات أم كان على الأستاذ التونسي الذي بين يديه ! بعد مناقشة قصيرة حول الأولياء و الصالحين قال أنه بحث طوال سبع سنوات سافر خلالها إلى لاهور في الباكستان و إلى تركيا و إلى مصر و بريطانيا و كل الأماكن التي

بها مخطوطات تنسب إلى عبد القادر الجيلاني و اطلع عليها و صورها ، و لـــيس فيها أي إثبات بأن عبد القادر الجيلاني هو من سلالة الرسول ، و غاية ما هنالك بيت من الشعر ينسب إلى أحد أحفاده يقول فيه : " و جدي رسول الله " و قد يحمل ذلك كما قال بعض العلماء ، على تأويل حديث النبي (صلى الله عليه و آلـه) : " أنا جد كل تقي " و زادني بأن

التاريخ الصحيح يثبت أن عبد القادر أصله فارسي و ليس عربيا أصلا و قد ولد في بلدة بإيران تسمى جيلان و إليها ينسب عبد القادر ، و قد نزح إلى بغداد حيث تعلم هناك و جلس يدرس في وقت كان في الانحلال الخلقي فيه فاشيا . و كان الرجل زاهدا فأحبه الناس و بعد وفاته أسسوا الطريقة القادرية نسبة إليه ، كما يفعل دائما أتباع كل متصوف و أضاف قائلا : حقا أن حالة العرب مؤسفة من هذه الناحية .

و ثارت في رأسي حمية الوهابية فقلت للدكتور : إذاً أنت وهابي الفكر يا حضرة الدكتور فهم يقولون كما تقول ليس هناك أولياء . فقال : لا أنا لست على رأي الوهابية .

و المؤسف عند المسلمين هو إما الإفراط و أما التفريط ، فأما أن يؤمنوا و يصدقوا بكل الخرافات التي لا تستند إلى دليل و لا عقل و لا شرع ، و أما أن يكذبوا بكل شيء حتى بمعجزات نبينا محمد و أحاديثه لأنها لا تتماشى و أهواءهم و عقائدهم التي يعتقدونها و قد شرقت طائفة و غربت أخرى فالصوفية يقولون بإمكانية حضور الشيخ عبد القادر الجيلاني مثلا في بغداد و في نفس الوقت في تونس ، و قد يشفي مريضا في تونس و ينقذ غريقا في نهر دجلة في نفس اللحظة فهذا إفراط ، و الوهابية – كرد فعل على الصوفية – كذبوا بكل شيء حتى قالوا بشرك من توسل بالنبي ، و هذا تفريط لا يا أخي نحن كما قال الله تعالى في كتابه العزيز : { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ }[1] .

أعجبني كلامه كثيرا و شكرته مبدئيا ، و أبديت قناعتي بما قال .

---

[1] سورة البقرة (٢) ، الآية : ١٤٣ .

فتح محفظته و أخرج كتابه عن عبد القادر الجيلاني و أهدانيه ، كما دعاني للضيافة فاعتذرت و بقينا نتحدث عن تونس و عن شمال إفريقيا حتى جاء صديقي

، ورجعنا إلى البيت ليلا بعد أن أمضينا كامل اليوم في الزيارات و المناقشات ، و شعرت بالتعب و الإرهاق فاستسلمت للنوم .

استيقظت باكرا و صليت و جلست أقرأ الكتاب الذي يبحث في حيـــاة عبد القادر ، فما أفاق صديقي حتى كنت قد أتممت نصفه ، و كان يتردد علـــي من حين إلى آخر داعيا إياي لتناول الفطور فلم أوافق حتى أنهيت الكتاب و قـــد شدني إليه و أدخل علي شكا لم يلبث طويلا حتى زال قبل خروجي من العراق .

* * *

الشك و التساؤل

بقيت في بيت صديقي ثلاثة أيام استرحت خلالها و فكرت مَليَّاً في ما سمعته من هؤلاء الذين اكتشفتهم و كأنهم كانوا يعيشون على سطح القمر ، فلماذا لم يحدثنا أحد عنهم إلا بما هو مُزرٍ و مُشين ، لماذا أنا أكرههم و أحقد عليهم دون أن أعرفهم ، لعل ذلك ناتج من الإشاعات التي نسمعها عنهم من أنهم يعبدون عليا و أنهم يتزلون أئمتهم منزلة الآلهة و أنهم يقولون بالحلول ، و أنهم يسجدون للحجر من دون الله ، و أنهم – كما حدثنا أبي بعد رجوعه من الحج – يأتون إلى قبر الرسول ليلقون فيه القذرات و النجاسات و قد أمسكهم السعوديون و حكموا عليهم بالإعدام . . و أنهم . . و أنهم . . حدث و لا حرج .

كيف يسمع المسلمون بهذا و لا يحقدون على هؤلاء الشيعة و لا يبغضونهم ، بل كيف لا يقاتلونهم ! .

و لكن كيف أصدق هذه الإشاعات و قد رأيت بعيني ما رأيت و سمعت بأذني ما سمعت و ها قد مضى على وجودي بينهم أكثر من أسبوع و لم أر منهم و لم أسمع إلا الكلام المنطقي الذي يدخل العقول بدون استئذان ، بل قد استهوتني عباداتهم و صلاتهم و دعاؤهم و أخلاقهم و احترامهم لعلمائهم حتى تمنيت أن أكون مثلهم ، و بقيت أتسأل : هل حقا أنهم يكرهون رسول الله ! و كلما ذكرته و كثيرا ما أذكره لاختبارهم فيصيحون بكل جوارحهم " اللهم صل على محمد و على آل محمد " و ظننت أنهم ينافقون ، و لكن زال هذا الظن بعد ما تصفحت كتبهم التي

قرأت شيئا منها فوجدت احتراما و تقديسا و تنزيها لشخص الرسول لم أعهده في كتبنا فهم يقولون بعصمته (صلى الله عليه و آله) في كل شيء قبل البعثة و بعدها بينما نقول نحن أهل السنة و الجماعة بأنه معصوم في تبليغ القرآن فقط و ما عدا ذلك فهو بشر يخطيء كغيره و كثيرا ما نستدل على ذلك بخطئه – (صلى الله عليه و آله) – و تصويب بعض الصحابة رأيه و لنا في ذلك أمثلة متعددة بينما يرفض الشيعة أن يكون رسول الله يخطئ و يصيب غيره فكيف أصدق بعد هذا أنهم يكرهون رسول الله ؟ كيف .

و تحدثت يوما مع صديقي و رجوته و أقسمت عليه أن يجيبني بصراحة ، و كان الحوار التالي :

– أنتم تنزلون عليا رضي الله عنه و كرم الله وجهه منزلة الأنبياء لأني ما سمعت أحدا منكم يذكره إلا و يقول " عليه السلام " .

– فعلا نحن عندما نذكر أمير المؤمنين أو أحد الأئمة من بَنيه نقول " عليه السلام " ، فهذا لا يعني أنهم أنبياء ، و لكنهم ذرية الرسول و عترته الذين أمرنا الله بالصلاة عليهم في محكم تنزيله و على هذا يجوز أن نقول : عليهم الصلاة و السلام أيضا .

– لا يا أخي نحن لا نعترف بالصلاة و السلام إلا على رسول الله و الأنبياء الذين سبقوه و لا دخل لعلي و أولاده في ذلك رضي الله عنهم .

– أنا أطلب منك و أرجوك أن تقرأ كثيرا حتى تعرف الحقيقة .

– أي الكتب أقرأ يا أخي ؟ ألست أنت الذي قلت لي بأن كتب أحمد أمين ليست حجة على الشيعة ، كذلك كتب الشيعة ليست حجة علينا و لا نعتمد عليها ، ألا ترى أن كتب النصارى التي يعتمدونها تذكر أن عيسى (عليه السلام) قال : " إني ابن الله " في حين أن القرآن الكريم – و هو أصدق القائلين –

يقول على لسان عيسى بن مريم : { مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ } .

– حسنا قلت : لقد قلت ذلك ، و الذي أريده منك هو هذا ، أعني

استعمال العقل و المنطق و الاستدلال بالقرآن الكريم و السنة الصحيحة ما دمنا مسلمين ، و لو كان الحديث مع يهودي أو نصراني لكان الاستدلال بغير هذا .

– إذاً ، في أي كتاب سأعرف الحقيقة ، و كل مؤلف و كل فرقة و كل مذهب يدعي أنه على الحق .

– سأعطيك الآن دليلا ملموسا ، لا يختلف فيه المسلمون بشتى مذاهبهم و فرقهم و مع ذلك فأنت لا تعرفه ! .

– و قل ربي زدني علما .

– هل قرأت تفسير الآية الكريمة : { إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا } [1] .

فقد أجمع المفسرون سنةً و شيعة على أن الصحابة الذين نزلت فيهم هذه الآية ، جاؤوا إلى رسول الله فقالوا : يا رسول الله عرفنا كيف نسلم عليك و لم نعرف كيف نصلي عليك ! فقال : قولوا اللهم صل على محمد و آل محمد كما صليت على إبراهيم و آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد و لا تصلوا علي الصلاة البتراء ، قالوا : و ما الصلاة البتراء يا رسول الله ، قال : أن تقولوا اللهم صل على محمد و تصمتوا ، و أن الله كامل و لا يقبل إلا الكامل .

و لكل ذلك عرف الصحابة و من بعدهم التابعون أمر رسول الله فكانوا يصلون عليه الصلاة الكاملة ، حتى قال الإمام الشافعي في حقهم :

يا آل بيت رسول الله حبكم * فرض من الله في القرآن أنزله

كفاكم من عظيم الشأن أنكم * من لم يصل عليكم لا صلاة له

[1] سورة الأحزاب (٣٣) ، الآية : ٥٦ .

كان كلامه يطرق سمعي و ينفذ إلى قلبي و يجد في نفسي صدى إيجابيا ، و بالفعل فقد سبق لي أن قرأت مثل هذا في بعض الكتب ، و لكن لا أذكر في أي

كتاب بالضبط ، و اعترفت له بأننا عندما نصلي على النبي نصلي علـــى آلـــه و صحبه أجمعين و لكن لا نفرد علياً بالسلام كما يقول الشيعة .

قال : فما رأيك في البخاري ؟ أهو من الشيعة ؟ .

قلت : إمام " جليل من أئمة أهل السنة و الجماعة و كتابه أصح الكتـــب بعد كتاب الله " . عند ذلك قام و أخرج من مكتبته صحيح البخاري و فتحه و بحث عن الصفحة التي يريدها ، و أعطاني لأقرأ فيه : حدثنا فلان عن فلان عـــن علي (عليه السلام) . و لم أصدق عيني و استغربت حتى أنني شككت أن يكون ذلك هو صحيح البخاري ، و اضطربت و أعدت النظر في الصفحة و في الغلاف ، و لما أحس صديقي بشكي أخذ مني الكتاب و أخرج لي صفحة أخرى فيها : " حدثنا علي بن الحسين (عليهما السلام) " فما كان جـــوابي بعـــدها إلا أن قلت : سبحان الله و اقتنع مني بهذا الجواب و تركني و خرج ، و بقيت أفكـــر و أراجع قراءة تلك الصفحات و أتثبت في طبعة الكتاب فوجدتها من طبع و نـــشر شركة الحلبي و أولاده بمصر .

يا إلهي . لماذا أكابر و أعاند و قد أعطاني حجة ملموسة من أصحّ الكتب عندنا ، و البخاري ليس شيعيا قطعا ، و هو من أئمة أهل السنة و محـــدثيهم ، أ أسلم لهم بهذه الحقيقة و هي قولهم علي (عليه السلام) ، و لكن أخـــاف مـــن هـــذه الحقيقة فلعلها تتبعها حقائق أخرى لا أحب الاعتراف بها ، و قد انهزمت أمـــام صديقي مرتين فقد تنازلت عن قداسة عبد القادر الجيلاني و سلمت بأن موســـى الكاظم أولى منه ، و سلمت أيضا بأن عليا (عليه الـــسلام) هو أهل لذلك ، و لكني لا أريد هزيمة أخرى ، و أنا الذي كنت منذ أيام قلائل عالما في مصر أفخر بنفسي و يمجدني علماء الأزهر الشريف ، أجد نفسي اليوم مهزوما مغلوبا و مع من ؟ مع

الذين كنت و لا أزال أعتقد أنهم على خطأ ، فقد تعودت على أن كلمة " شيعة " هي مسبة .

إنه الكبرياء و حب الذات ، إنها الأنانية و اللجاج و العصبية ، إلهي ألهمني رشدي ، و أعنّي على تقبل الحقيقة و لو كانت مُرَّة .

اللهم افتح بصري و بصيرتي و اهدني إلى صراطك المستقيم و اجعلني من

الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، اللهم أرنا الحق حقا و ارزقنا إتباعـــه و أرنا الباطل باطلا و ارزقنا اجتنابه .

رجع بي صديقي إلى البيت و أنا أردد هذه الدعوات فقال مبتسما : هدانا الله و إياكم و جميع المسلمين ، و قد قال في محكم كتابه : { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } [1] .

و الجهاد في هذه الآية يحمل معنى البحث العلمي للوصول إلى الحقيقة ، و الله سبحانه يهدي إلى الحق كل من بحث عن الحق .

* * *

[1] سورة العنكبوت (٢٩) ، الآية : ٦٩ .

السفر إلى النجف

أعلمني صديقي ذات ليلة بأننا سنسافر غدا إن شاء الله إلى النجـــف ، و سألته و ما النجف ؟ قال : إنها مدينة علمية فيه مرقد الإمام علي بن أبي طالب ، فتعجبت كيف يكون للإمام علي قبر معروف .

لان شيوخنا يقولون أنه لا وجود لقبر معروف لسيدنا علي ، و سافرنا في سيارة عمومية حتى وصلنا إلى الكوفة و هناك نزلنا لزيارة جامع الكوفة و هو من الآثار الإسلامية الخالدة ، و كان صديقي يريني الأماكن الأثرية و يزورني جـــامع مسلم بن عقيل و هاني بن عروة و يحكي لي بإيجاز كيف استشهدا ، كما أدخلني المحراب الذي استشهد فيه الإمام علي ، و بعدها زرنا البيت الذي كان يـــسكنه الإمام مع ابنيه سيدنا الحسن و سيدنا الحسين ، و في البيت البئـــر الـــتي كـــانوا يشربون منها و يتوضؤون بمائها ، و عشت لحظات روحية نسيت خلالها الدنيا و ما فيها لأسبح في زهد الإمام و بساطة عيشه و هو أمير المؤمنين و رابع الخلفـــاء الراشدين .

و لا يفوتني أن أذكر الحفاوة و التواضع اللذين شاهدتهما هناك في الكوفة ، فما مررنا بمجموعة إلا و قاموا إلينا و سلموا علينا ، و كان صـــديقي يعـــرف الكثير منهم و دعانا أحدهم و هو مدير المعهد بالكوفة إلى بيته حيـــث إلتقينـــا بأولاده و بتنا عندهم ليلة سعيدة ، و شعرت و كأني بين أهلي و عـــشيرتي ، و كانوا إذا تكلموا عن أهل السنة و الجماعة يقولون : " إخواننـــا مـــن الـــسنة " فأنست بحديثهم و سألتهم بعض الأسئلة الاختبارية لأتيقن من صدق كلامهم .

تحولنا إلى النجف و هي تبعد عن الكوفة حوالي عشرة كيلومترات و ما أن وصلنا حتى تذكرت مسجد الكاظمية في بغداد فبدت المآذن الذهبية تحيط بقبة من الذهب الخالص و دخلنا إلى حرم الإمام بعد قراءة الإذن بالدخول كما هي عادة الزوار من الشيعة ، و رأيت هنا أعجب مما رأيت هناك في جامع موسى الكاظم ، و كالعادة وقفت أقرأ الفاتحة و أنا أشك في أن هذا القبر يحوي جثمان الإمام علي ، و كأني اقتنعت ببساطة ذلك البيت الذي كان يسكنه في الكوفة و قلت في نفسي حاشى للإمام علي أن يرضى بهذه الزخرفة من الذهب و الفضة بينما يموت المسلمون جوعا في شتى بقاع الدنيا ، و خصوصا لما رأيت فقراء في الطريق يمدون أيديهم للمارة طلبا للصدقة فكان لسان حالي يقول : أيها الشيعة أنتم مخطئون ، اعترفوا على الأقل بهذا الخطأ فالإمام علي هو الذي بعثه رسول الله لتسوية القبور ، فما لهذه القبور المشيدة بالذهب و الفضة إنها و إن لم تكن شركا بالله فهي على الأقل خطأ فادح لا يغفره الإسلام .

و سألني صديقي و هو يمد إلي قطعة من الطين اليابس هل أريد أن أصلي ، و أجبته في حدة : نحن لا نصلي حول القبور ! قال : إذاً انتظرني قليلا حتى أصلي ركعتين ، و في انتظاره كنت أقرأ اللوحة المعلقة على الضريح و أنظر إلى داخله من خلال القضبان الذهبية المنقوشة و إذا به مليء بالأوراق النقدية من كل الألوان من الدرهم و الريال إلى الدينار و الليرة و كلها يلقيها الزوار تبركا للمساهمة في المشاريع الخيرية التابعة للمقام و ظننت لكثرتها أن لها شهورا ، و لكن صديقي أعلمني في ما بعد أن المسؤولين عن تنظيف المقام يأخذون كل ذلك في كل ليلة بعد صلاة العشاء .

خرجت وراءه مدهوشا و كأنني تمنيت أن يعطوني منها نصيبا أو يوزعوها على الفقراء و المساكين و ما أكثرهم هناك .

كنت ألتفت في كل اتجاه داخل السور الكبير المحيط بالمقام حيث يـــصلي جماعات من الناس هنا و هناك و ينصت آخرون إلى بعض الخطباء الذين اعتلـــوا منبرا و كأني سمعت نواح بعضهم في صوت متهدج .

و رأيت جموعا من الناس يبكون و يلطمون على صـــدورهم و أردت أن أسال صديقي ، ما بال هؤلاء يبكون و يلطمون و مرت بقربنا جنازة و شاهدت بعضهم يرفع الرخام في وسط الصحن و يترل الميت هناك ، فظننـــت أن بكـــاء هؤلاء لأجل الميت العزيز عليهم .

* * *

لقاء العلماء

أدخلني صديقي إلى مسجد في جانب الحرم مفروش كله بالسجاد و في محرابه آيات قرآنية منقوشة بخط جميل ، و لَفَتَ انتباهي مجموعة من الصبيان المعممين جالسين قرب المحراب يتدارسون و كل واحد في يده كتاب ، فأعجبت لهذا المنظر الجميل و لم يسبق لي أن رأيت شيوخا بهذا السن أعمارهم تتراوح ما بين الثالثة عشرة و السادسة عشرة و قد زادهم جمالا ذلك الزي فأصبحوا كالأقمار ، سألهم صديقي عن " السيد " فأخبروه بأنه يصلي بالناس جماعة ، و لم أفهم من هو " السيد " الذي سألهم عنه غير أنني توقعت أنه أحد العلماء .

و عرفت فيما بعد أنه السيد الخوئي زعيم الحوزة العلمية للطائفة الشيعية .

مع العلم بأن لقب " السيد " عند الشيعة هو لقب لكل منحدر من سلالة النبي (صلى الله عليه و آله) ، ويرتدي " السيد " العالم أو طالب العلوم الدينية عمامة سوداء ، و أما العلماء الآخرون فيرتدون عمامة بيضاء و يلقبون بـ " الشيخ " و هناك نوع من الأشراف الذين ليسوا بعلماء فلهم عمامة خضراء .

طلب إليهم صديقي أن أجلس معهم ريثما يذهب للقاء " السيد " و رحبوا بي و أحاطوني بنصف دائرة و أنا أنظر في وجوههم و أستشعر براءتهم و نقاوة سريرتهم و أستحضر في ذهني حديث النبي (صلى الله عليه و آله) حيث قال : " يولد المرء على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه " و قلت في نفسي : أو يشيعانه .

سألوني من أي البلاد أنا ، قلت : من تونس ، قالوا : هل يوجد عندكم حوزات علمية ؟ أجبتهم : عندنا جامعات و مدارس ، و انهالت علي الأسئلة من كل جانب ، و كلها أسئلة مركزة و محرجة ، فماذا أقول لهؤلاء الأبرياء الذين يعتقدون أن في العالم الإسلامي كله حوزات علمية تدرس الفقه و أصول الدين و الشريعة و التفسير ، و ما يدرون أن في عالمنا الإسلامي و في بلداننا التي تقدمت و تطورت ، أبدلنا المدارس القرآنية بروضات للأطفال يشرف عليها راهبات نصرانيات فهل أقول لهم إنهم ما زالوا " متخلفين " بالنسبة إلينا ؟ .

و سألني أحدهم : ما هو المذهب المتبع في تونس ؟ قلت : المذهب المالكي ، قال : ألا تعرفون المذهب الجعفري ؟ فقلت : خير إن شاء الله ، ما هذا الاسم الجديد ؟ لا ، نحن لا نعرف غير المذاهب الأربعة و ما عداها فليس من الإسلام في شيء .

و ابتسم قائلا : عفوا ، أن المذهب الجعفري هو محض الإسلام ، ألم تعرف بأن الإمام أبا حنيفة تتلمذ على يد الإمام جعفر الصادق ؟ و في ذلك يقول أبو حنيفة : " لولا السنتان لهلك النعمان " ، سكت و لم أبد جوابا ، فقد أدخل علي أسما جديدا ما سمعت به قبل ذلك اليوم و لكني حمدت الله أنه – أي إمامهم جعفر الصادق – لم يكن أستاذا للإمام مالك و قلت نحن مالكية و لسنا أحنافا .

فقال : أن المذاهب الأربعة أخذ بعضهم عن بعض فأحمد بن حنبل أخذ عن الشافعي و الشافعي أخذ عن مالك و أخذ مالك عن أبي حنيفة و أبو حنيفة أخذ عن جعفر الصادق و على هذا فكلهم تلاميذ لجعفر بن محمد ، و هو أول من فتح جامعة إسلامية في مسجد جده رسول الله و قد تتلمذ على يديه أكثر من أربعة آلاف محدث و فقيه ، و عجبت لهذا الصبي الذكي الذي يحفظ ما يقول

مثل ما يحفظ أحدنا سورة من القرآن ، و قد أدهشني أكثر عندما كـــان يـــسرد علي بعض المصادر التاريخية التي يحفظ عدد أجزائها و أبوابها ، و قـــد استرســـل معي في الحديث و كأنه أستاذ يعلم تلميذه ، و شعرت بالضعف أمامه ، و تمنيت لو أني خرجت مع صديقي و لم أبق مع الصبيان ، فما سألني أحدهم عن شـــيء يخص الفقه أو التاريخ إلا و عجزت عن الجواب ، سألني من أقلد من الأئمـــة ؟ قلت : الإمام مالك !

قال : كيف تقلد ميتا بينك و بينه أربعة عشر قرنا ، فإذا أردت أن تسأله الآن عن مسألة مستحدثة فهل يجيبك ؟ فكرت قليلا و قلت : و أنت جعفرك مات أيضا منذ أربعة عشر قرنا فمن تقلد ؟ أجاب بسرعة هو و الباقون من الصبية : نحن نقلد السيد الخوئي فهو إمامنا .

و لم أفهم أكان الخوئي أعلم أم جعفر الصادق ، و بقيت معهم أحاول تغيير الموضوع فكنت أسألهم عن أي شيء يلهيهم عن مسألتي فسألتهم عن عدد سكان النجف و كم تبعد النجف عن بغداد و هل يعرفون بُلدانا أخرى غير العراق ، وكلما أجابوا أعددت لهم سؤالا غيره حتى أشغلهم عن سؤالي لأني عجزت و شعرت بالقصور ، و لكن هيهات أن أعترف لهم و إن كنت في داخلي معترفا إذ أن ذلك المجد و العز و العلم الذي ركبني في مصر تبخر هنا و ذاب ، خصوصا بعد لقاء هؤلاء الصبيان عرفت الحكمة القائلة :

فقل لمن يدعي في العلم فلسفة * عرفت شيئا و غابت عنك أشياء

و تصورت أن عقول هؤلاء الصبيان أكبر من عقول أولئك المشايخ الذين قابلتهم في الأزهر و أكبر من عقول علمائنا الذين عرفتهم في تونس .

و دخل السيد الخوئي و معه كوكبة من العلماء عليهم هيبة و وقار ، و قام الصبيان و قمت معهم ، و تقدموا من " السيد " يقبلون يده ، و بقيت مسمرا في مكاني ، ما إن جلس " السيد " حتى جلس الجميع و بدأ يحييهم بقوله : " مساكم الله بالخير " يقولها لكل واحد منهم فيجيبه بالمثل حتى وصل دوري فأجبت كما سمعت ، بعدها أشار علي صديقي الذي تكلم مع " السيد " همسا ، بأن أدنو من " السيد " و أجلسني على يمينه و بعد التحية قال لي صديقي : أحك للسيد ماذا تسمعون عن الشيعة في تونس .

فقلت يا أخي كفانا من الحكايات التي نسمعها من هنا و هناك ، و المهـــم هو أن أعرف بنفسي ماذا يقول الشيعة ، و عندي بعض الأسئلة أريـــد الجـــواب عنها بصراحة .

فألح علي صديقي و أصر على أن أروي " للسيد " ما هو اعتقادنا في الشيعة ، قلت : الشيعة عندنا هم أشد على الإسلام من اليهود و النصارى لان هؤلاء يعبدون الله و يؤمنون برسالة موسى (عليه السلام) ، بينما نسمع عن الشيعة أنهم يعبدون عليا و يقدسونه ، و منهم فرقة يعبدون الله و لكنهم يتزلون عليا بمنزلة رسول الله و رويت قصة جبريل كيف أنه خان الأمانة حسب ما يقولون و بدلا من أداء الرسالة إلى علي أداها إلى محمد (صلى الله عليه و آله) .

أطرق " السيد " رأسه هنيهة ثم نظر إلي و قال : نحن نشهد أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله صلى الله عليه و على آله الطيبين الطاهرين ، و ما عليّ إلا عبد من عبيد الله و التفت إلى بقية الجالسين قائلا و مشيرا إلي : أنظروا إلى هؤلاء الأبرياء كيف تغلطهم الإشاعات الكاذبة ، و هذا ليس بغريب فقد سمعت أكثر من ذلك من أشخاص آخرين ، فلا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ثم التفت إلي و قال : هل قرأت القرآن ؟ قلت : حفظت نصفه و لم أتخط العاشرة من عمري .

قال : هل تعرف أن كل الفرق الإسلامية على اختلاف مذاهبها متفقة على القرآن الكريم ، فالقرآن الموجود عندنا هو نفسه موجود عندكم . قلت نعم هذا أعرفه .

قال : إذاً ألم تقرأ قول الله سبحانه و تعالى : { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ } [1] .

و قوله أيضا : { مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ } [2] .

---

[1] سورة آل عمران (٣) ، الآية : ١٤٤ .

[2] سورة الفتح (٤٨) ، الآية : ٢٩ .

و قوله : { مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ } [1] .

[1] سورة الأحزاب (٣٣) ، الآية : ٤٠ .

قلت بلى أعرف هذه الآيات قال : فأين هو علي ؟ إذا كان قرآننا يقول بأن محمدا هو رسول الله فمن أين جاءت هذه الفرية ؟ سكتُ و لم أجد جوابا ، و أضاف يقول : و أما خيانة جبريل " حاشاه " فهذه أقبح من الأولى ، لان محمد كان عمره أربعين سنة عندما أرسل الله سبحانه إليه جبريل (عليه السلام) ، و لم يكن علي إلا صبيا صغيرا عمره ست أو سبع سنوات ، فكيف يا ترى يخطئ جبريل و لا يفرق بين محمد الرجل و علي الصبي ؟ .

ثم سكت طويلا بينما بقيت أفكر في أقواله و أنا مطرق أحلل و أتذوق هذا الحديث المنطقي الذي نفذ إلى أعماقي و أزال غشاوة عن بصري و تساءلت في داخلي كيف لم نحلل نحن بهذا المنطق .

أضاف " السيد الخوئي " يقول : و أزيدك بأن الشيعة هي الفرقة الوحيدة من بين كل الفرق الإسلامية الأخرى التي تقول بعصمة الأنبياء و الأئمة ، فإذا كان أئمتنا سلام الله عليهم معصومين عن الخطأ و هم بشر مثلنا ، فكيف بجبريل و هو ملك مقرب سماه رب العزة بـ " الروح الأمين " .

قلت : فمن أين جاءت هذه الدعايات ؟ .

قال : من أعداء الإسلام الذين يريدون تفريق المسلمين و تمزيقهم و ضرب بعضهم ببعض و إلا فالمسلمون أخوة سواء كانوا شيعة أم سنة فهم يعبدون الله وحده لا يشركون به شيئا ، و قرآنهم واحد و نبيهم واحد و قبلتهم واحدة ، و لا يختلف الشيعة عن السنة إلا في الأمور الفقهية كما يختلف أئمة المذاهب السنية أنفسهم في ما بينهم فمالك يخالف أبا حنيفة ، و هذا يخالف الشافعي و هكذا ...

قلت : إذاً كل ما يحكى عنكم هو محض افتراء قال : أنت بحمد الله عاقل و تفهم الأمور و قد رأيت بلاد الشيعة و تجولت في أوساطهم فهل رأيت أو

سمعت شيئا من تلك الأكاذيب ؟ قلت : لا لم أسمع و لم أر إلا الخير و إني أحمد الله سبحانه أن عرفني بالأستاذ منعم في الباخرة ، فهو السبب في مجيئي إلى العراق و قد عرفت أشياء كثيرة كنت أجهلها فضحك صديقي منعم قائلا : و منها وجود قبر للإمام علي ، فغمزته و استدركت قائلا : بل تعلمت أشياء جديدة حتى من هؤلاء الصبيان

و تمنيت لو أتيحت لي الفرصة و تعلمت مثلهم في الحوزة العلمية هنا .

قال " السيد " : أهلا و سهلا ، إن كنت تريد طلب العلم فالحوزة على ذمتك ، و نحن في خدمتك ، و رحب الحاضرون بهذا الاقتراح و خصوصا صديقي منعم الذي تهلل وجهه .

قلت : أنا متزوج و عندي ولدان : قال : نحن نتكفل بكل مستلزماتكم من سكن و معاش و كل ما تحتاجون إليه و المهم هو طلب العلم ، فكرت قليلا و قلت في نفسي ليس من المعقول أن أصبح تلميذا بعد ما قضيت خمس سنوات و أنا أستاذ أمارس التعليم و تربية النُشء ، و ليس من السهولة أن أتخذ قرارا بمثل هذه السرعة .

شكرت السيد الخوئي على هذا العرض و قلت سوف أفكر في الموضوع بجد بعد رجوعي من العمرة بحول الله و لكني في حاجة إلى بعض الكتب ، فقال السيد : أعطوه الكتب ، و نهض جمع من العلماء و فتحوا عدة خزانات و ما هي إلا لحظات حتى وجدت أمامي أكثر من سبعين مجلدا فكل واحد جاءني بدورة من الكتب و قال : هذه هديتي ، و رأيت أنه لا يمكنني حمل هذا العدد الكبير معي خصوصا و أني متوجه إلى السعودية الذين يمنعون دخول أي كتاب إلى بلادهم خوفا من تفشي بعض العقائد التي تخالف مذهبهم و لكني ما أردت التفريط بهذه الكتب التي لم تر عيني مثلها في سابق حياتي .

فقلت لصديقي و للحاضرين بأن طريقي طويل يمر بدمشق و الأردن إلى السعودية و في العودة سيكون أطول فسأمر بمصر و ليبيا حتى الوصول إلى تونس ، و زيادة على ثقل الحمل فإن أغلب الدول تمنع دخول الكتب ، فقال " السيد " أترك لنا عنوانك و نحن نتكفل بإرسالها إليك ، و استحسنت هذا الرأي و أعطيته بطاقة شخصية بها عنواني في تونس ، و شكرت فضله ، و لما ودعته و نهضت

للخروج ، نهض معي قائلا : أسأل الله لك السلامة و إذا وقفت على قبر جـــدي رسول الله فبلغه مني السلام و تأثر الحاضرون و تأثرت كثيرا و أنا أنظر إلى عينيه تدمعان ، و قلت في نفسي حاشى لله أن يكون هذا من المخطئين حاشى لله أن

يكون هذا من الكاذبين ، إن هيبته و عظمته و تواضعه تنبيء حقا أنه من سلالة الشرف ، فما كان مني إلا أن أخذت يده و قبلتها رغم ممانعته .

و قام الجميع لقيامي و سلموا علي ، و تبعني بعض الصبية من الذين كانوا يجادلونني و طلبوا مني عنواني للمراسلة فأعطيتهم إياه .

اتجهنا من جديد إلى الكوفة بدعوة أحد الذين كانوا في مجلس السيد الخوئي و هو صديق منعم إسمه أبو شبر ، نزلنا في بيته و سهرنا ليلة كاملة مع مجموعة من الشبان المثقفين و كان من بينهم بعض طلبة السيد محمد باقر الصدر فأشاروا علي بمقابلته و تعهدوا بأنهم سيرتبون لقائي مع حضرته في اليوم التالي ، و استحسن صديقي منعم هذا الاقتراح و لكنه تأسف لعدم إمكانية حضوره لان له شغلا في بغداد يستلزم حضوره ، و اتّفقنا على أن أبقى في بيت السيد أبو شبر ثلاثة أيام أو أربعة ريثما يعود منعم ، الذي غادرنا بعد صلاة الفجر و قمنا نحن للنوم و قد استفدت كثيرا من طلبة العلوم الذين سهرت معهم و تعجبت من تنوع العلوم التي يتلقونها في الحوزة فهم زيادة على العلوم الإسلامية من فقه و شريعة و توحيد يدرسون العلوم الاقتصادية و العلوم الاجتماعية و السياسية ، و التاريخ و اللغات و علوم الفلك و غير ذلك .

* * *

لقاء مع السيد محمد باقر الصدر

اتجهت بصحبة السيد أبو شبر إلى بيت السيد محمد باقر الصدر و في الطريق كان يلاطفني و يعطيني بسطة عن العلماء المشهورين و عن التقليد و غير ذلك ، و دخلنا على السيد محمد باقر الصدر في بيته و كان مليئا بطلبة العلوم و أغلبهم من الشبان المعممين و قام السيد يسلم علينا ، و قدموني إليه فرحب بي كثيرا و أجلسني بجانبه و أخذ يسألني عن تونس و الجزائر و عن بعض العلماء المشهورين أمثال الخضر حسين و الطاهر بن عاشور و غيرهم ، و أنست بحديثه و رغم الهيبة التي تعلوه و الاحترام الذي يحوطه به جلساؤه ، وجدت نفسي غير محرج و كأني أعرفه من قبل و استفدت من تلك الجلسة إذ كنت أسمع أسئلة الطلبة و أجوبة السيد عليها ، و عرفت وقتها قيمة تقليد العلماء الأحياء الذين يجيبون عن كل الإشكالات مباشرة و بكل وضوح ، و تيقنت أيضا من أن الشيعة مسلمون يعبدون الله وحده و يؤمنون برسالة نبينا محمد (صلى الله عليه و آله) ، إذ كان بعض الشك يراودني و الشيطان يوسوس لي بأن ما شاهدته قبل هو تمثيل ، و ربما يكون ما يسمونه بالتقية ، أي أنهم يظهرون ما لا يعتقدون ، و لكن سرعان ما يزول الشك و تضمحل تلك الوساوس إذ لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يتفق كل من رأيتهم و سمعتهم و هم مئات على هذا التمثيل ثم لماذا هذا التمثيل ؟ و من هو أنا ، و ما يهمهم من أمري حتى يستعملوا معي هذه التقية ثم هذه كتبهم القديمة التي كتبت منذ قرون و الحديثة التي طبعت منذ شهور و كلها توحد الله و تثني على رسوله

محمد كما قرأت ذلك في مقدماتها ، و ها أنا الآن في بيت السيد محمد باقر الصدر المرجع المشهور في العراق و في خارج العراق و كلما ذكر اسم محمد صاح الجميع في صوت واحد : " اللهم صل على محمد و آل محمد " .

و جاء وقت الصلاة و خرجنا إلى المسجد و كان بجوار البيت و صلى بنا السيد محمد باقر الصدر صلاة الظهر و العصر ، و أحسست بأني أعيش وسط الصحابة الكرام فقد تخلل الصلاتين دعا رهيب من أحد المصلين ، و كان له صوت شجي ساحر و بعدما أنهى الدعاء صاح الجميع " اللهم صل على محمد و آل محمد " و كان الدعاء كله ثناء و تمجيدا على الله جل جلاله ثم على محمد و آله الطيبين الطاهرين .

و جلس السيد في المحراب بعد الصلاة .

و أخذ بعضهم يسلمون عليه و يسألونه سرا و علانية و كان يجيب سرا عن بعض الأسئلة التي فهمت أنها تتطلب الكتمان لأنها تتعلق بشؤون خاصة ، و كان السائل إذا حصل على الجواب يقبل يده و ينصرف ، هنيئا لهم بهذا العالم الجليل الذي يحل مشاكلهم و يعيش همومهم .

رجعنا بصحبة السيد الذي أولاني من الرعاية و العناية و حسن الضيافة ما أنساني أهلي و عشيرتي و أحسست بأني لو بقيت معه شهرا واحدا لتشيعت لحسن أخلاقه و تواضعه و كرم معاملته ، فلم أنظر إليه إلا و ابتسم في وجهي و ابتدرني بالكلام ، و سألني هل ينقصني شيء ، فكنت لا أغادره طيلة الأيام الأربعة إلا للنوم ، رغم كثرة زواره و العلماء الوافدين عليه من كل الأقطار ، فقد رأيت السعوديين هناك و لم أكن أتصور بأن في الحجاز شيعة ، و كذلك علماء من البحرين و من قطر و من الإمارات و من لبنان و سوريا و إيران و أفغانستان و من تركيا و من أفريقيا السوداء و كان السيد يتكلم معهم و يقضي

حوائجهم و لا يخرجون من عنده إلا و هم فرحون مسرورون ، و لا يفـــوتني أن أذكر هنا قضية حضرتها و أعجبت في كيفية فصلها ، و أذكرها للتاريخ لما لهـــا من أهمية بالغة حتى يعرف المسلمون ماذا خسروا بتركهم حكم الله .

جاء إلى السيد محمد باقر الصدر أربعة رجال أظنهم عراقيين عرفت ذلك

من لهجتهم ، كان أحدهم ورث مسكنا من جده الذي توفي منذ سنوات و باع ذلك المسكن إلى شخص ثان كان هو الآخر حاضرا ، و بعد سنة من تاريخ البيع جاء أخوان ، و أثبتا أنهما وارثان شرعيان للميت ، و جلس أربعتهم أمام السيد و أخرج كل واحد منهم أوراقه و ما عنده من حجج و بعد ما قرأ السيد كل أوراقهم و تحدث معهم بضع دقائق حكم بينهم بالعدل ، فأعطى الشاري حقه في التصرف بالمسكن و طلب من البائع أن يدفع للأخوين نصيبهما من الثمن المقبوض ، و قام الجميع يقبلون يده ، و يتعانقون ، و دهشت لهذا و لم أصدق ، و سألت أبا شبر ، هل انتهت القضية ؟ قال : " خلاص كل اخذ حقه " ، سبحان الله ! بهذه السهولة ، و بهذا الوقت الوجيز ، بضع دقائق فقط كافية لحسم النزاع ؟ إن مثل هذه القضية في بلادنا تستغرق عشر سنوات على أقل تقدير و يموت بعضهم ، و يواصل أولاده بعده تتبع القضية و يصرفون رسوم المحكمة و المحامين ما يكلفهم في أغلب الأحيان ثمن المسكن نفسه ، و من المحكمة الابتدائية إلى محكمة الاستئناف ثم إلى التعقيب و في النهاية يكون الجميع غير راضين بعد ما يكونون قد أنهكوا بالتعب و المصاريف و الرشوة ، و العداوة و البغضاء بين عشائرهم و ذويهم ، أجابني أبو شبر ، و عندنا أيضا نفس الشيء أو أكثر فقلت : كيف ؟ قال : إذا رفع الناس شكواهم إلى المحاكم الحكومية ، فيكون مثل ما حكيت أما إذا كانوا يقلدون المرجع الديني و يلتزمون بالأحكام الإسلامية ، فلا يرفعون قضاياهم إلا إليه فيفصلها في بضع دقائق كما رأيت ، و من أحسن من الله حكما لقوم يعقلون ؟ و السيد الصدر لم يأخذ منهم فلسا واحدا ، و لو ذهبوا إلى المحاكم الرسمية لتعرت رؤوسهم .

ضحكت لهذا التعبير الذي هو سار عندنا أيضا و قلت : سبحان الله ! أنا لا زلت مكذبا ما رأيت ، و لولا ما شاهدته بعيني ما كنت لأصدق أبدا ، فقال

أبو شبر : لا تكذب يا أخي فهذه بسيطة بالنسبة إلى غيرها من القضايا التي هـــي أشد تعقيدا و فيها دماء ، و مع ذلك يحكم فيها المراجع و يفصلونها في سويعات ، فقلت متعجبا : إذاً عندكم في العراق حكومتان ، حكومة الدولة و حكومـــة رجال الدين ، فقال : كلا عندنا حكومة الدولة فقط ، و لكن المـــسلمين مـــن الشيعة الذين

يقلدون مراجع الدين ، لا علاقة لهم بالحكومة ، لأنها ليست حكومة إسلامية فهم خاضعون لها بحكم المواطنية و الضرائب و الحقوق المدنية و الأحوال الشخصية ، فلو تخاصم مسلم ملتزم مع أحد المسلمين غير الملتزمين فسوف يضطر حتما لرفع قضيته إلى محاكم الدولة ، لان هذا الأخير لا يرضى بتحكيم رجال الدين – أما إذا كان المتخاصمان متلزمين فلا أشكال هناك ، و ما يحكم به المرجع الديني نافذ على الجميع .

و على هذا الأساس تحل القضايا التي يحكم فيها المرجع في يومها بينما تظل القضايا الأخرى شهورا بل أعواما .

إنها حادثة حركت في نفسي شعور الرضى بأحكام الله سبحانه و تعالى و فهمت معنى قوله تعالى في كتابه المجيد :

{ ... وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ، ... وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ، ... وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }[1] صدق الله العظيم .

كما حركت في نفسي شعور النقمة و الثورة على هؤلاء الظلمة الذين يبدلون أحكام الله العادلة بأحكام وضعية بشرية جائرة ، و لا يكفيهم كل ذلك بل ينتقدون بكل وقاحة و سخرية الأحكام الإلهية ، و يقولون بأنها بربرية و وحشية لأنها تقيم الحدود فتقطع يد السارق و ترجم الزاني ، و تقتل القاتل ، فمن أين جاءتنا هذه النظريات الغريبة عنا و عن تراثنا ، لا شك إنها من الغرب و من أعداء الإسلام الذين يدركون أن تطبيق أحكام الله يعني القضاء عليهم نهائيا ، لأنهم سُرَّاق ، خونة ، زناة ، مجرمون و قتلة .

---

[1] سورة المائدة (٥) ، الآيات : ٤٤ و ٤٥ و ٤٧ .

و لو طبقت أحكام الله عليهم لاسترحنا من هؤلاء جميعا و قد دارت بيني و بين السيد محمد باقر الصدر في تلك الأيام حوارات عديدة و كنت أسأله عـــن كل

صغيرة و كبيرة من خلال ما عرفته من الأصدقاء الذين حدثوني عن كثير من عقائدهم و ما يقولونه في الصحابة رضي الله عنهم و ما يعتقدونه في الأئمة الإثني عشر علي و بنيه ، و غير ذلك من الأشياء التي نخالفهم فيها .

سألت السيد الصدر عن الإمام علي ، و لماذا يشهدون له في الآذان بأنه ولي الله ؟ أجاب قائلا : إن أمير المؤمنين عليا سلام الله عليه و هو عبد من عبيد الله الذين اصطفاهم الله و شرفهم ليواصلوا حمل أعباء الرسالة بعد أنبيائه و هؤلاء هم أوصياء الأنبياء ، فلكل نبي وصي و علي بن أبي طالب هو وصيّ محمد ، و نحن نفضله على سائر الصحابة بما فضله الله و رسوله و لنا في ذلك أدلة عقلية و نقلية من القرآن و السنة و هذه الأدلة لا يمكن أن يتطرق إليها الشك لأنها متواترة و صحيحة من طرقنا و حتى من طرق أهل السنة و الجماعة ، و قد ألف في ذلك علماؤنا العديد من الكتب ، و لما كان الحكم الأموي يقوم على طمس هذه الحقيقة و محاربة أمير المؤمنين علي و أبنائه و قتلهم ، و وصل بهم الأمر إلى سبه و لعنه على منابر المسلمين و حمل الناس على ذلك بالقهر و القوة ، فكان شيعته و أتباعه رضي الله عنهم يشهدون أنه ولي الله ، و لا يمكن للمسلم أن يسب ولي الله ، و ذلك تحديا منهم للسلطة الغاشمة حتى تكون العزة لله و لرسوله و للمؤمنين ، و حتى تكون حافزا تاريخيا لكل المسلمين عبر الأجيال فيعرفون حقيقة علي و باطل أعدائه .

و دأب فقهاؤنا على الشهادة لعلي بالولاية في الأذان و الإقامة استحبابا ، لا بنية أنها جزء من الآذان أو الإقامة فإذا نوى المؤذن أو المقيم أنها جزء بطل أذانه و إقامته .

و المستحبات في العبادات و المعاملات لا تحصى لكثرتها و المسلم يثاب على فعلها و لا يعاقب على تركها ، و قد ورد على سبيل المثال أنه يذكر

استحبابا بعد شهادة أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله ، بأن يقول المسلم ، و أشهد أن الجنة حق والنار حق و أن الله يبعث من في القبور .

قلت : إن علماءنا علمونا : أن أفضل الخلفاء على التحقيق سيدنا أبو بكر الصديق ، ثم سيدنا عمر الفاروق ثم سيدنا عثمان ثم سيدنا علي رضي الله تعالى

عنهم أجمعين ؟ سكت السيد قليلا ، ثم أجابني .

لهم أن يقولوا ما يشاؤون ، و لكن هيهات أن يثبتوا ذلك بالأدلة الشرعية ، ثم إن هذا القول يخالف صريح ما ورد في كتبهم الصحيحة المعتبرة ، فقد جاء فيها : أن أفضل الناس أبو بكر ثم عمر ثم عثمان و لا وجود لعلي بل جعلوه من سوقة الناس و إنما ذكره المتأخرون استحبابا لذكر الخلفاء الراشدين .

سألته بعد ذلك عن التربة التي يسجدون عليها و التي يسمونها " بالتربة الحسينية " أجاب قائلا :

يجب أن يعرف قبل كل شيء أننا نسجد على التراب ، و لا نسجد للتراب ، كما يتوهم البعض الذين يشهرون بالشيعة ، فالسجود هو لله سبحانه و تعالى وحده ، و الثابت عندنا و عند أهل السنة أيضا أن أفضل السجود على الأرض أو ما أنبتت الأرض من غير المأكول ، و لا يصح السجود على غير ذلك ، و قد كان رسول الله (صلى الله عليه و آله) يفترش التراب و قد اتخذ له خمرة من التراب و القش يسجد عليها ، و علم أصحابه رضوان الله عليهم فكانوا يسجدون على الأرض ، و على الحصى ، و نهاهم أن يسجد أحدهم على طرف ثوبه ، و هذا من المعلومات بالضرورة عندنا .

و قد اتخذ الإمام زين العابدين وسيد الساجدين على بن الحسين (عليهما السلام) تربة من قبر أبيه أبي عبد الله باعتبارها تربة زكية طاهرة سالت عليها دماء سيد الشهداء ، و استمر على ذلك شيعته إلى يوم الناس هذا ، فنحن لا نقول بأن السجود لا يصح إلا عليها ، بل نقول بأن السجود يصح على أي تربة أو حجرة طاهرة كما يصح على الحصير و السجاد المصنوع من سعف النخيل و ما شابه ذلك .

قلت – على ذكر سيدنا الحسين رضي الله عنه – لماذا يبكي الشيعة و يلطمون و يضربون أنفسهم حتى تسيل الدماء و هذا محرم في الإسلام ، فقد قال (صلى الله عليه و آله) : " ليس منا من لطم الخدود و شق الجيوب و دعا بدعوى الجاهلية " .

أجاب السيد قائلا : الحديث صحيح لا شك فيه و لكنه لا ينطبق على مأتم

أبي عبد الله ، فالذي ينادي بثأر الحسين و يمشي على درب الحسين دعوته ليست دعوى جاهلية ، ثم إن الشيعة بشر فيهم العالم و فيهم الجاهل و لديهم عواطف ، فإذا كانت عواطفهم تطغى عليهم في ذكرى استشهاد أبي عبد الله و ما جرى عليه و على أهله و أصحابه من قتل و هتك و سبي ، فهم مأجورون لان نواياهم كلها في سبيل الله ، و الله سبحانه و تعالى يعطي العباد على قدر نواياهم ، و قد قرأت منذ أسبوع التقارير الرسمية للحكومة المصرية بمناسبة موت جمال عبد الناصر ، تقول هذه التقارير الرسمية بأنه سجل أكثر من ثماني حالات انتحارية قتل أصحابها أنفسهم عند سماع النبأ فمنهم من رمى نفسه من أعلى العمارة و منهم من ألقى بنفسه تحت القطار و غير ذلك ، و أما المجروحون و المصابون فكثيرون ، و هذه أمثلة أذكرها للعواطف التي تطغى على أصحابها و إذا كان الناس و هم مسلمون بلا شك يقتلون أنفسهم من أجل موت جمال عبد الناصر و قد مات موتا طبيعيا ، فليس من حقنا – بناء على مثل هذا – أن نحكم على أهل السنة بأنهم مخطئون .

و ليس لإخواننا من أهل السنة أن يحكموا على إخوانهم من الشيعة بأنهم مخطئون في بكائهم على سيد الشهداء ، و قد عاشوا محنة الحسين و ما زالوا يعيشونها حتى اليوم ، و قد بكى رسول الله نفسه على ابنه الحسين و بكى جبريل لبكائه .

– قلت و لماذا يزخرف الشيعة قبور أوليائهم بالذهب و الفضة و هو محرم في الإسلام ؟ .

أجاب السيد الصدر : ليس ذلك منحصرا بالشيعة ، و لا هو حرام فهي مساجد إخواننا من أهل السنة سواء في العراق أو في مصر أو في تركيا أو غيرها من البلاد الإسلامية مزخرفة بالذهب و الفضة و كذلك مسجد رسول الله

في المدينة المنورة و بيت الله الحرام في مكة المكرمة الذي يكسى في كل عام بحلـــة ذهبية جديدة يصرف فيها الملايين ، فليس ذلك منحصرا بالشيعة .

قلت : إن علماء السعودية يقولون : إن التمسح بالقبور و دعوة الصالحين و التبرك بهم ، شرك بالله ، فما هو رأيكم ؟ أجاب السيد محمد باقر الصدر :

إذا كان التمسح بالقبور و دعوة أصحابها بنية أنهم يضرون و ينفعـــون ، فهذا

شرك ، لا شك فيه : و إنما المسلمون موحدون و يعلمون أن الله وحده هو الضار و النافع و إنما يدعون الأولياء و الأئمة (عليهم السلام) ليكونوا وسيلتهم إليه سبحانه و هذا ليس بشرك ، و المسلمون سنة و شيعة متفقون على ذلك من زمن الرسول إلى هذا اليوم ، عدا الوهابية و هم علماء السعودية الذين ذكرت و الذين خالفوا إجماع المسلمين بمذهبهم الجديد الذي ظهر في هذا القرن ، و قد فتنوا المسلمين بهذا الاعتقاد و كفروهم و أباحوا دماءهم ، فهم يضربون الشيوخ من حجاج بيت الله الحرام لمجرد قول أحدهم : السلام عليك يا رسول الله ، و لا يتركون أحدا يتمسح على ضريحه الطاهر ، و قد كان لهم مع علمائنا مناظرات ، و لكنهم أصروا على العناد و استكبروا استكبارا .

فإن السيد شرف الدين من علماء الشيعة لما حج بيت الله الحرام في زمن عبد العزيز آل سعود ، كان من جملة العلماء المدعوين إلى قصر الملك لتهنئته بعيد الأضحى كما جرت العادة هناك و لما وصل الدور إليه و صافح الملك قدم إليه هدية و كانت مصحفا ملفوفا في جلد ، فأخذه الملك و قبَّله و وضعه على جبهته تعظيما له و تشريفا ، فقال له السيد شرف الدين عندئذ : أيها الملك لماذا تقبل الجلد و تعظمه و هو جلد ماعز ؟ أجاب الملك ، أنا قصدت القرآن الكريم الذي بداخله و لم أقصد تعظيم الجلد ! فقال السيد شرف الدين عند ذلك : أحسنت أيها الملك ، فكذلك نفعل نحن عندما نقبل شباك الحجرة النبوية أو بابها فنحن نعلم أنه حديد لا يضر و لا ينفع ، و لكننا نقصد ما وراء الحديد و ما وراء الأخشاب نحن نقصد بذلك تعظيم رسول الله (صلى الله عليه و آله) ، كما قصدت أنت القرآن بتقبيلك جلد الماعز الذي يغلفه .

فكبر الحاضرون إعجابا له و قالوا : صدقت ، و اضطر الملك وقتها إلى السماح للحجاج أن يتبركوا بآثار الرسول حتى جاء الذي بعده فعاد إلى القرار

الأول – فالقضية ليست خوفهم أن يشرك الناس بالله ، بقدر مـــا هـــي قـــضية سياسية قامت على مخالفة المسلمين و قتلهم لتدعيم ملكهـــم و ســـلطتهم علـــى المسلمين و التاريخ أكبر شاهد على ما فعلوه في أمة محمد .

و سألته عن الطرق الصوفية فأجابني بإيجاز : بأن فيها ما هو إيجابي و فيها ما

هو سلبي ، فالايجابي منها تربية النفس و حملها على شظف العـــيش و الزهـــد في ملذات الدنيا الفانية ، و السمو بها إلى عالم الأرواح الزكية ، أما السلبي منـــها ، فهو الانزواء و الهروب من واقع الحياة و حصر ذكر الله في الأعداد اللفظية و غير ذلك ، و الإسلام – كما هو معلوم – يقر الايجابيات و يطرح السلبيات و يحـــق لنا أن نقول بأن مبادئ الإسلام و تعاليمه كلها إيجابية .

***

الشك و الحيرة

كانت أجوبة السيد محمد باقر الصدر ، واضحة و مقنعة و لكن أنى لها أن تغوص في أعماق واحد مثلي قضى خمسة و عشرين عاما من عمره على مبدأ تقديس الصحابة و احترامهم و خصوصا الخلفاء الراشدين الذين أمرنا رسول الله بالتمسك بسنتهم و السير على هديهم ، و على رأس هؤلاء سيدنا أبو بكر الصديق و سيدنا عمر الفاروق ، و إني لم أسمع لهما ذكرا منذ قدمت العراق ، و إنما سمعت أسماء أخرى غريبة عني أجهلها تماما ، و أئمة بعدد إثنى عشر إماما ، و إدعاء بأن رسول الله (صلى الله عليه و آله) قد نص على الإمام علي بالخلافة قبل وفاته ، كيف لي أن أصدق ذلك .

أي أن يتفق المسلمون و هم الصحابة الكرام خير البشر بعد رسول الله و يتصافقوا ضد الإمام علي كرم الله وجهه ، و قد علمونا منذ نعومة أظافرنا بأن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يحترمون الإمام عليا و يعرفون حقه فهو زوج فاطمة الزهراء و أبو الحسن و الحسين و باب مدينة العلم ، كما يعرف سيدنا علي حق أبي بكر الصديق الذي أسلم قبل الناس جميعا و صاحب رسول الله في الغار ذكره الله تعالى في القرآن ، و قد ولاه رسول الله إمامة الصلاة في مرضه و قد قال (صلى الله عليه و آله) : لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، و لكل ذلك اختاره المسلمون خليفة لهم ، كما يعرف الإمام علي حق سيدنا عمر الذي أعز الله به الإسلام و سماه رسول الله بالفاروق الذي يفرق بين الحق و الباطل كما يعرف حق سيدنا عثمان

الذي استحت منه ملائكة الرحمن و الذي جهز جيش العسرة و سمَّاه رسول الله بذي النورين ، فكيف يجهل إخواننا الشيعة كل هذا أو يتجاهلونه و يجعلون من هؤلاء أشخاصا عاديين تميل بهم الأهواء و الأطماع الدنيوية عن إتباع الحق فيعصون أوامر الرسول بعد وفاته و هم الذين كانوا يتسابقون لتنفيذ أوامره فيقتلون أولادهم و آباءهم و عشيرتهم في سبيل عزة الإسلام و نصرته ، و الذي يقتل أباه و ولده طاعة لله و رسوله لا يمكن أن تغره أطماع دنيوية زائلة هي اعتلاء منصة الخلافة فيتجاهل أمر رسول الله و يتركه ظهريا .

نعم من أجل كل هذا ما كنت لأصدق الشيعة في كل ما يقولون رغم أني اقتنعت بأمور كثيرة ، و بقيت بين الشك و الحيرة ، الشك الذي أدخله علماء الشيعة في عقلي لان كلامهم معقول و منطقي ، و الحيرة التي غمرتني فلم أصدق أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم يترلون إلى هذا المستوى الأخلاقي فيصبحون بشرا عاديين مثلنا ، لم تصقلهم أنوار الرسالة و لم يهذبهم الهدى المحمدي ؟ يا إلهي كيف يكون ذلك ؟ أيمكن أن يكون الصحابة على هذا المستوى الذي يقول به الشيعة ؟ و المهم هو أن هذا الشك و هذه الحيرة هما بداية الوهن و بداية الاعتراف بأن هناك أمورا مستورة لابد من كشفها للوصول إلى الحقيقة .

جاء صديقي منعم و سافرنا إلى كربلاء ، و هناك عشت محنة سيدنا الحسين كما يعيشها شيعته و علمت وقتئذ بأن سيدنا الحسين لم يمت ، فالناس يتزاحمون و يتراصون حول ضريحه كالفراشات و يبكون بحرقة و لهفة لم أشهد لهما مثيلا ، فكأن الحسين استشهد الآن ، و سمعت الخطباء هناك يثيرون شعور الناس بسردهم لحادثة كربلاء في نواح و نحيب ، و لا يكاد السامع لهم أن يمسك نفسه و يتماسك حتى ينهار ، فقد بكيت و بكيت و أطلقت لنفسي عنانها و كأنها كانت مكبوتة ، و أحسست براحة نفسية كبيرة ما كنت أعرفها قبل ذلك

اليوم ، و كأني كنت في صفوف أعداء الحسين و انقلبت فجأة إلى أصـــحابه و أتباعه الذين يفدونه بأرواحهم ، و كان الخطيب يستعرض قصة الحر و هو أحـــد القادة المكلفين بقتال الحسين ، و لكنه وقف في المعركة يرتعش كالسعفة و لمـــا سأله بعض أصحابه : أخائف أنت من الموت أجابه الحر ، لا و الله و لكنني أخير نفسي بين الجنة و النار ثم

همز جواده و انطلق إلى الحسين قائلا : هل من توبة يابن رسول الله ، و لم أتمالك عند سماع هذا أن سقطت على الأرض باكيا و كأني أمثل دور الحر و أطلب من الحسين : هل من توبة يابن رسول الله ، سامحني يابن رسول الله ، و كان صوت الخطيب مؤثرا ، و ارتفعت أصوات الناس بالبكاء و النحيب عند ذلك سمع صديقي صياحي و انكب علي معانقا ، باكيا و ضمني إلى صدره كما تضم الأم ولدها و هو يردد يا حسين ، يا حسين ، كانت دقائق و لحظات عرفت فيها البكاء الحقيقي و أحسست و كان دموعي غسلت قلبي و كل جسدي من الداخل و فهمت وقتها حديث الرسول : " لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلا و لبكيتم كثيرا " .

بقيت كامل اليوم مقبوض النفس و قد حاول صديقي تسليتي و تعزيتي و قدم إلي بعض المرطبات و لكن شهيتي انقطعت تماما ، و بقيت أسأله أن يعيد علي قصة مقتل سيدنا الحسين ، لأني ما كنت أعرف منها قليلا أو كثيرا غاية ما هناك أن شيوخنا إذا حدثونا عن ذلك يقولون أن المنافقين أعداء الإسلام الذين قتلوا سيدنا عمر و سيدنا عثمان و سيدنا علي هم الذين قتلوا سيدنا الحسين ، و لا نعرف غير هذا الاقتضاب بل إننا نحتفل بيوم عاشوراء على أنه من الأعياد الإسلامية و تخرج فيه زكاة الأموال و تطبخ فيه شتى المأكولات و أنواع الأطعمة الشهية ، و يطوف الصبيان على الكبار ليعطوهم بعض النقود لشراء الحلويات و الألعاب .

صحيح أن هناك بعض التقاليد و العادات في بعض القرى منها أنهم يشعلون النار ، و لا يعملون في ذلك اليوم و لا يتزوجون و لا يفرحون ، و لكن نسميها عادات و تقاليد بدون ذكر أي تفسير لها ، و يروي علماؤنا في ذلك

أحاديث عن فضائل يوم عاشوراء و ما فيه من بركـــات و رحمـــات أنـــه أمـــر عجيب ! .

زرنا بعد ذلك ضريح العباس أخي الحسين ، و لم أكن أعرف من هـــو و قد روى لي صديقي قصة بطولته و شجاعته ، كما التقينا بالعديد مـــن العلمـــاء الأفاضل الذين لا أتذكر أسماءهم بالتفصيل سوى بعض الألقاب ، كبحر العلوم و السيد الحكيم و كاشف الغطاء و آل ياسين و الطباطبائي و الفيروزآبادي و أسد حيدر و غيرهم ممن تشرفت بمقابلتهم .

و الحق يقال إنهم علماء أتقياء ، تعلوهم هيبة و وقار ، و الشيعة يحترمونهم كثيرا و يؤدون إليهم خمس أموالهم ، و التي بها يديرون شؤون الحوزات العلمية و يؤسسون المدارس و المطابع و ينفقون على طلاب العلم الوافدين من كل البلاد الإسلامية ، إنهم مستقلون و لا يرتبطون بالحكام من قريب أو من بعيد كما هو شأن علمائنا الذين لا يفتون و لا يتكلمون إلا برأي السلطة التي تضمن معاشهم ، و تعزل من تشاء منهم و تنصب من تشاء .

إنه عالم جديد بالنسبة إليّ اكتشفته ، أو كشفه الله لي و قد أنست به بعد ما كنت أنفر منه و انسجمت معه بعد ما كنت أعاديه ، و قد أفادني هذا العالم أفكارا جديدة و بعث في حب الإطلاع و البحث و الدراسة حتى أدرك الحقيقة المنشودة التي طالما راودتني عندما قرأت الحديث الشريف الذي قال فيه رسول الله (صلى الله عليه و آله) : " افترقت بنو إسرائيل إلى إحدى وسبعين فرقة و افترقت النصارى إلى اثنتين و سبعين فرقة ، و ستفترق أمتي إلى ثلاثة و سبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة واحدة " .

فلا كلام لنا مع الأديان المتعددة التي يدّعي كل منها أنه هو الحق و غيره الباطل ، و لكن أعجب و اندهش و أحتار عند قراءة هذا الحديث ، و ليس عجبي و إندهاشي و حيرتي للحديث نفسه و لكن للمسلمين الذي يقرؤون هذا الحديث و يرددونه في خطبهم و يمرون عليه مر الكرام بدون تحليل ، و لا بحث في مدلوله لكي يتبينوا الفرقة الناجية من الفرق الضالة .

و الغريب أن كل فرقة تدعي أنها هي وحدها الناجية و قد جاء في ذيل الحديث : " قالوا من هم يا رسول الله ؟ قال من هم على ما أنا عليه أنا و أصحابي " فهل هناك فرقة إلا و هي متمسكة بالكتاب و السنة ، و هل هناك فرقة إسلامية تدعي غير هذا ؟ فلو سئل الإمام مالك أو أبو حنيفة أو الإمام

الشافعي أو أحمد بن حنبل فهل يدعي أي واحد منهم إلا التمـــسك بـــالقرآن و السنة الصحيحة ؟ .

فهذه المذاهب السنية و إذا أضفنا إليها الفرق الشيعية التي كنت أعتقد

بفسادها و انحرافها ، فها هي الأخرى تدعي أيضا أنها متمسكة بالقرآن و السنة الصحيحة المنقولة عن أهل البيت الطاهرين ، و أهل البيت أدري بما فيه كما يقولون .

فهل يمكن أن يكونوا كلهم على حق كما يدعون ؟ و هذا غير ممكن لان الحديث الشريف يفيد نقيض ذلك ، اللهم إلا إذا كان الحديث موضوعا ، مكذوبا ، و هذا لا سبيل إليه لان الحديث متواتر عند السنة و الشيعة ، أم أن الحديث لا معنى له و لا مدلول ؟ و حاشى لرسول الله (صلى الله عليه و آله) أن يقول شيئاً لا معنى له و لا مدلول و هو الذي لا ينطق عن الهوى و كل أحاديثه حكمة و عبر .

إذا لم يبق أمامنا إلا الاعتراف بأن هناك فرقة واحدة على الحق و ما بقي فهو باطل ، فالحديث يبعث على الحيرة كما يبعث على البحث والتنقيب لمن يريد لنفسه النجاة .

و من أجل هذا داخلني الشك والحيرة بعد لقائي بالشيعة فمن يدري لعلهم يقولون حقا و ينطقون صدقا ! و لماذا لا أبحث و لا أنقب .

و قد كلفني الإسلام بقرآنه و سنته أن أبحث و أقارن و أتبين قال الله تعالى : { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ... } [1] ، و قال أيضا : { الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ } [2] .

---

[1] سورة العنكبوت (٢٩) ، الآية : ٦٩ .

[2] سورة الزمر (٣٩) ، الآية : ١٨ .

و قد قال رسول الله (صلى الله عليه و آله) : " ابحث عن دينك حتى يقال عنك مجنون " فالبحث و المقارنة واجب شرعي على كل مكلف .

بهذا القرار و بهذه العزيمة الصادقة واعدت نفسي و أصدقائي من الشيعة في العراق و أنا أودعهم معانقا و متأسفا لفراقهم فقد أحببتهم و أحبوني ، و قد تركت أحباء أعزاء مخلصين ضحوا بأوقاتهم من أجلي لا لشيء كما قالوا لا خوفا و لا طمعا ، و إنما ابتغاء مرضاة الله سبحانه فقد ورد في الحديث الشريف " لان يهدي

الله بك رجلاً واحداً ، خير لك مما طلعت عليه الشمس " .

و غادرت العراق بعد قضاء عشرين يوماً في ربوع الأئمة و شيعتهم ، مرت كأنها حلم لذيذ يتمنى النائم أن لا يستيقظ حتى يستوفيه ، غادرت العراق متأسفاً على قصر المدة ، متأسفاً على فراق الأفئدة التي أهوي إليها و القلوب التي تنبض بمحبة أهل البيت و توجهت للحجاز قاصداً بيت الله الحرام و قبر سيد الأولين و الآخرين صلى الله عليه و على آله الطيبين الطاهرين .

***

السفر إلى الحجاز

وصلت إلى جدة و التقيت صديقي البشير الذي فرح بقدومي و أنزلني في بيته ، و أكرمني غاية الإكرام ، و كان يقضي أوقات فراغه معي في التزهة و المزارات بسيارته ، و ذهبنا للعمرة معا و عشنا أياما كلها عبادة و تقوى ، و اعتذرت له عن تأخري لبقائي في العراق و حكيت له عن اكتشافي الجديد أو الفتح الجديد ، و كان متفتحا و مطلعا فقال : فعلا أنا أسمع أن فيهم بعض العلماء الكبار و عندهم ما يقولون ، و لكن عندهم فرقا كثيرة كافرة منحرفة يخلقون لنا مشاكل متعددة في كل موسم للحج .

سألته ما هي هذه المشاكل التي يخلقونها ؟ .

أجاب : إنهم يصلون حول القبور ، يدخلون البقيع جماعات فيبكون و ينوحون و يحملون في جيوبهم قطعا من الحجارة يسجدون عليها ، و إذا ذهبوا إلى قبر سيدنا الحمزة في أحد فهناك يقيمون جنازة بلطم و عويل و كان الحمزة مات في ذلك الحين ، و من أجل كل ذلك منعتهم الحكومة السعودية من الدخول إلى المزارات .

ابتسمت ، و قلت له : أ لهذا تحكم عليهم بأنهم منحرفون عن الإسلام ؟ .

قال : هذا و غيره ، أنهم يأتون لزيارة النبي و لكنهم في نفس الوقت يقفون

على قبر أبي بكر و عمر و يسبونهما و يلعنونهما و منهم من يلقي على قبر أبي بكر و قبر عمر القذارات و النجاسات .

و ذكَّرَني هذا القول بالرواية التي سمعتها من والدي غداة رجع من الحج و لكنه قال بأنهم يلقون القذارات على قبر النبي ، و لا شك بأن والدي لم يشاهد ذلك بعينيه لأنه قال : شاهدنا جنودا من الجيش السعودي يضربون بعض الحجاج بالعصي و لما استنكرنا عليهم إهانتهم لحجاج بيت الله الحرام : أجابونا بأن هؤلاء ليسوا من المسلمين فهم من الشيعة جاؤوا بالقذارات ليلقوها على قبر النبي ، قال والدي : عند ذلك لعناهم و بصقنا عليهم .

و ها أنا الآن أسمع من صديقي السعودي المولود في المدينة المنورة بأنهم يأتون لزيارة قبر النبي و لكنهم يلقون النجاسات على قبر أبي بكر و عمر ، و شككت في صحة الروايتين ، لأني حججت و رأيت أن الحجرة المباركة التي يوجد فيها ضريح النبي و أبي بكر و عمر مغلقة و لا يمكن لأي شخص أن يقترب منها للتَّمَسُح على بابها أو شباكها ، فضلا على أن يلقي فيها أشياء ، أولا ، لعدم وجود فجوات و ثانياً لوجود حراسة مشددة من الجنود الغلاظ الذين يتداولون على الرقابة و الحراسة أمام كل باب و في أيديهم سياط يضربون بها كل من يقترب أو يحاول أن ينظر داخل الحجرة ، و الغالب على الظن أن بعض الجنود من السعودية و هم يكفرون الشيعة ، رماهم بهذه التهمة ليبرر ضربه لهم ، و حتى يستفز المسلمين لمقاتلتهم أو على الأقل ليسكتوا على إهانتهم ، و يروجوا إذا رجعوا إلى بلدانهم أن الشيعة يبغضون رسول الله و يلقون على قبره النجاسات ، و بذلك يضربون عصفورين بحجر واحد .

و هذا نظير ما حكاه أحد الفضلاء ممن أثق بهم إذ قال : كنا نطوف بالبيت فإذا بشاب " أصابه مغص من شدة الزحام فتقيأ " ، و ضربه الجنود الذين

كانوا يحرسون الحجر الأسود و أخرجوه و هو في حالة يرثى لها و اتهمـــوه بأنـــه جاء بالنجاسة لتوسيخ الكعبة و شهدوا عليه و أعدم في نفس اليوم .

و جالت بخاطري هذه المسرحيات و بقيت أفكر برهة في تعليل صديقي

السعودي لتكفير هؤلاء الشيعة ، فلم أسمع غير أنهم يبكون و يلطمون و يسجدون على الحجر و يصلون حول القبور ، و تساءلت أفي هذا دليل على تكفير من يشهد أن لا إله إلا الله و أن محمدا عبده و رسوله ؟ و يقيم الصلاة و يؤتي الزكاة و يصوم رمضان و يحج البيت و يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر .

و ما أردت معاندة صديقي و الدخول معه في جدال لا طائل من ورائه فاقتصرت على القول : هدانا الله و إياهم إلى صراطه المستقيم و لعن الله أعداء الدين الذين يكيدون للإسلام و المسلمين .

و كنت كلما طفت بالبيت العتيق خلال العمرة و في كل زيارة لمكة المكرمة ، و لم يكن يطوف بها إلا نفر قليل من المعتمرين ، صليت و سألت الله سبحانه من كل جوارحي أن يفتح بصيرتي و يهديني إلى الحقيقة .

وقفت على مقام إبراهيم (عليه السلام) و استعرضت الآية الكريمة : { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ } [1] ، صدق الله العظيم .

و بدأت أناجي سيدنا إبراهيم أو أبانا إبراهيم كما سماه القرآن :

– يا أبتاه ، يا من سميتنا المسلمين ، ها قد اختلف أبناؤك من بعدك فأصبحوا يهودا و نصارى و مسلمين ، و اختلف اليهود فيما بينهم إلى أحدى و سبعين فرقة و اختلف النصارى إلى اثنتين و سبعين فرقة ، و اختلف المسلمون إلى

[1] سورة الحج (٢٢) ، الآية : ٧٨ .

ثلاث و سبعين فرقة و كلهم في الضلالة حسبما أخبر بذلك ابنك محمد و فرقة واحدة بقيت على عهدك يا أبتاه ! .

أهي سنة الله في خلقه كما يقول القدرية ، فالله سبحانه هو الذي كتب على كل نفس أن تكون يهودية أو نصرانية أو مسلمة ، أو ملحدة ، أو مشركة ، أم أنه

حب الدنيا و الابتعاد عن تعاليمه سبحانه ، ذلك بأنهم نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، إن عقلي لا يطاوعني بتصديق أن القضاء و القدر هو الذي حتم مصير الإنسان ، بل أميل و أكاد أجزم بأن الله سبحانه خلقنا و هدانا و ألهمنا الفجور و التقوى ، و أرسل إلينا رسله ليوضحوا لنا ما أشكل علينا و يعرفوننا الحق من الباطل ، و لكن الإنسان غرته الحياة الدنيا و زينتها ، الإنسان بأنانيته و كبريائه ، بجهله و فضوله ، بعناده و لجاجته ، بظلمه و طغيانه مال عن الحق و اتبع الشيطان و ابتعد عن الرحمن فورد غير مورده ، و أكل غير مأكله ، و قد عبر القرآن الكريم عن ذلك أحسن تعبير و أوجزه بقوله تعالى : { إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } [1] .

يا أبانا إبراهيم ، لا لوم على اليهود و النصارى الذين عاندوا الحق بغيا بينهم لما جاءهم البينة ، فها هي الأمة التي أنقذها الله بولدك محمد و أخرجها من الظلمات إلى النور و جعلها خير أمة أخرجت للناس ، فهي الأخرى اختلفت و تفرقت و كفر بعضها بعضا ، و قد حذرهم رسول الله و نبههم إلى ذلك و ضيق عليهم حتى قال : " لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه المسلم فوق ثلاث " فما بال هذه الأمة قد انقسمت و افترقت و أصبحت دويلات يعادي بعضها البعض و يحارب بعضها البعض و يكفر بعضها البعض و حتى لا يعرف بعضها البعض الآخر ، فيهجره طيلة حياته ، ما لهذه الأمة يا أبانا إبراهيم بعد ما كانت خير الأمم و قد ملكت الشرق و الغرب و أوصلت للناس الهداية و العلوم و المعرفة و الحضارة ، إذا بها اليوم أصبحت أقل الأمم و أذلها فأراضيهم مغتصبة و شعوبهم مشردة و مسجدهم الأقصى تحتله عصابة من الصهاينة و لا يقدرون على تحريره

[1] سورة يونس (١٠) ، الآية : ٤٤ .

، و إذا زرت بلدانهم فإنك لا ترى إلا الفقر المدقع و الجوع القاتل و الأراضـــي القاحلة ، و الأمراض الفتاكة و الأخلاق السيئة ، و التخلف الفكري و الـــتقني ، و الظلم و الاضطهاد ، و الأوساخ و الحشرات ، و يكفيك فقط أن تقارن بيوت الراحة " المراحيض " العمومية كيف هي في أوروبا و كيف هي عنـــدنا ، فـــإذا دخل المسافر إلى المراحيض

في أوروبا بأسرها وجدها نظيفة تلمع كالبلور و فيها روائح طيبة بينما لا يطيق المسافر إلى البلاد الإسلامية الدخول إلى المراحيض لعفونتها و نجاستها و نتونتها و نحن الذين علمنا الإسلام " إن النظافة من الإيمان و الوسخ من الشيطان " ، فهل تحول الإيمان إلى أوروبا و سكن الشيطان عندنا ؟ لماذا أصبح المسلمون يخافون من إظهار عقيدتهم حتى في بلدانهم ، و لا يتحكم المسلم حتى في وجهه فلا يتمكن من إعفاء لحيته و لا من لبسه الزي الإسلامي بينما يتجاهر الفاسقون بشرب الخمر و الزنا و هتك الأعراض و لا يقدر المسلم دفعهم بل و لا حتى أمرهم بالمعروف و نهيهم عن المنكر و قد بلغني أن في بعض البلاد الإسلامية مثل مصر و المغرب من يبعث الآباء بناتهم للبغاء من شدة الفقر و البؤس و الاحتياج فلا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم .

يا إلهي لماذا ابتعدت عن هذه الأمة و تركتها تتخبط في الظلمات ، لا ، لا ، أستغفرك يا إلهي و أتوب إليك ، فهي التي ابتعدت عنك عن ذكرك ، و اختارت طريق الشيطان ، و أنت جلت حكمتك ، و تعالت قدرتك قلت ، و قولك الحق : { وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ } [1] ، و قلت أيضا : { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ } [2] .

و لا شك أن ما وصلت إليه الأمة الإسلامية من الانحطاط و التخلف و الذلة و المسكنة لدليل قاطع على بعدها عن الصراط المستقيم ، و لا شك أن القلة

---

[1] سورة الزخرف (٤٣) ، الآية : ٣٦ .

[2] سورة آل عمران (٣) ، الآية : ١٤٤ .

القليلة أو الفرقة الواحدة من بين ثلاثة و سبعين ، لا تؤثر في مسيرة أمة بأكملها .

و قد قال رسول الله (صلى الله عليه و آله) " لتأمرن بالمعروف و لتنهن عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم " .

ربنا آمنا بما أنزلت و اتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ربنا لا تزغ قلوبنا

بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ، ربنا ظلمنا أنفسنا و إن لم تغفر لنا و ترحمنا لنكونن من الخاسرين .

سافرت إلى المدينة المنورة محملا برسالة من صديقي بشير إلى أحد أقربائه لكي أقيم عنده مدة بقائي هناك ، و قد كلمه من قبل بالهاتف ، و استقبلني هذا الأخير و رحب بي و أنزلني في بيته و توجهت فور وصولي إلى زيارة رسول الله ، فاغتسلت و تطيبت ، و لبست أحسن ثيابي و أطهرها ، و كان الزوار قليلين بالنسبة إلى موسم الحج فتمكنت من الوقوف أمام قبر رسول الله و أبي بكر و عمر ، و لم أكن أتمكن من ذلك في موسم الحج لكثرة الازدحام ، و حاولت عبثا أن أمس أحد الأبواب للتبرك ، فانتهرني الحرس الواقف هناك ، و كان على كل باب حرس يحرسه ، و لما أطلت الوقوف للدعاء و إبلاغ السلام الذي حملني إياه أصدقائي ، أمرني الحراس بالانصراف ، و حاولت أن أتكلم مع واحد منهم و لكن دون جدوى .

و رجعت إلى الروضة المطهرة حيث جلست أقرأ ما تيسر من القرآن ، و أحسن الترتيل و أعيده مرات لأني تخيلت و كان رسول الله (صلى الله عليه و آله) يستمع إلي ، و قلت في نفسي أيمكن أن يكون الرسول ميتا كسائر الأموات ، فلماذا نقول في صلاتنا ، السلام عليك أيها النبي و رحمة الله و بركاته بصفة المخاطب ، و إذا كان المسلمون يعتقدون بأن سيدنا الخضر (عليه السّلام) لم يمت و يرد السلام على كل من يسلم عليه بل و أن مشايخ الطرق الصوفية يعتقدون جزما بأن شيخهم أحمد التيجاني أو عبد القادر الجيلاني يأتون إليهم جهارا و يقظة لا مناما ، فلماذا نشح على رسول الله بمثل هذه المكرمة و هو أفضل الخلق على الإطلاق ، و لكن يخفف على نفسي أن المسلمين لا يشحون بذلك على رسول الله ، إلا الوهابية الذين بدأت أنفر منهم لهذا و لعدة أسباب أخرى منها

الغلظة التي شاهدتها فيهم و الشدة على المؤمنين الذين يخالفونهم في معتقـــداتهم . زرت البقيع و كنت واقفا أترحم على أرواح أهل البيت ، و كان بالقرب مـــني شيخ طاعن في السن يبكي و عرفت من بكائه أنه شيعي ، و استقبل القبلة و بدأ يصلي و إذا بالجندي يأتي إليه بسرعة و كأنه كان يراقب تحركاته و ركله بحذائه ركلة و هو في حالة سجود فقلبه على ظهره و بقي

المسكين فاقد الوعي بضع دقائق و انهال عليه الجندي ضربا و سبا و شـــتما ، و رق قلبي لذلك الشيخ و ظننت أنه مات و دفعني فضولي و أخذتني الحمية و قلت للجندي : حرام عليك لماذا تضربه و هو يصلي ؟ فانتهرني قائلا : أسكت أنت و لا تتدخل حتى لا أصنع بك مثله .

و لما رأيت في عينيه الشر تجنبته و أنا ساخط على نفسي العـــاجزة عـــن نصرة المظلوم ، و على السعوديين الذين يفعلون بالناس ما بدا لهم بدون رادع و لا وازع و لا من يُنكر عليهم ، و كان بعض الزائرين حاضرا فمنهم من حَوْقَلَ [1] و منهم من قال : إنه يستحق ذلك لأنه يصلي حول القبور و هو محـــرم ، فلـــم أتمالك و انفجرت على هذا المتكلم قائلا : من قال لك أن الصلاة حول القبـــور حرام ؟ أجابني : قد نهى رسول الله عن ذلك .

فقلت بدون وعي : تكذبون على رسول الله ، و خشيت أن يتألب علـــي الحاضرون أو ينادوا الجندي فيفتك بي ، فتلطفت قائلا : إذا كان رسول الله (صـــلى الله عليه و آله) قد نهى عن ذلك فلماذا يخالف نهيه الملايين من الحجـــاج و الـــزوار و يرتكبون حراما لأنهم يصلون حول قبر النبي و قبر أبي بكر و قبر عمر في المسجد النبوي الشريف ، و في مساجد المسلمين في كل العـــالم الإســـلامي ، و علـــى افتراض أن الصلاة حول القبور حرام ، أ فبهذه الغلظة و الـــشدة نعالجهـــا ؟ أم باللين و اللطف ، و اسمحوا لي أن أروي لكم قصة ذلك الأعرابي الذي بـــال في مسجد رسول الله بحضرته و بحضرة أصحابه بدون حياء و لا خجل ، و لما قـــام إليه بعض الصحابة شاهرين سيوفهم ليقتلوه ، نهاهم رسول الله (صلى الله عليه و آلـــه) و منعهم و قال : " دعوه و لا تزرموه و هريقوا على بوله دلوا من الماء ، إنما بعثتم

---

[1] حوقل : قال لا حول و لا قوة إلا بالله .

لتيسروا لا لتعسروا ، لتبشروا لا لتنفروا " و ما كان من الصحابة إلا أن امتثلوا أمره ، و نادى رسول الله الأعرابي و أجلسه إلى جانبه و رحب به و لاطفه و أفهمه أن ذلك المكان هو بيت الله و لا يمكن تنجيسه فأسلم الأعرابي و لم يُرَ بعد ذلك إلا و هو آت المسجد في أحسن ثيابه و أطهرها ، و صدق الله العظيم إذ يقول لرسوله : { ... وَلَوْ كُنتَ فَظًّا

غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ... } [1] و تأثر بعض الحاضرين عند سماع القصة فاختلى بي أحدهم إلى جانب و سألني : من أين أنت : قلت من تونس : فسلم عليَّ و قال : يا أخي بالله عليك أن تحفظ نفسك و لا تتكلم مثل هذا هنا أبدا . أنصحك لوجه الله . و ازددت بغضا و حنقا على هؤلاء الذين يدعون أنهم حماة الحرمين و يعاملون ضيوف الرحمن بهذه القسوة ، و لا يقدر أحد أن يبدي رأيه أو يروي أحاديث لا تتفق و ما يروونه ، أو يعتقد غير ما يعتقدونه .

رجعت إلى بيت الصديق الجديد الذي لم أعرف اسمه و قد جاءني بالعشاء و جلس مقابلي و قبل أن نبدأ في الأكل سألني أين ذهبت ، و رويت له قصتي من أولها إلى آخرها و قلت في معرض كلامي : يا أخي أنا بصراحة بدأت أنفر من الوهابية و أميل إلى الشيعة ، فتغير وجهه و قال لي : إياك أن تتكلم مثل هذا الكلام مرة أخرى ! و غادرني و لم يأكل معي ، و انتظرته طويلا حتى غلبني النوم ، و أفقت باكرا على أذان المسجد النبوي فرأيت أن الأكل لا يزال في مكانه كما تركته و علمت بأن مضيفي لم يرجع ، و تشككت في أمره و خشيت أن يكون من المخابرات ، فنهضت مسرعا و غادرت البيت بدون رجعة و قضيت كامل اليوم في الحرم النبوي أزور و أصلي و أخرج لقضاء الحاجة و الوضوء و بعد صلاة العصر سمعت أحد الخطباء يلقي درساً وسط جماعة من المصلين ، و اتجهت و علمت من بعض الجالسين أنه قاضي المدينة ، و استمعت إليه و هو يفسر بعض آيات من الذكر الحكيم ، و بعد ما أتم ، درسه و همَّ بالخروج استوقفته و سألته قائلا : سيدي هل لك أن تعطيني مدلول الآية من قوله

[1] سورة آل عمران (٣) ، الآية : ١٥٩ .

تعالى : { ... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا } [1] .

فمن هم أهل البيت المقصودون بهذه الآية ؟

[1] سورة الأحزاب (٣٣) ، الآية : ٣٣ .

أجابني على الفور : هم نساء النبي و قد بدأت الآية بذكرهن : { يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ ... } [1] .

قلت له : إن علماء الشيعة يقولون بأنها خاصة بعلي و فاطمة و الحسن و الحسين ، و قد اعترضت عليهم طبعا و قلت بأن بداية الآية تقول : " يا نساء النبي" ، فأجابوني لما كان الكلام عليهن جاءت الصيغة كلها بنون النسوة ، فقال تعالى : لستن ، إن اتقيتن ، فلا تخضعن ، و قلن ، و قرن في بيوتكن ، و لا تبرجن ، و أقمن الصلاة ، و آتين الزكاة ، و أطعن الله و رسوله ، و لما كان هذا المقطع من الآية خاضعا بأهل البيت تغيرت الصيغة فقال : ليذهب عنكم ، و يطهركم ، فنظر إلي رافعا نظارته و قال : إياك و هذه الأفكار المسمومة ، إن الشيعة يؤولون كلام الله على حسب أهوائهم و لهم في عليّ و ذريته آيات لا نعرفها و عندهم قرآن خاص يسمونه مصحف فاطمة ، فأنا أحذرك أن يخدعوك .

قلت : لا تخف يا سيدي فأنا على حذر و أعرف عنهم الكثير و لكني أردت أن أتحقق ، قال : من أين أنت ، قلت من تونس ، قال فما اسمك ؟ قلت : – التيجاني فضحك مفتخرا ، و قال هل تدري من هو أحمد التيجاني ؟ قلت هو شيخ الطريقة ، قال و هو عميل للاستعمار الفرنسي ، و قد تركز الاستعمار الفرنسي في الجزائر و تونس بإعانته ، و إذا زرت باريس فاذهب للمكتبة القومية و اقرأ بنفسك القاموس الفرنسي في باب " أ " فسترى أن فرنسا أعطت وسام الشرف لأحمد التيجاني الذي قدم لها خدمات لا تقاس فتعجبت من قوله و شكرته و ودعته و انصرفت .

---

[1] سورة الأحزاب (٣٣) ، الآية : ٣٢ .

بقيت في المدينة أسبوعا كاملا حيث صـــليت أربعـــين صـــلاة و زرت المزارات كلها ، و كنت دقيق الملاحظة خلال إقامتي هناك فلم أزدد من الوهابية إلا بعدا و نفورا و ارتحلت من المدينة المنورة إلى الأردن حيث التقيـــت أصـــدقاء هناك كنت تعرفت عليهم في ملتقى الحج الذي أشرت إليه سابقا .

و بقيت معهم ثلاثة أيام ، و وجدت عندهم حقدا على الشيعة أكثر ممـــا عندنا في تونس فالروايات نفسها ، و الإشاعات ذاتها ، و لـــيس هنـــاك واحـــد سألته عن

الدليل إلا و قال بأنه يسمع عنهم و لم أجد أحدا منهم جالسَ الشيعة أو قرأ كتابا للشيعة و لا حتى التقى شيعيا في حياته .

رجعت من هناك إلى سوريا و في دمشق زرت الجامع الأموي و إلى جانبه مرقد رأس سيدنا الحسين كما زرت ضريح صلاح الدين الأيوبي و السيدة زينب و من بيروت قطعت مباشرة إلى طرابلس و دامت الرحلة أربعة أيام في البحر استرحت خلالها بدنيا و فكريا و استعرضت شريط الرحلة التي أوشكت على النهاية فإذا بي أستنتج ميلا و احتراما للشيعة و في نفس الوقت بعدا و نفورا و سخطا على الوهابية التي عرفت دسائسها و حمدت الله على ما أنعم به علي و ما أولاني من عناية و رعاية داعيا إياه سبحانه و تعالى أن يهديني إلى طريق الحق .

و رجعت إلى أرض الوطن و كلي شوق و حنين إلى أسرتي و أهلي و أصدقائي ، و وجدت الجميع بخير ، و فوجئت عند دخولي إلى مترلي بكثرة الكتب التي وصلت قبلي و عرفت مصدرها .

و لما فتحت تلك الكتب التي ملأت البيت ازددت حبا و تقديرا لأولئك . الذين لا يخلفون وعدهم و قد وجدت هنا أضعاف ما أهدي إلي هناك .

***

بداية البحث

فرحت كثيرا و نظمت الكتب في بيت خاص سميته بالمكتبة ، و استرحت أياما ، و تسلمت جدول أوقات العمل بمناسبة بداية السنة الدراسية الجديدة فكان عملي ثلاثة أيام متوالية من التدريس و أربعة أيام متوالية من الراحة في الأسبوع .

و بدأت أقرأ الكتب فقرأت كتاب عقائد الإمامية ، و أصل الشيعة و أصولها و ارتاح ضميري لتلك العقائد و تلك الأفكار التي يرتئيها الشيعة ، ثم قرأت كتاب المراجعات للسيد شرف الدين الموسوي ، و ما أن قرأت منه بضع صفحات حتى استهواني الكتاب و شدني إليه شدا فكنت لا أتركه إلا غضبا و كنت أحمله في بعض الأحيان إلى المعهد ، و أدهشني الكتاب بما حواه من صراحة العالم الشيعي و حَلِّه لما أشكل على العالم السني شيخ الأزهر ، وجدت في الكتاب بغيتي لأنه ليس كالكتب التي يكتب فيها المؤلف ما يشاء بدون معارض و لا مناقش فالمراجعات هو حواريين عالمين من مذهبين مختلفين يحاسب كل منهما صاحبه على كل شاردة و واردة ، على كل صغيرة و كبيرة متوخيين في ذلك المرجعين الأساسيين لكافة المسلمين و هما القرآن الكريم و السنة الصحيحة المتفق عليها في صحاح السنة . فكان الكتاب بحق يمثل دوري كباحث يفتش عن الحقيقة و يقبلها أينما وجدت و على هذا كان الكتاب مفيدا جدا و له فضل عليّ عميم .

و وقفت مبهوتا عندما كان يتكلم عن عدم امتثال الصحابة لأوامر الرسول و يسوق لذلك عدة أمثلة ، و منها حادثة رزية يوم الخميس ، إذ لم أكن أتصور أن

سيدنا عمر بن الخطاب يعترض على أمر رسول الله و يرميه بالهجر ، و ظننت بادئ الأمر أن الرواية هي من كتب الشيعة ، و ازدادت دهشتي و حيرتي عندما رأيت العالم الشيعي ينقلها من صحيح البخاري و صحيح مسلم ، و قلت في نفسي " إن وجدت هذا في صحيح البخاري فسيكون لي رأي " .

و سافرت إلى العاصمة و منها اشتريت صحيح البخاري و صحيح مسلم و مسند الإمام أحمد و صحيح الترمذي و موطأ الإمام مالك و غيرها من الكتب الأخرى المشهورة ، و لم أنتظر الرجوع إلى البيت فكنت طوال الطريق بين تونس و قفصة و أنا راكب في حافلة النقل العمومية أتصفح كتاب البخاري و أبحث عن رزية يوم الخميس متمنيا أن لا أعثر عليها ، و رغم أنفي وجدتها و قرأتها مرات عديدة فكانت كما نقلها السيد شرف الدين ، و حاولت تكذيب الحادثة برمتها و استبعدت أن يقوم سيدنا عمر بذلك الدور الخطير و لكن أنّى لي تكذيب ما ورد في صحاحنا و هي صحاح أهل السنة و الجماعة التي ألزمنا بها أنفسنا و شهدنا بصحتها ، و الشك فيها ، أو تكذيب بعضها يستلزم طرحها لأنه هو الآخر يستلزم طرح كل معتقداتنا ، و لو كان العالم الشيعي ينقل من كتبهم ما كنت لأصدق أبدا ، و أما أن ينقل من صحاح أهل السنة التي لا مجال للطعن فيها ، و قد أخذنا على أنفسنا بأنها أصح الكتب بعد كتاب الله فيصبح الأمر ملزما و إلا استلزم الشك في هذه الصحاح و عند ذلك لا يبقى معنا من أحكام الإسلام شيء نعتمده ، لان الأحكام التي وردت في كتاب الله جاءت مجملة غير مفصلة ، و لأننا بعيدون عن عصر الرسالة و قد ورثنا أحكام ديننا أبا عن جد عن طريق هذه الصحاح ، فلا يمكن بحال من الأحوال طرح هذه الكتب .

و أخذت على نفسي عهدا و أنا أدخل هذا البحث الطويل العسير ، أن أعتمد الأحاديث الصحيحة التي اتفق عليها السنة و الشيعة ، و أن أطرح الأحاديث التي انفرد بها فريق دون الآخر ، بهذه الطريقة المعتدلة ، أكون قد ابتعدت عن المؤثرات العاطفية ، و التعصبات المذهبية و النزعات القومية أو الوطنية ، و في الوقت نفسه أقطع طريق الشك لأصل إلى حبل اليقين و هو صراط الله المستقيم .

بداية الدراسة المعمقة

الصحابة عند الشيعة و السنة

من أهم الأبحاث التي أعتبرها الحجر الأساسي في كل البحوث التي تقود إلى الحقيقة ، هو البحث في حياة الصحابة و شؤونهم و ما فعلوه و ما اعتقدوه لأنهم عماد كل شيء ، و عنهم أخذنا ديننا و بهم نستضيء في الظلمات لمعرفة أحكام الله ، و لقد سبق لعلماء الإسلام – لقناعتهم بذلك – البحث عنهم و عن سيرتهم .

فألفوا في ذلك كتبا عديدة أمثال : أُسد الغابة في تمييز الصحابة ، و كتاب الإصابة في معرفة الصحابة ، و كتاب ميزان الاعتدال و غيرها من الكتب التي تناولت حياة الصحابة بالنقد و التحليل و لكنها من وجهة نظر أهل السنة و الجماعة .

و ثمة إشكال يتلخص في أن العلماء الأوائل غالبا ما كانوا يكتبون و يؤرخون بالنحو الذي يوافق آراء الحكام من الأمويين و العباسيين الذين عرفوا بعدائهم لأهل البيت النبوي ، بل و لكل من يشايعهم و يتبع نهجهم ، و لهذا فليس من الإنصاف الاعتماد على أقوالهم دون أقوال غيرهم من علماء المسلمين الذين اضطهدتهم تلك الحكومات و شردتهم و قتلتهم لأنهم كانوا أتباع أهل البيت و كانوا مصدر تلك الثورات ضد السلطات الغاشمة و المنحرفة .

و المشكل الأساسي في كل ذلك هو الصحابة ، فهم الذين اختلفوا في أن يكتب لهم رسول الله ذلك الكتاب الذي يعصمهم من الضلالة إلى قيام الساعة و اختلافهم هذا هو الذي حرم الأمة الإسلامية من هذه الفضيلة و رماها في

الضلالة حتى انقسمت و تفرقت و تنازعت و فشلت و ذهبت ريحها .

و هم الذين اختلفوا في الخلافة فتوزعوا بين حزب حاكم و حزب معارض و سبب ذلك تخلف الأمة و انقسامها إلى شيعة علي و شيعة معاوية ، و هم الذين اختلفوا في تفسير كتاب الله و أحاديث رسوله فكانت المذاهب و الفرق و الملل و النحل ، و نشأت من ذلك المدارس الكلامية و الفكرية المختلفة و برزت فلسفات متنوعة أملتها دوافع سياسية محضة تتصل بطموحات الهيمنة على السلطة و الحكم ...

فالمسلمون لم ينقسموا و لم يختلفوا في شيء لولا الصحابة و كل خلاف نشأ و ينشأ إنما يعود إلى اختلافهم في الصحابة .

فالرب واحد و القرآن واحد و الرسول واحد و القبلة واحدة و هم متفقون على ذلك و بدأ الخلاف و الاختلاف في الصحابة من اليوم الأول بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه و آله) في سقيفة بني ساعدة ، و استمر إلى يوم الناس هذا و سيستمر إلى ما شاء الله .

و قد استنتجت من خلال الحديث مع علماء الشيعة أن الصحابة في نظرهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

فالقسم الأول و هم الصحابة الأخيار الذين عرفوا رسول الله حق المعرفة و بايعوه على الموت و صاحبوه بصدق في القول و بإخلاص في العمل ، و لم ينقلبوا بعده ، بل ثبتوا على العهد و قد امتدحهم الله جل جلاله ، في كتابه العزيز في العديد من المواقع ، و قد أثنى عليهم رسول الله في العديد من المواقع أيضا ، و الشيعة يذكرونهم باحترام و تقديس و يترضّون عليهم كما يذكرهم أهل السنة باحترام و تقديس أيضا .

و القسم الثاني ، و هم الصحابة الذين اعتنقوا الإسلام و اتبعوا رسول الله و لكنهم كانوا في بعض الأوقات لا يمتثلون لأوامره و نواهيه بل يجعلون لآرائهم

مجالا في مقابل النصوص الصريحة و الشيعة لا يذكرونهم إلا بأفعالهم بدون احترام و لا تقديس كالصنف الأول .

أما القسم الثالث من الصحابة : فهم المنافقون الذين صحبوا رسول الله للكيد له و قد أظهروا الإسلام و انطوت سرائرهم على الكفر و قد تقربوا ليكيدوا للإسلام و المسلمين عامة و قد أنزل الله فيهم سورة كاملة و ذكرهم في العديد من المواقع و توعدهم بالدرك الأسفل من النار و قد ذكرهم رسول الله (صلى الله عليه و آله) و حذر منهم و علم بعضا من أصحابه أسماءهم و علاماتهم ، و هؤلاء يتفق الشيعة و السنة على لعنهم و البراءة منهم .

و هناك قسم خاص و إن كانوا من الصحابة فهم يتميزون عليهم بالقرابة و بفضائل خلقية و نفسية و خصوصيات اختصهم الله و رسوله بها لا يلحقهم فيها لاحق ، و هؤلاء هم أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا [١] و أوجب الصلاة عليهم كما أوجبها على رسوله ، و أوجب لهم سهما من الخمس [٢] كما أوجب مودتهم على كل مسلم كأجر للرسالة المحمدية [٣] ، فهم أولوا الأمر الذين أمر بطاعتهم [٤] و هم الراسخون في العلم الذين يعلمون تأويل القرآن و يعلمون المتشابه منه و المحكم [٥] ، و هم أهل الذكر الذين قرنهم رسول الله بالقرآن في حديث الثقلين و أوجب التمسك بهما [٦] ، و جعلهم

---

[1] سورة الأحزاب (٣٣) ، الآية : ٣٣ .

[2] سورة الأنفال (٨) ، الآية : ٤١ .

[3] سورة الشورى (٤٢) ، الآية : ٢٣ .

[4] سورة النساء (٤) ، الآية : ٥٩ .

[5] سورة آل عمران (٣) ، الآية ٧ .

[6] حديث الثقلين ، و من مصادره ، كتر العمال ج ١ ص ٤٤ ، مسند أحمد ج ٥ ص ١٨٢.

كسفينة نوح من ركبها نجا و من تخلف عنها غرق [1] ، و الصحابة يعرفون قـــدر أهل البيت و يعظمونهم و يحترمونهم ، و الشيعة يقتدون بهم و يقدمونهم على كل الصحابة ، و لهم في ذلك أدلة من النصوص الصريحة .

[1] حديث السفينة ، المستدرك للحاكم ج ٣ ص ١٥١ تلخيص الذهبي ، الصواعق المحرقـــة لابن حجر ص ١٨٤ و ٢٣٤ .

أما أهل السنة و الجماعة فإنهم مع احترامهم لأهل البيت و تعظيمهم و تفضيلهم إلا أنهم لا يعترفون بهذا التقسيم للصحابة و لا يعدون المنافقين في الصحابة ، بل الصحابة في نظرهم خير الخلق بعد رسول الله .

و إذا كان هناك تقسيم فهو من باب فضيلة السبق للإسلام و البلاء الحسن فيه فيفضلون الخلفاء الراشدين بالدرجة الأولى ثم الستة الباقين من العشرة المبشرين بالجنة على ما يروونه .

و لذلك تراهم عندما يصلون على النبي و أهل بيته يلحقون بهم الصحابة أجمعين بدون استثناء .

هذا ما أعرفه من علماء أهل السنة و الجماعة ، و ذاك ما سمعته من علماء الشيعة في تقسيم الصحابة ، و هذا ما دعاني إلى أن أجعل بحثي يبدأ بهذه الدراسة المعمقة حول الصحابة و عاهدت ربي ـــ إن هداني ـــ أن أتجرد من العاطفة لأكون حياديا ، موضوعيا و لأسمع القول من الطرفين فأتبع أحسنه ، و مرجعي في ذلك :

١ – القاعدة المنطقية السليمة ، و هي أن لا أعتمد إلا ما اتفقوا عليه جميعا بشأن التفسير لكتاب الله و الصحيح من السنة النبوية الشريفة .

٢ – العقل ، فهو أكبر نعمة من نعم الله على الإنسان ، إذ به كرمه و فضله على سائر مخلوقاته ، ألا ترى أن الله سبحانه عندما يحتج على عباده يدعوهم للتعقل بقوله :

" أفلا يعقلون ، أفلا يفقهون ، أفلا يتدبرون ، أفلا يبصرون الخ ... " .

و ليكن إسلامي مبدئيا إيمانا بالله و ملائكته و كتبه و رسله و أن محمدا عبده و رسوله ، و أن الدين عند الله الإسلام ، و لا أعتمد في ذلك على أي واحد من الصحابة مهما كانت قرابته و مهما علت منزلته فأنا لست أمويا و لا

عباسيا و لا فاطميا ، و لا سنيا و لا شيعيا و ليست لي أي عداوة لأبي بكر و لا لعمر و لا لعثمان

و لا لعلي و لا حتى لوحشي قاتل سيدنا الحمزة مادام أنه أسلم و الإسلام يَجُبُّ ما قبله و قد عفا عنه رسول الله (صلى الله عليه و آله) .

و ما دمت أقحمت نفسي في هذا البحث بغية الوصول للحقيقة و ما دمت قد تجردت من كل الأفكار المسبقة بكل إخلاص فأنا أبدأ هذا البحث على بركة الله في مواقف الصحابة .

١ – الصحابة في صلح الحديبية

مجمل القصة ، أن رسول الله (صلى الله عليه و آله) خرج في السنة السادسة للهجرة يريد العمرة مع ألف و أربعمائة من أصحابه فأمرهم أن يضعوا سيوفهم في القرب ، و أحرم هو و أصحابه بذي الحليفة و قلدوا الهدي ليعلم قريشا أنه إنما جاء زائرا معتمرا و ليس محاربا ، و لكن قريشا بكبريائها خافت أن يسمع العرب بأن محمدا دخل عنوة إلى مكة و كسر شوكتها ، فبعثوا إليه بوفد يرأسه سهيل بن عمرو بن عبد ود العامري و طلبوا منه أن يرجع في هذه المرة من حيث أتى على أن يتركوا له مكة في العام القادم ثلاثة أيام ، و قد اشترطوا عليه شروطا قاسية قبلها رسول الله لاقتضاء المصلحة التي أوحى بها إليه ربه عَزَّ و جَلَّ .

و لكن بعض الصحابة لم يعجبهم هذا التصرف من النبي و عارضوه في ذلك معارضة شديدة و جاءه عمر بن الخطاب فقال : ألست نبي الله حقا ؟ قال : بلى ، قال عمر : ألسنا على الحق و عدونا على الباطل ؟ قال : بلى ، قال عمر : فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً ؟ قال رسول الله (صلى الله عليه و آله) : إني رسول الله و لست أعصيه و هو ناصري ، قال عمر : أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال : بلى ، أفأخبرتك أنا نأتيه العام ؟ قال عمر : لا ، قال : فإنك آتيه و مطوف به .

ثم أتى عمر بن الخطاب إلى أبي بكر فقال : يا أبا بكر أليس هذا نـــبي الله حقا ؟ قال : بلى . ثم سأله عمر نفس الأسئلة التي سألها رسول الله ، و أجابه أبو بكر بنفس الأجوبة قائلا له : أيها الرجل إنه لرسول الله و ليس يعصي ربه و هو

ناصره فاستمسك بغرزه ، و لما فرغ رسول الله من كتاب الصلح قال لأصحابه : قوموا فانحروا ثم أحلقوا ، فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مـــرات ، فلما لم يمتثل لأمره منهم أحد دخل خباءه ثم خرج فلم يكلم أحدا منهم بـــشيء حتى نحر بدنة بيده ، و دعا حالقه فحلق رأسه ، فلما رأى أصحابه ذلك قـــاموا فنحروا و جعل بعضهم يحلق بعضا ، حتى كاد بعضهم يقتل بعضا [1] . . .

هذه مجمل قصة الصلح في الحديبية و هي من الأحداث المتفق عليها عنـــد الشيعة و السنة و قد ذكرها المؤرخون و أصحاب السير كالطبري و ابن الأثير و ابن سعد و غيرهم كالبخاري و مسلم .

و أنا لي هنا وقفة ، فلا يمكن لي أن أقرأ مثل هذا و لا أتأثر و لا أعجـــب من تصرف هؤلاء الصحابة تجاه نبيهم ، و هل يقبل عاقل قـــول القـــائلين بـــأن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يمتثلون أوامر رسول الله (صلى الله عليه و آله) و ينفذونها ، فهذه الحادثة تقطع عليهم ما يرومون ، هل يتصور عاقل بأن هذا التـــصرف في مواجهة النبي هو أمر هين ، أو مقبول ، أو معذور ، قال تعالى :

{ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا } [2] .

فهل سلم عمر بن الخطاب هنا و لم يجد في نفسه حرجا مما قضى الرسول (صلى الله عليه و آله) ؟ ! أم كان في موقفه تردد في ما أمر النبي ؟ و خصوصا في قوله : أولست نبي الله حقا ؟ أولست كنت تحدثنا ؟ إلى آخره ، و هل سلم بعـــد مـــا

---

[1] هذه القصة أخرجها أصحاب السير و التواريخ كما أخرجها البخاري في صـــحيحه مـــن كتاب الشروط باب الشروط في الجهاد ج ٢ – ص ١٢٢ – صحيح مسلم في باب صلح الحديبية ج ٢ .

[2] سورة النساء (٤) ، الآية : ٦٥ .

أجابه رسول الله بتلك الأجوبة المقنعة ؟ كلا لم يقتنع بجوابه و ذهب يسأل أبا بكر الأسئلة نفسها ، و هل سلم بعد ما أجابه أبو بكر و نصحه أن يلزم غرز النبي ، لا أدري إذا كان سلم بذلك ، أو اقتنع بجواب النبي أو بجواب أبي بكر ! ! و إلا لماذا تراه يقول عن

نفسه : " فعملت لذلك أعمالا . . و لا أدري سبب تخلف البقية الباقية من الحاضرين بعد ذلك إذ قال لهم رسول الله : قوموا فانحروا ثم أحلقوا ، فلم يستمع إلى أمره أحد منهم حتى كررها عليهم ثلاث مرات بدون جدوى .

سبحان الله ! أنا لا أكاد أصدق ما أقرأ ، و هل يصل الأمر بالصحابة إلى هذا الحد في التعامل مع أمر الرسول ، و لو كانت هذه القصة مروية من طريق الشيعة وحدهم لعددت ما قالوا افتراء على الصحابة الكرام ، و لكن القصة بلغت من الصحة و الشهرة أن تناقلها كل المحدثين من أهل السنة و الجماعة أيضا ، و بما أنني ألزمت نفسي توثيق ما اتفقوا عليه ، فلا أراني إلا مسلما و متحيرا : ماذا عساني أن أقول ؟ و بم أعتذر عن هؤلاء الصحابة الذين قضوا مع رسول الله قرابة عشرين عاما من البعثة إلى يوم الحديبية ، و هم يشاهدون المعجزات و أنوار النبوة ، و القرآن يعلمهم ليلا نهارا كيف يتأدبون مع حضرة الرسول و كيف يكلموه ، حتى هددهم الله بإحباط أعمالهم إن رفعوا أصواتهم فوق صوته .

و يدفعني إلى الاحتمال بأن عمر بن الخطاب هو الذي أثار بقية الحاضرين و دفعهم إلى التردد و التخلف عن أمر الرسول – زيادة على اعترافه بأنه عمل لذلك أعمالا لم يشأ ذكرها – ما يردده هو في موارد أخرى قائلا : ما زلت أصوم و أتصدق و أصلي و أعتق مخافة كلامي الذي تكلمت به .. إلى آخر ما هو مأثور عنه في هذه القضية [1] ...

مما يشعرنا بأن عمر نفسه كان يدرك بعد الموقف الذي وقفه ذلك اليوم إنها قصة عجيبة و غريبة و لكنها حقيقية . .

٢ – الصحابة و رزية يوم الخميس

---

[1] السيرة الحلبية باب صلح الحديبية ج ٢ – ص ٧٠٦ .

و مجمل القصة أن الصحابة كانوا مجتمعين في بيت رسول الله قبل وفاتـــه بثلاثة أيام ، فأمرهم أن يحضروا له الكتف و الدواة ليكتب لهم كتابا يعـــصمهم من

الضلالة ، و لكن الصحابة اختلفوا و منهم من عصى أمره و اتهمه بالهجر ، فغضب رسول الله و أخرجهم من بيته دون أن يكتب لهم شيئا ، و إليك شيئا من التفصيل :

قال ابن عباس : يوم الخميس و ما يوم الخميس اشتد برسول الله وجعه ، فقال : هلم أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده ، فقال عمر إن النبي قد غلبه الوجع ، و عندكم القرآن حسبنا كتاب الله ، فاختلف أهل البيت و اختصموا ، منهم من يقول قربوا يكتب لكم النبي كتابا لا تضلوا بعده ، و منهم من يقول ما قال عمر ، فلما أكثروا اللغو و الاختلاف عند النبي ، قال لهم رسول الله (صلى الله عليه و آله) ، قوموا عني ، فكان ابن عباس يقول : إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله و بين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم [1] و لغطهم . هذه الحادثة صحيحة لا شك فيها ، فقد نقلها علماء الشيعة و محدثوهم في كتبهم ، كما نقلها علماء السنة و محدثوهم و مؤرخوهم ، و هي ملزمة لي على ما ألزمت به نفسي و من هنا أقف حائرا في تفسير الموقف الذي وقفه عمر بن الخطاب من أمر رسول الله ، و أي أمر هو ؟ أمر " عاصم من الضلالة لهذه الأمة ، و لا شك أن هذا الكتاب كان فيه شيء جديد للمسلمين سوف يقطع عليهم كل شك " .

و لنترك قول الشيعة : " بأن رسول أراد أن يكتب إسم علي خليفة له ، و تفطن عمر لذلك فمنعه " .

---

[1] صحيح البخاري ج ٣ باب قول المريض : قوموا عني .
صحيح مسلم ج ٥ ص ٧٥ في آخر كتاب الوصية .
مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٣٥٥ و ج ٥ ص ١١٦ .
تاريخ الطبري ج ٣ ص ١٩٣ – تاريخ ابن الأثير ج ٢ – ص ٣٢٠ .

فلعلهم لا يقنعوننا بهذا الزعم الذي لا يرضينا مبدئيا ، و لكن هـــل نجـــد تفسيرا معقولا لهذه الحادثة المؤلمة التي أغضبت الرسول حتى طردهم و جعلت ابن عباس يبكي حتى يبل دمعه الحصى و يسميها أكبر رزية ، أهل السنة يقولون بأن عمر أحس بشدة مرض النبي فأشفق عليه و أراد أن يريحه ، و هـــذا التعليـــل لا يقبله

بسطاء العقول فضلا عن العلماء ، و قد حاولت مرارا و تكرارا التماس بعض الأعذار لعمر و لكن واقع الحادثة يأبى علي ذلك ، و حتى لو أبدلت كلمة يهجر " و العياذ بالله " بلفظة " غلبه الوجع " فسوف لن نجد مبررا لقول عمر : " عندكم القرآن " " و حسبنا كتاب الله " ، أو كان هو أعلم بالقرآن من رسول الله الذي أنزل عليه ، أم أن رسول الله لا يعي ما يقول " حاشاه " أم أنه أراد بأمره ذلك أن يبعث فيهم الاختلاف و الفرقة " أستغفر الله " .

ثم لو كان تعليل أهل السنة صحيحا ، فلم يكن ذلك ليخفى على الرسول و لا يجهل حسن نية عمر ، و لشكره رسول الله على ذلك و قربه بدلا من أن يغضب عليه و يقول أخرجوا عني .

و هل لي أن أتسأل لماذا امتثلوا أمره عندما طردهم من الحجرة النبوية ، و لم يقولوا بأنه يهجر ؟ أ لأنهم نجحوا بمخططهم في منع الرسول من الكتابة ، فلا داعي بعد ذلك لبقائهم ، و الدليل أنهم أكثروا اللغط و الاختلاف بحضرته (صلى الله عليه و آله) ، و انقسموا إلى حزبين منهم من يقول : قربوا إلى رسول الله يكتب لكم ذلك الكتاب و منهم من يقول ما قال عمر أي إنه " يهجر " .

و الأمر لم يعد بتلك البساطة يتعلق بشخص عمر وحده و لو كان كذلك لأسكته رسول الله و أقنعه بأنه لا ينطق عن الهوى و لا يمكن أن يغلب عليه الوجع في هداية الأمة و عدم ضلالتها و لكن الأمر استفحل و استشرى و وجد له أنصارا كأنهم متفقون مسبقا ، و لذلك أكثروا اللغط و الاختلاف و نسوا أو تناسوا قول الله تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ

النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ } [1] .

و في هذه الحادثة تعدوا حدود رفع الأصوات و الجهر بالقول إلى رميه (صلى الله عليه و آله) بالهجر و الهذيان " و العياذ بالله " ثم أكثروا اللغط و الاختلاف و صارت معركة كلامية بحضرته .

[1] سورة الحجرات (٤٩) ، الآية : ٢ .

و أكاد أعتقد بأن الأكثرية الساحقة كانت على قول عمر و لـــذلك رأى رسول الله (صلى الله عليه و آله) عدم الجدوى في كتابة الكتاب لأنـــه علـــم بـــأنهم لم يحترموه و لم يمتثلوا لأمر الله فيه في عدم رفع أصواتهم بحضرته ، و إذا كانوا لأمر الله عاصين فلن يكونوا لأمر رسوله طائعين .

و اقتضت حكمة الرسول بأن لا يكتب لهم ذلك الكتاب لأنه طعن فيـــه في حياته ، فكيف يعمل بما فيه بعد وفاته ، و سيقول الطاعنون : بأنه هجر مـــن القول و لربما سيشككون في بعض الأحكام التي عقدها رســـول الله في مـــرض موته .

إذ أن اعتقادهم بهجره ثابت .

أستغفر الله ، و أتوب إليه من هذا القول في حضرة الرسول الأكـــرم ، و كيف لي أن أقنع نفسي و ضميري الحر بأن عمر بن الخطاب كان عفويا في حين أن أصحابه و من حضروا محضره بكوا لما حصل حتى بل دمعهم الحصى و سموها رزية المسلمين .

و لهذا فقد خلصت إلى أن أرفض كل التعليلات التي قدمت لتبرير ذلك ، و لقد حاولت أن أنكر هذه الحادثة و أكذبها لأستريح من مأســـاتها ، و لكـــن كتب الصحاح نقلتها و أثبتتها و صححتها و لم تحسن تبريرها .

و أكاد أميل إلى رأي الشيعة في تفسير هذا الحدث لأنه تعليل منطقي و له قرائن عديدة .

و إني لا زلت أذكر إجابة السيد محمد باقر الصدر عندما سألته : كيـــف فهم سيدنا عمر من بين الصحابة ما يريد الرسول كتابته و هو استخلاف علـــي ـــ على حد زعمكم ـــ ، فهذا ذكاء منه .

قال السيد الصدر : لم يكن عمر وحده فهم مقصد الرسول ، و لكن أكثر الحاضرين فهموا ما فهمه عمر ، لأنه سبق لرسول الله (صلى الله عليه و آله) أن قال مثل هذا إذ قال لهم إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله و عترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبدا ، و في مرضه قال لهم : هلم أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده

أبدا ، ففهم الحاضرون و من بينهم عمر أن رسول الله يريد أن يؤكد ما ذكره في غدير خم كتابيا ، و هو التمسك بكتاب الله و عترته ، و سيد العترة هو علي ، فكأنه (صلى الله عليه و آله) أراد أن يقول : عليكم بالقرآن و علي ، و قد قال مثل ذلك في مناسبات أخرى كما ذكر المحدثون .

و كان أغلبية قريش لا يرضون بعلي لأنه أصغر القوم و لأنه حطم كبرياءهم و هشم أنوفهم و قتل أبطالهم ، و لكنهم لا يجرؤون على رسول الله مثل عمر فقد كان جريئا على النحو الذي حصل في صلح الحديبية و في المعارضة الشديدة للنبي عندما صلى على عبد الله بن أُبي ، المنافق ، و في عدة مواقف أخرى سجلها التاريخ ، و هذا الموقف منها ، و أنت ترى أن المعارضة لكتابة الكتاب في مرض النبي شجعت بعض الآخرين من الحاضرين على الجرأة و من ثم الإكثار من اللغط في حضرة الرسول (صلى الله عليه و آله) .

إن هذه المقولة : جاءت ردا مطابقا تماما لمقصود الحديث ، فمقولة : عندكم القرآن ، حسبنا كتاب الله مخالفة لمحتوى الحديث الذي يأمرهم بالتمسك بكتاب الله و بالعترة معا ، فكأن المقصود هو : حسبنا كتاب الله فهو يكفينا ، و لا حاجة لنا بالعترة .

و ليس هناك تفسير معقول غير هذا ، ـــ بالنسبة إلى هذه الحادثة ـــ اللهم إلا إذا كان المراد هو القول بإطاعة الله دون إطاعة رسوله ، و هذا أيضا باطل و غير معقول . . .

و أنا إذا طرحت التعصب الأعمى و العاطفة الجامحة و حكمت العقل السليم و الفكر الحر لَمَلْتُ إلى هذا التحليل و ذلك أهون من اتهام عمر بأنه أول من رفض السنة النبوية بقوله : " حسبنا كتاب الله " .

و إذا كان بعض الحكام قد رفض السنة النبوية بدعوى أنها متناقضة ، فإنه اتبع في ذلك سابقة تاريخية في حياة المسلمين .

و إني لأعجب لمن يقرأ هذه الحادثة و يمر بها و كان شيئا لم يكن ، مع أنها من أكبر الرزايا كما سماها ابن عباس ، و عجبي أكبر من الذين يحاولون جهدهم

الحفاظ على كرامة صحابي و تصحيح خطئه و لو كان ذلك على حساب كرامة رسول الله و على حساب الإسلام و مبادئه .

و لماذا نهرب من الحقيقة و نحاول طمسها عندما لا تتماشى مع أهوائنا ، لماذا لا نعترف بأن الصحابة بشر مثلنا ، لهم أهواء و ميول و يخطئون و يصيبون .

و لا يزول عجبي إلا عندما أقرأ كتاب الله و هو يروي لنا قصص الأنبياء عليهم الصلاة و السلام ، و ما لاقوه من شعوبهم في المعاندة رغم ما يشاهدونه من معجزات . . (رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ) .

و هكذا أصبحت أدرك خلفية موقف الشيعة من بعض الصحابة الذين يحملونهم مسؤولية الكثير من المآسي التي وقعت في حياة المسلمين منذ رزية يوم الخميس التي حرمت الأمة من كتاب الهداية الذي أراد الرسول (صلى الله عليه و آله) أن يكتبه لهم .

٣ – الصحابة في سرية أسامة

مجمل هذه القصة : أنه (صلى الله عليه و آله) ، جهز جيشا لغزو الروم قبل وفاته بيومين ، و أمر على هذه السرية أسامة بن زيد بن حارثة و عمره ثمانية عشر عاما ، و قد عبأ (صلى الله عليه و آله) في هذه السرية وجوه المهاجرين و الأنصار كأبي بكر و عمر و أبي عبيدة و غيرهم من كبار الصحابة المشهورين فطعن قوم منهم في تأمير أسامة ، و قالوا : كيف يؤمر علينا شاب لا نبات بعارضيه ، و قد طعنوا من قبل في تأمير أبيه ، و قد قالوا في ذلك و أكثروا النقد ، حتى غضب (صلى الله عليه و آله) غضبا شديدا مما سمع من طعنهم و انتقادهم ، فخرج (صلى الله عليه و آله) معصب

الرأس محموما ، يتهادى بين رجلين و رجلاه تخطان في الأرض بأبي هو و أمي ، من شدة ما به من لغوب ، فصعد المنبر فحمد الله و أثنى عليه ثم قال :

" أيها الناس ما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأمير أسامة ، و لئن طعنتم في تأميري أسامة فقد طعنتم في تأميري أبيه من قبله ، و أيم الله إنه كان خليقا

بالإمارة ، و إن ابنه من بعده لخليق بها . . " [١] .

ثم جعل (صلى الله عليه و آله) يحضهم على التعجيل و جعل يقول : جهزوا جيش أسامة ، أنفذوا جيش أسامة أرسلوا بعث أسامة ، يكرر ذلك على مسامعهم و هم متثاقلون و عسكروا بالجرف و ما كادوا يفعلون .

إن مثل ذلك يدفعني إلى أن أتسأل : ما هذه الجرأة على الله و رسوله ؟ ! ، و ما هذا العقوق في حق الرسول الأكرم الذي هو حريص عليهم بالمؤمنين رؤوف رحيم ؟ لم أكن أتصور كما لا يمكن لأحد أن يتصور تفسيرا مقبولا لهذا العصيان ، و هذه الجرأة .

و كالعادة ، عند قراءة مثل هذه الأحداث التي تمس كرامة الصحابة من قريب أو بعيد أحاول تكذيب مثل هذه القضايا و تجاهلها ، و لكن لا يمكن تكذيب ما أجمع عليه المؤرخون و المحدثون من علماء السنة و الشيعة ، و تجاهل ذلك .

و قد عاهدت ربي أن أكون منصفا ، فلا أتعصب لمذهبي و لا أقيم وزنا لغير الحق ، و الحق هنا مُرٌّ كما يقال ، و قد قال عليه الصلاة و السلام : " قل الحق و لو كان على نفسك و قل الحق و لو كان مُرّا . . . " و الحق في هذه القضية : هو أن هؤلاء الصحابة الذين طعنوا في تأمير أسامة قد خالفوا أمر ربهم و خالفوا الصريح من النصوص التي لا تقبل الشك و لا تقبل التأويل ، و ليس لهم عذر في ذلك ، إلا ما يلتمسه البعض من أعذار باردة حفاظا على كرامة الصحابة و " السلف الصالح " و العاقل الحر لا يقبل بحال من الأحوال هذه

---

[١] طبقات ابن سعد ج ٢ – ص ١٩٠ – تاريخ ابن الأثير ج ٢ – ص ٣١٧.
السيرة الحلبية ج ٣ – ص ٢٠٧ – تاريخ الطبري ج ٣ – ص ٢٢٦ .

التمحلات . اللهمّ إلا إذا كان من الذين لا يفقهون حديثا ، و لا يعقلـــون ، أو من الذين أعمت العصبية أعينهم فلم يعودوا يفرقون بين الفرض الواجب طاعته و النهي الواجب تركه ، و لقد فكرت مليا عساني أجد عذرا لهؤلاء مقبولا ، فلـــم يسعفني تفكيري بطائل ، و قرأت اعتذار أهل السنة على هؤلاء بـــأنهم كـــانوا مشايخ قريش و كبراءها ، و لهم

الأسبقية في الإسلام بينما أسامة كان حدثا و لم يشارك في المعارك المصيرية لعزة الإسلام ، كمعركة بدر و أحد و حنين ، و لم تكن له سابقة بل كان صغير السن عندما ولاه رسول الله إمارة السرية ، و طبيعة النفوس البشرية تأبى بجبلتها إذا كانت بين كهول و شيوخ أن تنقاد إلى الأحداث و تنفر بطبعها من النزول على حكم الشبان و لذلك طعنوا في تأميره و أرادوا منه (صلى الله عليه و آله) أن يستبدله بأحد من وجوه الصحابة و كبرائهم .

إنه اعتذار لا يستند إلى دليل عقلي و لا شرعي و لا يمكن لأي مسلم قرأ القرآن و عرف أحكامه إلا أن يرفض مثل هذا ، لان الله عَزَّ و جَلَّ يقول :

{ ... وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ... } [1] ،

{ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا } [2] .

فأي عذر بعد هذه النصوص الصريحة يقبله العاقلون و ماذا عساني أن أقول في قوم أغضبوا رسول الله و هم يعلمون أن غضب الله في غضبه ، و ذلك بعد أن رموه بالهجر و قالوا بحضرته ما قالوا و أكثروا اللغط و الاختلاف و هو مريض ، بأبي هو و أمي ، حتى أخرجهم من حجرته ، أو لم يكفهم كل هذا ، و بدلا من أن يثوبوا إلى رشدهم و يتوبوا إلى الله و يستغفروه مما فعلوا و يطلبوا من الرسول أن يستغفر لهم كما علمهم القرآن ، عوضا عن ذلك فقد زادوا في الطين بلة كما يقول المثل الشعبي عندنا ، فطعنوا في تأميره أسامة بعد يومين من رميه بالهجر و الجرح لما يندمل ، حتى أجبروه أن يخرج (صلى الله عليه و آله) بتلك الحالة التي

---

[1] سورة الحشر (٥٩) ، الآية : ٧ .

[2] سورة الأحزاب (٣٣) ، الآية : ٣٦ .

وصفها المؤرخون ، لا يقدر على المشي من شدة المرض و هو يتهادى بين رجلين ، ثم يقسم بالله بأن أسامة خليق بالإمارة ، و يزيدنا الرسول بأنهم هم أنفسهم الذين طعنوا في تأميره زيد بن حارثة من قبل ليعلمنا أن هؤلاء لهم معه مواقف سابقة متعددة و سوابق شاهدة على أنهم لم يكونوا من الذين لا يجدون في أنفسهم حرجا مما قضى و يسلمون تسليما ،

بل كانوا من الذين جعلوا لأنفسهم حق النقد و المعارضة حتى و لو خالفوا بذلك أحكام الله و رسوله .

و مما يدلنا على المعارضة الصريحة ، أنهم رغم ما شاهدوه من غضب رسول الله و من عقد اللواء له بيده الشريفة و الأمر لهم بالإسراع و التعجيل ، تثاقلوا و تباطأوا ، و لم يذهبوا حتى توفي بأبي هو و أمي و في قلبه حسرة على أمته المنكوبة التي سوف تنقلب على أعقابها و تهوى في النار و لا ينجو منها إلا القليل الذي شبهه رسول الله بهمل النعم .

و إذا أردنا أن نتمعن في هذه القضية فإننا سنجد الخليفة الثاني من أبرز عناصرها إذ أنه هو الذي جاء بعد وفاة رسول الله إلى الخليفة أبي بكر و طلب منه أن يعزل أسامة و يبدله بغيره فقال له أبو بكر : ثكلتك أمك يا ابن الخطاب ! أتأمرني أن أعزله و قد ولاه رسول الله [١] .

فأين هو عمر من هذه الحقيقة التي أدركها أبو بكر ، أم أن في الأمر سراً آخر خفي عن المؤرخين ، أم أنهم هم الذين أسروه حفاظاً على كرامته كما هي عادتهم و كما أبدلوا عبارة " يهجر " بلفظ " غلبه الوجع " .

عجبي من هؤلاء الصحابة الذين أغضبوه يوم الخميس و اتهموه بالهجر و الهذيان و قالوا حسبنا كتاب الله ، و كتاب الله يقول لهم في محكم آياته :

{ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ ... } [٢] .

و كأنهم هم أعلم بكتاب الله و أحكامه من الذي أنزل عليه و ها هم بعد يومين فقط من تلك الرزية المؤلمة و قبل يومين فقط من لحوقه بالرفيق الأعلى

---

[1] الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٢ – ص ١٩٠ – تاريخ الطبري ج ٣ – ص ٢٢٦ .

[2] سورة آل عمران (٣) ، الآية : ٣١ .

يغضبونه أكثر فيطعنون في تأميره و لا يطيعون أمره ، و إذا كان في الرزية الأولى مريضا طريح الفراش ، فقد اضطر في الثانية أن يخرج معصب الرأس مدثراً بقطيفة يتهادى بين رجلين و رجلاه تخطان في الأرض و خطب فيهم خطبة كاملة من

فوق المنبر بدأها بتوحيد الله و الثناء عليه ليشعرهم بذلك بأنه بعيد عن الهجر ثم أعلمهم بما عرفه من طعنهم ، ثم ذكرهم بقضية أخرى طعنوا فيها من قبل أربع سنوات خلت ، أ فهل يعتقدون بعد ذلك بأنه يهجر أو أنه غلبه الوجع لدرجة أنه لم يعد يعي ما يقول ؟ .

سبحانك اللهم و بحمدك كيف يجرؤ هؤلاء على رسولك فلا يرضون بالعقد الذي أبرمه ، و يعارضونه بشدة حتى يأمرهم بالنحر و الحلق ثلاث مرات فلا يستجيب منهم أحد ، و مرة أخرى يجذبونه من قميصه و يمنعونه من الصلاة على عبد الله بن أُبي و يقولون له : إن الله قد نهاك أن تصلي على المنافقين ! و كأنهم يعلمونه ما نزل إليه في حين أنك قلت في قرآنك : { وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ... } [١] .

و قلت أيضا : { إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ ... } [٢] .

و قلت و قولك الحق : { كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ } [٣] .

عجبا لهؤلاء القوم ! فمرة لا يمتثلون لأمره و مرة يتهمونه بالهجر و يكثرون اللغط بحضرته في غير احترام و لا أدب ، و أخرى يطعنون في تأميره زيد بن حارثة و من بعده في تأمير ابنه أسامة بن زيد فكيف يبقى بعد كل هذا شك

---

[1] سورة النحل (١٦) ، الآية : ٤٤ .

[2] سورة النساء (٤) ، الآية : ١٠٥ .

[3] سورة البقرة (٢) ، الآية : ١٥١ .

عند الباحثين من أن الشيعة على حق عندما يحيطون مواقف بعض الصحابة بعلامات الاستفهام و يمتعضون منها احتراما و حبا و مودة لصاحب الرسالة و أهل بيته .

على أني لم أذكر من المخالفات غير أربع أو خمس و ذلك للاختصار و لتكون أمثلة فقط ، و لكن علماء الشيعة قد أحصوا مئات الموارد التي خالف فيها الصحابة

النصوص الصريحة و لم يستدلوا إلا بما أخرجه علماء السنة في صحاحهم و مسانيدهم .

و إني عندما أستعرض بعض المواقف التي وقفها بعض الصحابة من رسول الله أبقى حائرا مدهوشا ، لا من تصرفات هؤلاء الصحابة فحسب و لكن من موقف علماء السنة و الجماعة الذين يصورون لنا الصحابة دوما على حق لا يمكن التعرض لهم بأي نقد ، و بذلك يمنعون الباحث من الوصول إلى الحقيقة و يبقى يتخبط في التناقضات الفكرية .

و زيادة على ما سبق أسوق بعض الأمثلة التي تعطينا صورة حقيقية على هؤلاء الصحابة و نفهم بذلك موقف الشيعة منهم :

أخرج البخاري في صحيحه ج ٤ ص ٤٧ في باب الصبر على الأذى و قول الله تعالى : { إنما يوفى الصابرون أجرهم } من كتاب الأدب ، قال : حدثنا الأعمش قال سمعت شقيقا يقول قال عبد الله : قسم النبي (صلى الله عليه و آله) قسمة كبعض ما كان يقسم فقال رجل من الأنصار و الله إنها لقسمة ما أريد بها وجه الله ، قلت أما أني لأقولن للنبي (صلى الله عليه و آله) فأتيته و هو في أصحابه فساورته فشق ذلك على النبي و تغير وجهه و غضب حتى وددت أني لم أكن أخبرته ثم قال : قد أوذي موسى بأكثر من ذلك فصبر .

كما أخرج البخاري في الكتاب نفسه أعني كتاب الأدب في باب التبسم و الضحك .

قال حدثنا أنس بن مالك قال كنت أمشي مع رسول الله (صلى الله عليه و آله) و عليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجبذ بردائه جبذة شديدة قال أنس فنظرت إلى صفحة عاتق النبي (صلى الله عليه و آله) و قد أثرت بها حاشية الرداء من

شدة جبذته ، ثم قال : يا محمد مر لي من مال الله الذي عنـــدك فالتفـــت إليـــه فضحك ثم أمر له بعطاء .

كما أخرج البخاري في كتاب الأدب في باب من لم يواجه الناس بالعتاب قال : قالت عائشة صنع النبي (صلى الله عليه و آله) شيئا فرخص فيه ، فتنزه عنـــه قـــوم فبلغ ذلك

النبي (صلى الله عليه و آلـه) فخطب فحمد الله ثم قال : ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه فوالله أني لأعلمهم بالله و أشدهم له خشية ... ! .

و لعمري إن الذين يعتقدون أن رسول الله (صلى الله عليه و آلـه) يميل به الهوى و يحيد به عن طريق الحق فيقسم قسمة لا يريد بها وجه الله و إنما تبعا لهواه و عاطفته ، و الذين يتنزهون عن أشياء يصنعها رسول الله اعتقادا منهم بأنهم أتقى لله و أعلم به من رسوله ، فهؤلاء ليسوا جديرين بذلك التقديس حيث يتزلهم البعض منزلة الملائكة فيحكمون بأنهم أفضل الخلق بعد رسول الله و أن المسلمين مدعوون لإتباعهم و الإقتداء بهم و السير على سنتهم لا لشيء إلا لأنهم صحابة رسول الله و هذا يتناقض مع أهل السنة و الجماعة الذين لا يصلون على محمد و آله إلا و يضيفون إليهم الصحابة أجمعين و إذا كان الله سبحانه و تعالى قد عرف قدرهم و أنزلهم منزلتهم فأمرهم بأن يصلوا على رسوله و أهل بيته الطاهرين لَيّاً لأعناقهم ليخضعوا و يعرفوا مكانة هؤلاء عند الله فلماذا نجعلهم نحن في منزلة فوق منزلتهم و نسويهم بمن رفع الله قدرهم و فضلهم على العالمين .

و دعني أستنتج بأن الأمويين و العباسيين الذين ناصبوا أهل البيت النبوي العداء فأبعدوهم و شردوهم و قتلوهم و أتباعهم و شيعتهم ، تفطنوا لما في هذه المزية من الفضل العميم و الخطر الجسيم ، فإذا كان الله سبحانه لا يقبل صلاة مسلم إلا إذا صلى عليهم ، فبماذا يبررون عداءهم و انحرافهم عن أهل البيت ، و لذلك تراهم ألحقوا الصحابة بأهل البيت ليموهوا على الناس بأن أهل البيت و الصحابة في الفضل سواء .

و خصوصا إذا عرفنا أن ساداتهم و كبراءهم هم بعض الصحابة الذين استأجروا ضعفاء العقول ممن صحبوا رسول الله أو من التابعين ليرووا الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة و بالأخص في من اعتلوا منصة الخلافة و كانوا

سببا مباشرا في وصولهم – أي الأمويين و العباسيين – إلى الحكم و الـــتحكم في رقاب المسلمين و التاريخ خير شاهد على ما أقول ، إذ أن عمر بن الخطاب الذي اشتهر بمحاسبة ولاته و عزلهم لمجرد شبهة نراه يلين مع معاوية بن أبي سفيان و لا يحاسبه قط و قد ولاه أبو بكر و أقره عمر طيلة حياته و لم يعترض عليـــه حـــتى بالعتاب

و اللوم ، رغم كثرة الساعين الذين يشتكون من معاوية و يقولون له إن معاوية يلبس الذهب و الحرير اللذين حرمهما رسول الله على الرجال ، فكان عمر يجيبهم : " دعوه فإنه كسرى العرب " و استمر معاوية في الولاية أكثر من عشرين عاما لم يتعرض له أحد بالنقد و لا بالعزل و لما ولي عثمان خلافة المسلمين أضاف إليه ولايات أخرى مكنته من الاستيلاء على الثروة الإسلامية و تعبئة الجيوش و أوباش العرب للقيام بالثورة على إمام الأمة و الاستيلاء على الحكم بالقوة و الغصب و التحكم في رقاب المسلمين و إرغامهم بالقوة و القهر على بيعة ابنه الفاسق شارب الخمر يزيد و هذه قصة أخرى طويلة لست بصدد تفصيلها في هذا الكتاب و المهم هو أن أعرف نفسيات هؤلاء الصحابة الذين اعتلوا منصة الخلافة و مهدوا لقيام الدولة الأموية بصفة مباشرة نزولا على حكم قريش التي تأبى أن تكون النبوة و الخلافة في بني هاشم [١] .

و للدولة الأموية الحق بل من واجبها أن تشكر أولئك الذين مهدوا لها ، و أقل الشكر أن تستأجروا رواة مأجورين يروون في فضائل أسيادهم ما تسير به الركبان و في نفس الوقت يرفعون هؤلاء فوق مترلة خصومهم أهل البيت ، باختلاق الفضائل و المزايا التي يشهد الله أنها إذا ما بحثت تحت ضوء الأدلة الشرعية و العقلية و المنطقية ، فلن يبقى منها شيء يذكر ، اللهم إلا إذا أصاب عقولنا مس و آمنا بالتناقضات .

---

[١] للتفصيل إقرأ :

الخلافة و الملك : أبو الأعلى المحمودي .

يوم الإسلام : أحمد أمين .

و على سبيل المثال لا الحصر ، فإننا نسمع الكثير عن عدل عمـــر الـــذي سارت به الركبان حتى قيل " عدلت فنمت " و قيل دفن عمر واقفا لئلا يمـــوت العدل معه و في عدل عمر حدث و لا حرج ، و لكن التاريخ الصحيح يحـــدثنا بأن عمر حين فرض العطاء في سنة عشرين للهجرة لم يتوخ سنة رسول الله و لم يتقيد بها ، فقد ساوى النبي (صلى الله عليه و آلـه) بين جميع المسلمين في العطـــاء فلـــم يفضل أحدا على

أحد ، و اتبعه في ذلك أبو بكر مدة خلافته ، و لكن عمر بن الخطاب اخترع طريقة جديدة و فضل السابقين على غيرهم و فضل المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين ، و فضل المهاجرين كافة على الأنصار كافة ، و فضل العرب على سائر العجم ، و فضل الصريح على المولى [١] و فضل مضر على ربيعة ، ففرض لمضر ثلاثمائة و لربيعة مائتين [٢] و فضل الأوس على الخزرج [٣] .

فأين هذا التفضيل من سنة رسول الله ؟ و نسمع عن علم عمر بن الخطاب الكثير الذي لا حصر له حتى قيل أنه أعلم الصحابة و قيل أنه وافق ربه في كثير من آرائه التي يترل القرآن بتأييدها في العديد من الآيات التي يختلف فيها عمر و النبي (صلى الله عليه و آله) .

و لكن الصحيح من التاريخ يدلنا على أن عمر لم يوافق القرآن حتى بعد نزوله ، عندما سأله أحد الصحابة أيام خلافته فقال : يا أمير المؤمنين أني أجنبت فلم أجد الماء فقال له عمر : لا تصل و اضطر عمار بن ياسر أن يذكره بالتيمم و لكن عمر لم يقنع بذلك و قال لعمار : إنا نحملك ما تحملت [٤] .

فأين عمر من آية التيمم المترلة في كتاب الله و أين علمه من سنة النبي (صلى الله عليه و آله) الذي علمهم كيفية التيمم كما علمهم الوضوء ، و عمر نفسه يعترف في العديد من القضايا بأنه ليس بعالم ، بل بأن كل الناس أفقه منه حتى ربات الحجال و بقوله عدة مرات ، لولا علي لهلك عمر ، و لقد أدركه الأجل و مات

---

[1] شرح ابن أبي الحديد ج ٨ – ص ١١١ .

[2] تاريخ اليعقوبي ج ٢ – ص ١٠٦ .

[3] فتوح البلدان ص ٤٣٧ .

[4] صحيح البخاري – ج ١ – ص ٥٢ .

و لم يعرف حكم الكلالة التي حكم فيها بأحكام متعددة و مختلفة كما يشهد بذلك التاريخ .

كذلك نسمع عن بطولة عمر و شجاعته و قوته الشيء الكثير حتى قيل إن قريش خافت عندما أسلم عمر ، و قويت شوكة المسلمين بإسلامه ، و قيل إن الله أعز الإسلام بعمر بن الخطاب و قيل إن رسول الله لم يجهر بدعوته إلا بعد إسلام

عمر ، و لكن التاريخ الثابت الصحيح ، لا يوقفنا على شيء من هذه البطولة و الشجاعة ، و لا يعرف التاريخ رجلا واحدا من المشاهير أو حتى من العاديين الذين قتلهم عمر بن الخطاب في مبارزة أو في معركة كبدر و أحد و الخندق و غيرها ، بل العكس هو الصحيح فالتاريخ يحدثنا أنه هرب مع الهاربين في معركة أحد و كذلك هرب يوم حنين ، و بعثه رسول الله لفتح مدينة خيبر فرجع مهزوما ، و حتى السرايا التي شارك فيها كان تابعا غير متبوع ، و آخرها سرية أسامة التي كان فيها مأمورا تحت قيادة الشاب أسامة بن زيد .

فأين دعوى البطولات و الشجاعة من هذه الحقائق . . ؟ و نسمع عن تقوى عمر بن الخطاب و مخافته و بكائه من خشية الله الشيء الكثير ، حتى قيل إنه كان يخاف أن يحاسبه الله لو عثرت بغلة في العراق لأنه لم يعبد لها الطريق ، و لكن التاريخ الثابت الصحيح يحدثنا بأنه كان فظا غليظا لا يتورع و لا يخاف فيضرب من يسأله عن آية من كتاب الله حتى يدميه بدون ذنب اقترفه ، بل و تسقط المرأة حملها لمجرد رؤيته هيبة و مخافة منه ، و لماذا لم يتورع مخافة من الله عندما سل سيفه و هدد كل من يقول بأن محمدا قد مات و أقسم بالله أنه لم يمت و إنما ذهب يناجي ربه كما فعل موسى بن عمران و توعد من يقول بموته بضرب عنقه [١] .

و لماذا لم يتورع و لم يخش الله سبحانه في تهديد حرق بيت فاطمة الزهراء بالنار إن لم يخرج المتخلفون فيه للبيعة [٢] و قيل له إن فيها فاطمة فقال : و إن ، و

---

[1] تاريخ الطبري – و تاريخ ابن الأثير .

[2] الإمامة و السياسة ابن قتيبة .

تجرأ على كتاب الله و سنة رسوله فحكم في خلافته بأحكام تخـــالف النـــصوص القرآنية و السنة النبوية الشريفة [1] .

و إنما أخذت هذا الصحابي الكبير الشهير كمثل و اختصرت كثيرا لعـــدم الإطالة و لو شئت الدخول في التفاصيل لملأت كتبا عديدة ، و لكن كما قلت : إنما أذكر هذه الموارد على سبيل المثال لا الحصر .

[1] راجع النص و الاجتهاد ، عبد الحسين شرف الدين ، فقد أحصى كثيرا من الموارد الـــتي اجتهد فيها عمر مقابل النصوص ، مع ذكر المصادر المقبولة لدى الفرق الإسلامية كافة .

و الذي ذكرته هو نزر يسير يعطينا دلالة واضحة على نفسيات الصحابة و موقف العلماء من أهل السنة المتناقض ، فبينما يمنعون على الناس نقدهم و الشك فيهم ، يروون في كتبهم ما يبعث على الشك و الطعن فيهم ، و ليت علماء السنة و الجماعة لم يذكروا مثل هذه الأشياء الصريحة التي تمس كرامة الصحابة و تخدش في عدالتهم إذن لأراحونا من عناء الارتباك .

و إني أتذكر لقائي مع أحد علماء النجف الأشرف و هو أسد حيدر مؤلف كتاب " الإمام الصادق و المذاهب الأربعة " و كنا نتحدث عن السنة و الشيعة ، فروى لي قصة والده الذي التقى في الحج عالما تونسيا من علماء الزيتونة ، و ذلك منذ خمسين عاما ، و دار بينهما نقاش في إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، فكان العالم التونسي يستمع إلى والدي و هو يعدد الأدلة على إمامته (عليه السلام) و أحقيته في ا لخلافة فأحصى أربعة أو خمسة أدلة ، و لما انتهى سأله العالم الزيتوني هل لديك غير هذا ؟ قال : لا ، فقال التونسي : أخرج مسبحتك و أبدا في العد ، و أخذ يذكر الأدلة على خلافة الإمام علي (عليه السلام) حتى عدد له مائة دليل لا يعرفها والدي ، و أضاف الشيخ أسد حيدر : لو يقرأ أهل السنة و الجماعة ما في كتبهم ، لقالوا مثل مقالتنا و لانتهى الخلاف بيننا من زمان بعيد .

و لعمري إنه الحق الذي لا مفر منه لو يتحرر الإنسان من تعصبه الأعمى و كبريائه و ينصاع للدليل الواضح .

* * *

أولا – رأي القرآن في الصحابة

قبل كل شيء لابد لي أن أذكر أن الله سبحانه و تعالى قد مدح في كتابه العزيز في العديد من المواقع صحابة رسول الله الذين أحبوا الرسول و اتبعوه و أطاعوه في غير مطمع و في غير معارضة و لا استعلاء و لا استكبار ، بل ابتغاء مرضاة الله و رسوله ، أولئك رضي الله عنهم و رضوا عنه ذلك لمن خشي ربه .

و هذا القسم من الصحابة الذين عرف المسلمون قدرهم من خلال مواقفهم و أفعالهم معه (صلى الله عليه و آله) أحبوهم و أجلوهم و عظموا قدرهم و ترضوا عنهم كلما ذكروهم .

و بحثي لا يتعلق بهذا القسم من الصحابة الذين هم محط الاحترام و التقدير من السنة و الشيعة .

كما لا يتعلق بالقسم الذي اشتهر بالنفاق و الذين هم معرضون للعن المسلمين جميعا من السنة و الشيعة .

و لكن بحثي يتعلق بهذا القسم من الصحابة الذين اختلف فيهم المسلمون ، و نزل القرآن بتوبيخهم و تهديدهم في بعض المواقع ، و الذين حذرهم رسول الله (صلى الله عليه و آله) في العديد من المناسبات أو حذر منهم .

نعم الخلاف القائم بين الشيعة و السنة هو في هذا القسم من الصحابة إذ أن الشيعة ينتقدون أقوالهم و أفعالهم و يشكون في عدالتهم ، بينما يحترمهم أهل السنة

و الجماعة رغم كل ما ثبت عنهم من مخالفات .

و بحثي إنما يتعلق بهؤلاء " هذا القسم من الصحابة " حتى أتمكن من خلاله من الوصول إلى الحقيقة أو بعض الحقيقة .

أقول هذا حتى لا يتوهم أحد أني أغفلت الآيات التي تمدح أصحاب رسول الله و أبرزت الآيات القادحة فقط ، بل إني خلال البحث اكتشفت أن هناك آيات مادحة تتضمن في طيها قدحا أو ما هو نقيض ذلك .

و سوف لن أكلف نفسي جهدا كبيرا كما فعلت ذلك خلال السنوات الثلاث من البحث ، بل سأكتفي بذكر بعض الآيات كأمثلة ، كما جرت العادة و ذلك للاختصار ، و على الذين يريدون التوسع أن يتكبدوا عناء البحث و التنقيب و المقارنة كما فعلت لتكون هدايتهم بعرق الجبين و عصارة الفكر كما يطلبه الله من كل أحد و ما يتطلبه الوجدان لقناعة راسخة لا تزحزحها الرياح و العواصف و من المعلوم بالضرورة أن الهداية التي تكون عن قناعة نفسية أفضل بكثير من التي تكون بمؤثرات خارجية .

قال تعالى يمدح نبيه : { وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى } [1] . أي وجدك تبحث عن الحق فهداك إليه ، و قال أيضا : { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } [2] .

١ – محمد رسول الله

و المثال الأول على ذلك هو آية محمد رسول الله ، يقول الله تعالى : { مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا

---

[1] سورة الضحى (٩٣) ، الآية : ٧ .

[2] سورة العنكبوت (٢٩) ، الآية : ٦٩ .

سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى

سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا } [1] . فهذه الآية الكريمة كلها مدح لرسول الله و الصحابة الذين معه الذين هم – على الوصف الذي ذكره الله تعالى – من الشدة على الكفار و من الرحمة على بعضهم البعض ، و تمضي الآية الكريمة في مدح هؤلاء و ذكر أوصافهم حتى تنتهي بوعده سبحانه و تعالى بالمغفرة و الأجر العظيم ليس لكل الصحابة المذكورين و لكن للبعض منهم ، الذين آمنوا و عملوا الصالحات ، فكلمة منهم التي ذكرها الله تعالى دلت على التبعيض و أوحت أن البعض من هؤلاء لا تشملهم مغفرة الله و رضوانه و دلت أيضا على أن البعض من الصحابة انتفت منهم صفة الإيمان و العمل الصالح . فهذه من الآيات المادحة و القادحة في آن واحد فهي بينما تمدح نخبة من الصحابة تقدح في آخرين .

و من المؤسف المثير أن الكثيرين يستدلون بهذه الآية الكريمة على عصمة الصحابة و عدالتهم و يحتجون بها على الشيعة ، في حين أنها حجة عليهم واضحة جلية في تأييد الشيعة القائلين بتقسيم الصحابة إلى مؤمن مخلص استكمل الإيمان و عمل الصالحات فوعده الله المغفرة و الرضوان و الأجر العظيم ، و آخر أسلم و لما يدخل الإيمان في قلبه أو آمن و عمل صالحا في عهد الرسالة و لكنه إنقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا و قد توعده الله بإحباط أعماله لمجرد رفع صوته فوق صوت النبي ، فما بالك بمن عصى الله و رسوله ، و ضل ضلالا مبينا . ثم ما بالك بمن حكم بما لم يترل إليه أو بدل أحكام الله فأحل ما حرمه الله و حرم ما أحله الله ، و اتبع في كل ذلك رأيه و هواه .

---

[1] سورة الفتح (٤٨) ، الآية : ٢٩ .

٢ – آية الانقلاب

قال تعالى في كتابه العزيز :

{ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّـهَ شَـيْئًا وَسَـيَجْزِي اللّـهُ الشَّاكِرِينَ } [1] ، صدق الله العظيم .

فهذه الآية الكريمة صريحة و جلية في أن الصحابة سينقلبون على أعقابهم بعد وفاة الرسول مباشرة و لا يثبت منهم إلا القليل كما دلت على ذلك الآية في تعبير الله عنهم – أي عن الثابتين الذين لا ينقلبون – بالشاكرين ، فالشاكرون لا يكونون إلا قلة قليلة كما دل على ذلك قوله سبحانه و تعالى : { ... وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ } [2] .

و كما دلت عليه أيضا الأحاديث النبوية الشريفة التي فسرت هذا الانقلاب ، و التي سوف نذكر البعض منها و إذا كان الله سبحانه لم يبين عقاب المنقلبين على أعقابهم في هذه الآية و اكتفى بتمجيد الشاكرين الذين استحقوا جزاءه سبحانه و تعالى ، غير أنه من المعلوم بالضرورة أن المنقلبين على الأعقاب لا يستحقون ثواب الله و غفرانه ، كما أكد ذلك رسول الله (صلى الله عليه و آله) في أحاديث متعددة سوف نبحث في البعض منها إن شاء الله في هذا الكتاب .

و لا يمكن تفسير الآية الكريمة بطليحة و سجاح و الأسود العنسي ، و ذلك حفاظا على كرامة الصحابة ، فهؤلاء قد انقلبوا و ارتدوا عن الإسلام و ادعوا النبوة في حياته (صلى الله عليه و آله) و قد حاربهم رسول الله و انتصر عليهم ، كما لا يمكن تفسير الآية الكريمة بمالك بن نويرة و أتباعه الذين منعوا الزكاة في زمن أبي بكر لعدة أسباب ، منها : أنهم إنما منعوها و لم يعطوها إلى أبي بكر تريثا

---

[1] سورة آل عمران (٣) ، الآية : ١٤٤ .

[2] سورة سبأ (٣٤) ، الآية : ١٣ .

منهم حتى يعرفوا حقيقة الأمر ، إذ أنهم حجوا مع رسول الله (صلى الله عليه و آله) في حجة الوداع و قد بايعوا الإمام علي بن أبي طالب في غدير خم بعد ما نصبه رسول الله للخلافة كما بايعه أبو بكر نفسه ، ففوجئوا عند قدوم رسول الخليفة بنعي رسول الله و طلبه الزكاة باسم الخليفة الجديد أبي بكر ، و هي قضية لا يريد التاريخ الغوص في أعماقها حفاظا على كرامة الصحابة أيضا ، و منها أن مالكا و أتباعه مسلمون شهد بذلك عمر و أبو

بكر نفسه و عدة من الصحابة الذين أنكروا على خالد بن الوليد قتله مالك بن نويرة ، و التاريخ يشهد أن أبا بكر أدى دية مالك لأخيه متمم من بيت مال المسلمين و اعتذر له عن قتله ، و من المعلوم أن المرتد عن الإسلام يجب قتله و لا تؤدي ديته من بيت المال ، و لا يعتذر عن قتله .

و المهم أن آية الانقلاب تقصد الصحابة مباشرة الذين يعيشون معه (صلى الله عليه و آله) في المدينة المنورة و ترمي إلى الانقلاب مباشرة بعد وفاته (صلى الله عليه و آله) بدون فصل و الأحاديث النبوية توضح ذلك بما لا يدع مجالا للشك و سوف نطلع عليها قريبا إن شاء الله . و التاريخ أيضا خير شاهد على الانقلاب الذي وقع بعد وفاة رسول الله (صلى الله عليه و آله) و من يستعرض الأحداث التي وقعت بين الصحابة عند وفاة النبي لا يبقى لديه أي ريب في أن الانقلاب وقع في صفوفهم و لم ينج منهم إلا القليل .

٣ – آية الجهاد

قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ * إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } [1] ، صدق الله العظيم .

هذه الآية صريحة أيضا في أن الصحابة تثاقلوا عن الجهاد و اختاروا الركون إلى الحياة الدنيا رغم علمهم بأنها متاع قليل ، حتى استوجبوا توبيخ الله سبحانه و تهديده إياهم بالعذاب الأليم ، و استبدال غيرهم من المؤمنين الصادقين بهم .

---

[1] سورة التوبة (٩) ، الآية : ٣٨ و ٣٩ .

و قد جاء هذا التهديد باستبدال غيرهم في العديد من الآيات مما يدل دلالة واضحة على أنهم تثاقلوا عن الجهاد في مرات عديدة ، فقد جاء في قوله تعـــالى : { ... وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ } [1] .

[1] سورة محمد (٤٧) ، الآية : ٣٨ .

و كقوله تعالى أيضا : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [1] .

و لو أردنا استقصاء ما هنالك من الآيات الكريمة التي تؤكد هذا المعنى و تكشف بوضوح عن حقيقة هذا التقسيم الذي يقول به الشيعة بشأن هذا القسم من الصحابة لاستوجب ذلك كتابا خاصا ، و قد عبر القرآن الكريم عن ذلك بأوجز العبارات و أبلغها حين قال : { وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } [2] ، صدق الله العلي العظيم . و هذه الآيات كما لا يخفى على كل باحث مطلع تخاطب الصحابة و تحذرهم من التفرقة و الاختلاف من بعد ما جاءهم البينات و تتوعدهم بالعذاب العظيم و تقسمهم إلى قسمين قسم يبعث يوم القيامة بيض الوجوه و هم الشاكرون الذين استحقوا رحمة الله ، و قسم يبعث مسود الوجوه و هم الذين ارتدوا بعد الإيمان و قد توعدهم الله سبحانه بالعذاب العظيم .

---

[1] سورة المائدة (٥) ، الآية : ٥٤ .

[2] سورة آل عمران (٣) ، الآيات : ١٠٤ و ١٠٥ و ١٠٦ و ١٠٧ .

و من البديهي المعلوم أن الصحابة تفرقوا بعد النبي و اختلفوا و أوقدوا نار الفتنة حتى وصل بهم الأمر إلى القتال و الحروب الدامية التي سببت انتكاس المسلمين و تخلفهم و أطمعت فيهم أعداءهم ، و الآية المذكورة لا يمكن تأويلها و صرفها عن مفهومها المتبادر للأذهان .

٤ – آية الخشوع

قال تعالى : { أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ } [1] ، صدق الله العلي العظيم .

و في الدر المنثور لجلال الدين السيوطي قال : لما قدم أصحاب رسول الله (صلى الله عليه و آله) المدينة ، فأصابوا من لين العيش ما أصابوا بعد ما كان بهم من الجهد ، فكأنهم فتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوتبوا فنزلت : (ألم يأن للذين آمنوا) و في رواية أخرى عن النبي (صلى الله عليه و آله) أن الله سبحانه استبطأ قلوب المهاجرين بعد سبع عشرة سنة من نزول القرآن فأنزل الله : (ألم يأن للذين آمنوا) .

و إذا كان هؤلاء الصحابة و هم خيرة الناس على ما يقوله أهل السنة و الجماعة ، لم تخشع قلوبهم لذكر الله و ما نزل من الحق طيلة سبعة عشر عاما حتى استبطأهم الله و عاتبهم و حذرهم من قسوة القلوب التي تجرهم إلى الفسوق ، فلا لوم على المتأخرين من سراة قريش الذين أسلموا في السنة الثامنة للهجرة بعد فتح مكة .

فهذه بعض الأمثلة التي استعرضتها من كتاب الله العزيز كافية للدلالة على أن الصحابة ليسوا كلهم عدولا كما يقوله أهل السنة و الجماعة .

و إذا فتشنا في أحاديث النبي (صلى الله عليه و آله) فسنجد أضعاف الأضعاف من الأمثلة الأخرى و لكن توخيا للاختصار أسوق بعض الأمثلة و على الباحث أن يتوسع إذا أراد ذلك .

---

[1] سورة الحديد (٥٧) ، الآية : ١٦ .

ثانيا – رأي الرسول في الصحابة

١ – حديث الحوض

قال رسول الله (صلى الله عليه و آله) :

" بينما أنا قائم فإذا زمرة حتى إذا عرفتهم خرج رجل من بيني و بينهم فقال ، هلم ، فقلت إلى أين ؟ فقال : إلى النار و الله ، قلت ما شأنهم ؟ قال : إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى ، فلا أرى يخلص منهم إلا مثل همل النعم " [١] .

و قال (صلى الله عليه و آله) :

" إني فرطكم على الحوض من مر علي شرب و من شرب لم يظمأ أبدا ، ليردن علي أقوام أعرفهم و يعرفونني ثم يحال بيني و بينهم فأقول : أصحابي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول : سحقا سحقا لمن غير بعدي " [٢] .

فالمتمعِّن في هذه الأحاديث العديدة التي أخرجها علماء أهل السنة في صحاحهم و مسانيدهم ، لا يتطرق إليه الشك في أن أكثر الصحابة قد بدلوا

---

[1] صحيح البخاري ج ٤ ص ٩٤ إلى ٩٩ و ص ١٥٦ و ج ٣ ص ٣٢ ، صحيح مسلم ج ٧ ص ٦٦ حديث الحوض .

[2] صحيح البخاري ج ٤ ص ٩٤ إلى ٩٩ و ص ١٥٦ و ج ٣ ص ٣٢ ، صحيح مسلم ج ٧ ص ٦٦ حديث الحوض .

و غيروا بل ارتدوا على أدبارهم بعده (صلى الله عليه و آله) إلا القليل الذي عبر عنه بهمل النعم ، و لا يمكن بأي حال من الأحوال حمل هذه الأحاديث على القسم الثالث و هم المنافقون ، لان النص يقول : فأقول أصحابي .

و لان المنافقين لم يبدلوا بعد النبي و إلا لأصبح المنافق بعد وفاة النبي (صلى الله عليه و آله) مؤمنا .

كما أن هذه الأحاديث هي مصداق و تفسير لما سجلناه سابقا من الآيات الكريمة التي تحدثت عن انقلابهم و ارتدادهم و توعدهم بالعذاب الأليم .

٢ – حديث إتباع اليهود و النصارى

قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) :

" لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر و ذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم ، قلنا يا رسول الله اليهود و النصارى ؟ قال فمن " [١] .

و للباحث أن يتسأل عندما يقرأ هذا الحديث المجمع على صحته ، ماذا فعل الصحابة المقصودون بهذا الحديث من فعل اليهود و النصارى حتى وصفهم رسول الله بأنهم يتبعونهم شبرا بشبر و ذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلوا مدخلهم .

و من المعلوم من القرآن الكريم و من التاريخ الصحيح أن اليهود تمردوا على موسى رسول الله إليهم و عصوا أمره و آذوه ، و عبدوا العجل في غيابه و تآمروا على أخيه هارون و كادوا يقتلونه ، و ضربت عليهم الذلة و المسكنة و

---

[١] أخرج هذا الحديث كل من البخاري في صحيحه ج ٤ ص ١٨٧ و مسلم في صحيحه ج ٨ ص ٥٧ .

و الإمام أحمد بن حنبل في مسنده ج ٣ ص ٨٤ و ٩٤ .

باؤوا بغضب من الله جزاء بما كانوا يفعلون ، و قد ارتدوا بعد إيمانهم و تآمروا على أنبياء الله و كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم ففريقا كذبوا و فريقا يقتلون ، و وصل بهم الأمر أن تآمروا على سيدنا عيسى و بهتوا أمه الطاهرة و لم يهدؤوا حتى قتلوه و صلبوه بزعمهم [1] و اختلفوا بعد ذلك و تفرقوا فيه فمن قائل بأنه دجال كذاب ، و من

[1] يصادف تاريخ كتابة هذه السطور : أن البابا يوحنا بولس الثاني زار بالأمس كنيسة اليهود في محاولة تقريب اليهود من النصارى على حساب تبرئة اليهود من قتل المسيح و نسيان الماضي و التحالف لضرب الإسلام و المسلمين .

مغال أنزله منزلة الإله فقال هو ابن الله .

و لمصداق هذا الحديث فمن حقي أن أتصور بأن الصحابة أيضا عصوا أمر رسول الله في أمور كثيرة منها منعهم أن يكتب لهم الكتاب الذي يصونهم من الضلالة ، و منها طعنهم في تأميره أسامة و رفضهم أن يخرجوا معه حتى بعد وفاة الرسول و قد لعن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) المتخلف عنه ممن عبأهم ، و منها تفرقهم و اختلافهم في سقيفة بني ساعدة لاستخلاف الخليفة ، و لم يقبلوا بمن نص عليه رسول الله في غدير خم و هو علي بن أبي طالب حسبما يدعيه الشيعة و لهم شواهد لا تقبل التأويل في صحاح السنة و تواريخهم ، و هددوا إبنته فاطمة الزهراء سيدة النساء بحرق دارها إذا لم يخرج المتخلفون للبيعة قهرا ، و من المعقول جدا أن يقبل الباحث المنصف النص الصريح على علي بن أبي طالب ، لأنه ليس من المعقول أن يموت رسول الله و لا يعين أحدا ، و هو الذي لم يخرج من المدينة إلى غزوة أو سفر إلا و استخلف عليهم أحدا ، و من المعقول أيضا أن يقبل الباحث المنصف بقول الإمام شرف الدين في كتابه " المراجعات " حيث قال لشيخ الأزهر الشيخ سليم البشري :

– سلمتم ـــ سلمكم الله تعالى ـــ بتأخرهم في سرية أسامة ، على السير ، و تثاقلهم في الجرف تلك المدة مع ما قد أمروا من الإسراع و التعجيل و سلمتم بطعنهم في تأمير أسامة مع ما وعوه و رأوه من النصوص قولا و فعلا على تأميره و سلمتم بطلبهم من أبي بكر عزله بعد غضب النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) من طعنهم في إمارته ، و خروجه بسبب ذلك محموما معصبا مدثرا ، و تنديده بهم في خطبته تلك على المنبر التي قلتم إنها كانت من الوقائع التاريخية و قد أعلن فيه كون أسامة أهلا لتلك الإمارة .

و سلمتم بطلبهم من الخليفة إلغاء البعث الذي بعثه رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) و حل اللواء الذي عقده بيده الشريفة ، مع ما رأوه من اهتمامه في

إنفاذه و عنايته التامة في تعجيل إرساله ، و نصوصه المتوالية في وجوب ذلك .

و سلمتم بتخلف بعض من عبأهم (صلى الله عليه و آله) و سلم ، في ذلك الجيش و أمرهم بالنفوذ تحت قيادة أسامة .

و سلمتم بكل هذا كما نص عليه أهل الأخبار ، و اجتمعت عليه كلمة المحدثين و حفظة الآثار ، و قلتم إنهم كانوا معذورين في ذلك ، و حاصل ما ذكرتموه من عذرهم أنهم إنّما آثروا في هذه الأمور مصلحة الإسلام بما اقتضته أنظارهم لا بما أوجبته النصوص النبوية و نحن ما ادعينا – في هذا المقام – أكثر من هذا .

و بعبارة أخرى فإن تساؤلنا يدور حول ما يلي : هل كانوا في تعبدهم وفق النصوص جميعها أم بعضها ؟ لقد اخترتم الأول ، و نحن اخترنا الثاني ، فاعترافكم الآن بعدم تعبدهم في هذه الأوامر يثبت ما اخترناه ، و كونهم معذورين أو غير معذورين خارج عن موضوع البحث كما لا يخفى ، و حيث ثبت لديكم إيثارهم في سرية أسامة مصلحة الإسلام بما اقتضته أنظارهم على التعبد بما أوجبته تلك النصوص ، فلم لا تقولون أنهم آثروا في أمر الخلافة بعد النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) ، مصلحة الإسلام بما اقتضته أنظارهم على التعبد بنصوص الغدير و أمثالها .

إعتذرتم عن طعن الطاعنين في تأمير أسامة بأنهم إنما طعنوا بتأميره لحداثته مع كونهم بين كهول و شيوخ ، و قلتم إن نفوس الكهول و الشيوخ تأبى بجبلتها و طبعها أن تنقاد إلى الأحداث ، فلم لم تقولوا هذا بعينه فيمن لم يتعبدوا بنصوص الغدير المقتضية لتأمير علي و هو شاب على كهول الصحابة و شيوخهم ، لأنهم بحكم الضرورة من أخبارهم ، قد استحدثوا سنه يوم مات رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) ، كما استحدثوا سن أسامة يوم ولاّه (صلى الله عليه و آله و سلم)

عليهم في تلك السن و شتان ما بين الخلافة و إمارة السرية ، فإذا أبت نفوسهم بجبلتها أن تنقاد للحدث في سرية واحدة ، فهي أولى بأن تأبى أن تنقاد للحدث مدة حياته في جميع الشؤون الدنيوية و الأخروية ، على أن ما ذكرتموه من أن نفوس الشيوخ و الكهول تنفر بطبعها من الانقياد للأحداث ممنوع ، إن كان مرداكم

الإطلاق في هذا الحكم ، لان نفوس المؤمنين من الشيوخ الكاملين في إيمانهم لا تنفر من طاعة الله و رسوله في الانقياد للأحداث ، و لا في غيره من سائر الأشياء { فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا } ، { ... وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ... } إنتهى كلامه نقلناه من كتاب المراجعات " المراجعة رقم ٩٢ " .

٣ – حديث البطانتين

قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) :

" ما بعث الله من نبي و لا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالمعروف و تحضه عليه و بطانة تأمره بالشر و تحضه عليه فالمعصوم من عصمه الله " [١] .

و هذا الحديث فيه دلالة واضحة على أن الصحابة كانوا قسمين بطانة تأمر الرسول بالمعروف و تحضه عليه و بطانة تأمره بالشر و تحضه عليه ، و إذا أردنا التوسع في هذا الموضوع لازددنا يقينا بأن بعض الصحابة كانوا يشيرون على رسول الله بغير المعروف .

و مثال ذلك ما أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد من جزئه الأول و حكم ابن جرير بصحته ، قال :

جاء إلى النبي (صلى الله عليه و آله و سلم) أناس من قريش فقالوا : يا محمد إنا جيرانك و حلفاؤك و إن أناسا من غلماننا قد أتوك ليس بهم رغبة في الإسلام و لا رغبة في الفقه إنما فروا من ضياعنا ، فقال النبي لأبي بكر ما تقول قال صدقوا

---

[١] الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ج ٤ ص ١٧٣ مسند الإمام أحمد ج ٣ ص ٣٩ .

إنهم جيرانك و حلفاؤك فتغير وجه النبي بما أشار به ثم قال لعمر ما تقـــول قـــال صدقوا إنهم جيرانك و حلفاؤك فتغير وجه النبي بما أشار به هو الآخر عليه [1] .

[1] تاريخ بغداد ج ١ ص ١٣٣ .

و هذه القصة هي مصداق لحديث البطانتين و الذي أشار به أبو بكر و عمر لم يكن من الخير و لا من المعروف و إلا لما تغير وجه النبي (صلى الله عليه و آله وسلم) .

كما أخرج الإمام أحمد بن حنبل في مسنده و مسلم في صحيحه قال سمعت عمر يقول : قسم رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) قسمة فقلت يا رسول الله لغير هؤلاء أحق منهم ، أهل الصفة ، قال : فقال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) : إنكم تسألوني بالفحش ، و تبخلوني و لست بباخل [1] .

و هذه القصة هي الأخرى صريحة في أن عمر بن الخطاب ليس من البطانة التي تأمر بالمعروف و تحضّ عليه بل هو من الذين يسألون بالفحش و يأمرون بالبخل على ما جاء في حديث الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم) .

٤ – حديث التنافس على الدنيا

قال (صلى الله عليه و آله و سلم) :

" إني فرط لكم و أنا شهيد عليكم و إني و الله لأنظر إلى حوضي الآن و إني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض (أو مفاتيح الأرض) و إني و الله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي و لكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها " [2] .

صدق رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) ، فقد تنافسوا على الدنيا حتى سلت سيوفهم و تحاربوا و كفر بعضهم بعضا ، و قد كان بعض هؤلاء الصحابة المشهورين يكتر الذهب و الفضة في حين يموت بعض المسلمين جوعا و يحدثنا المؤرخون كالمسعودي في مروج الذهب و الطبري و غيرهم أن ثروة الزبير وحده

---

[1] صحيح مسلم ج ٢ ص ٧٣٠ مسند الإمام أحمد بن حنبل .

[2] صحيح البخاري ج ٤ ص ١٠٠ – ١٠١ .

بلغت خمسين ألف دينار و ألف فرس و ألف عبد و ضياعا كثيرة في البصرة و في الكوفة و في مصر و غيرها [1]

[1] مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ٣٤١ .

، كما بلغت غلة طلحة من العراق وحده كل يوم ألف دينار ، و قيل أكثر من ذلك [١] .

و كان لعبد الرحمن بن عوف مائة فرس ، و له ألف بعير و عشرة آلاف شاة ، و بلغ ربع ثمن ماله الذي قسم على زوجاته بعد وفاته أربعة و ثمانين ألفا [٢] .

و ترك عثمان بن عفان يوم مات مائة و خمسين ألف دينار عدا المواشي و الأراضي و الضياع مما لا يحصى و ترك زيد بن ثابت من الذهب و الفضة ما كان يكسر بالفؤوس حتى مجلت أيدي الناس ، ما عدا الأموال و الضياع بقيمة مائة ألف دينار [٣] .

هذه بعض الأمثلة البسيطة و في التاريخ شواهد كثيرة لا نريد الدخول في بحثها الآن و نكتفي بهذا القدر للدلالة على صدق الحديث و أنهم حليت الدنيا في أعينهم و راقهم زبرجها ، فكدسوا الأموال على حساب المستضعفين من المسلمين .

* * *

[1] مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ٣٤١ .

[2] مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ٣٤١ .

[3] مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ٣٤١ .

ثالثا – رأي الصحابة بعضهم في بعض

١ – شهادتهم على أنفسهم بتغيير سنة النبي

عن أبي سعيد الخدري قال : كان رسول الله (صلى الله عليه و آله) يخرج يوم الفطر و الأضحى إلى المصلى فأول شيء يبدأ به الصلاة ثم ينصرف فيقول مقابل الناس و الناس جلوس على صفوفهم فيعظهم و يوصيهم و يأمرهم فإن كان يريد أن يقطع بحثا قطعه أو يأمر بشيء أمر به ثم ينصرف ، قال أبو سعيد فلم يزل الناس على ذلك حتى خرجت مع مروان و هو أمير المدينة في أضحى أو فطر فلما أتينا المصلى إذا منبر بناه كثير بن الصلت فإذا مروان يريد أن يرتقيه قبل أن يصلي فجبذت بثوبه فجبذني فارتفع فخطب قبل أن يصلي فقلت له غيرتم و الله ، فقال : أبا سعيد قد ذهب ما تعلم .

فقلت ، ما أعلم و الله خير مما لا أعلم ، فقال إن الناس لم يكونوا يجلسون لنا بعد الصلاة فجعلتها قبل الصلاة [1] .

و قد بحثت كثيرا عن الدوافع التي جعلت هؤلاء الصحابة يغيرون سنة رسول الله (صلى الله عليه و آله) ، و اكتشفت أن الأمويين و أغلبهم من صحابة النبي و على رأسهم معاوية بن أبي سفيان " كاتب الوحي " كما يسمونه كان يحمل الناس و يجبرهم على سب علي بن أبي طالب و لعنه من فوق منابر المساجد ، كما ذكر ذلك المؤرخون ،

[1] صحيح البخاري ج ١ ص ١٢٢ من كتاب العيدين . باب الخروج إلى المصلى بغير منبر .

و قد أخرج مسلم في صحيحه في باب " فضائل علي بن أبي طالب " مثل ذلك ، و أمر – يعني معاوية – عماله في كل الأمصار بإتخاذ ذلك اللعن سنة يقولها الخطباء على المنابر ، و لما استاء من ذلك بعض الصحابة و استنكر هذا الفعل أمر معاوية بقتلهم و حرقهم و قد قتل من مشاهير الصحابة حجر بن عدي الكندي و أصحابه و دفن بعضهم أحياء لأنهم امتنعوا عن لعن علي و استنكروه و قد أخرج أبو الأعلى المودودي في كتابه " الخلافة و الملك " نقلا عن الحسن البصري قال : أربع خصال كن في معاوية لو لم تكن فيه إلا واحدة لكانت موبقة له :

(١) أخذه الأمر من غير مشورة و فيهم بقايا الصحابة ذوو الفضيلة .

(٢) استخلافه بعده ابنه سكيرا خميرا يلبس الحرير و يضرب الطنابير .

(٣) ادعاؤه زيادا و قد قال رسول الله (صلى الله عليه و آله) الولد للفراش و للعاهر الحجر .

(٤) قتله حجرا و أصحاب حجر فياويلا له من حجر و ياويلا له من حجر و أصحاب حجر [١] .

و كان بعض المؤمنين من الصحابة يفرون من المسجد بعد الفراغ من الصلاة حتى لا يحضروا الخطبة التي تختم بلعن علي و أهل بيته ، و من أجل ذلك غير بنو أمية سنة رسول الله و قدموا الخطبة على الصلاة حتى يحضرها الناس و يرغموا بذلك أنوفهم .

مرحى لهؤلاء الصحابة الذين لا يتورعون عن تغيير سنة الرسول و حتى أحكام الله للوصول إلى أغراضهم الدنيئة و أحقادهم الدفينة و مطامعهم الخسيسة

[١] أبو الأعلى المودودي كتاب الخلافة و الملك ص ١٠٦ .

، و يلعنون رجلا أذهب الله عنه الرجس و طهره تطهيرا و أوجب الصلاة عليه كالصلاة على رسوله ، و أوجب الله و رسوله مودته و حبه حتى قال النبي : " حب علي إيمان و بغضه نفاق " [1] .

و لكن هؤلاء الصحابة بدلوا و غيروا و قالوا سمعنا و عصينا و بدلا من أن

[1] صحيح مسلم ج ١ ص ٦١ .

يصلوا عليه و يحبوه و يطيعوه ، شتموه و لعنوه طيلة ستين عاما كما جاء في كتب التاريخ .

فإذا كان أصحاب موسى قد تآمروا على هارون و كادوا يقتلونه ، فإن بعض أصحاب محمد قتلوا هارونه و تتبعوا أولاده و شيعته تحت كل حجر و مدر و محوا أسماءهم من الديوان و منعوا أن يتسمى أحد باسمه ، و لم يكتفوا بكل ذلك بل لعنوه و حملوا الصحابة المخلصين على ذلك قهرا و ظلما .

و إني و الله لاقف حائرا مبهوتا عندما أقرأ صحاحنا و ما سجل فيها من حب الرسول لأخيه و ابن عمه علي و تقديمه على كل الصحابة حتى قال فيه : أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي [١] .

و قال له : أنت مني و أنا منك [٢] و قال : حب علي إيمان و بغضه نفاق [٣] ، و قال أنا مدينة العلم و علي بابها [٤] و قال : علي و لي كل مؤمن بعدي [٥] .

و قال : من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم وال من والاه و عاد من عاداه [١] ، و لو أردنا استقصاء الفضائل التي ذكرها النبي في علي و التي أخرجها

---

[1] صحيح البخاري ج ٢ ص ٣٠٥ ، مسلم ج ٢ ص ٣٦٠ ، مستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٠٩ .

[2] صحيح البخاري ج ٢ ص ٧٦ ، صحيح الترمذي ج ٥ ص ٣٠٠ ، سنن إبن ماجه ج ١ ص ٤٤ .

[3] صحيح مسلم ج ١ ص ٦١ ، سنن النسائي ج ٦ ص ١١٧ صحيح الترمذي ج ٨ ص ٣٠٦ .

[4] صحيح الترمذي ج ٥ ص ٢٠١ مستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٢٦ .

[5] مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ٢٥ مستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٣٤ ، صحيح الترمذي ج ٥ ص ٢٩٦ .

علماؤنا معترفين بصحتها لاستوجب كتابا خاصا ، فكيف يا ترى يتجاهل الصحابة هذه النصوص و يسبون عليا و ينصبون له العداء و يلعنونه فوق المنابر و كيف يقاتلونه و يقتلونه .

و إني أحاول عبثا أن أجد مبررا لهؤلاء فلا أجد غير حب الدنيا و التنافس فيها أو النفاق أو الارتداء و الانقلاب على الأعقاب ، و أحاول أيضا إلصاق هذه

[1] صحيح مسلم ج ٢ ص ٣٦٢ مستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٠٩ مسند أحمد ج ٤ ص ٢٨١ .

المسؤولية بحثالة الصحابة و بعض المنافقين ، و لكن هؤلاء – للأسف الشديد – معدودون من أكابرهم و أفاضلهم و مشاهيرهم ، فأول من هدد بحرق بيته – بمن فيه – هو عمر بن الخطاب ، و أول من حاربه هو طلحة و الزبير و أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر ، و معاوية بن أبي سفيان و عمرو بن العاص و أمثالهم كثيرون .

و إن عجبي لكبير و سوف لن ينتهي ، كما يؤيدني في ذلك كل مفكر حر ، عاقل ، كيف يجمع علماء أهل السنة و الجماعة على عدالة الصحابة كافة و يترضون عليهم بل و يصلّون عليهم أجمعين ، لا يستثنون منهم واحدا حتى قال بعضهم : " إلعن يزيد و لا تزيد " فأين يزيد من هذه المآسي التي لا يقرها دين و لا عقل ، و إنني أربأ بأهل السنة و الجماعة إن كانوا حقا يتبعون سنة الرسول ، أن يحكموا بعدالة من حكم القرآن و السنة بفسقه و ارتداده و كفره و قد قال رسول الله (صلى الله عليه و آله) " من سب عليا فقد سبني و من سبني فقد سب الله ، و من سب الله أكبه على منخريه في النار " [1] .

هذا جزاء من سب عليا فما بالك بمن لعنه و حاربه و قاتله فأين علماؤنا من كل هذه الحقائق ، أم على قلوب أقفالها .

و قل رب أعوذ بك من همزات الشياطين و أعوذ بك رب أن يحضرون .

٢ – الصحابة غيروا حتى في الصلاة

---

[1] مستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٢١ خصائص النسائي ص ٢٤ . مسند الإمام أحمد ج ٦ ص ٣٣ المناقب للخوارزمي ص ٨١ . الرياض النضرة للطبري ج ٢ ص ٢١٩ . تاريخ السيوطي ص ٧٣ .

قال أنس بن مالك : ما عرفت شيئا مما كان على عهد النبي (صلى الله عليه و آله) مثل الصلاة ، قال أليس ضيعتم ما ضيعتم فيها .

و قال الزهري دخلت على أنس بن مالك بدمشق و هو يبكي فقلت مـــا يبكيك فقال : لا أعرف شيئا مما أدركت إلا هذه الصلاة و قد ضيعت [1] .

[1] صحيح البخاري ج ١ ص ٧٤ .

و حتى لا يتوهم أحد أن التابعين هم الذين غيروا ما غيروا بعد تلك الفتن و الحروب ، أود أن أذكر بأن أول من غير سنة الرسول في الصلاة هو خليفة المسلمين نفسه عثمان بن عفان و كذلك أم المؤمنين عائشة ، فقد أخرج الشيخان البخاري و مسلم في صحيحيهما : أن رسول الله (صلى الله عليه و آله) ، صلى بمنى ركعتين ، و أبو بكر بعده ، و عمر بعد أبي بكر و عثمان صدرا من خلافته ، ثم أن عثمان صلى بعد أربعا [١] .

كما أخرج مسلم في صحيحه ، قال الزهري قلت لعروة ما بال عائشة تتم الصلاة في السفر ؟ قال إنها تأولت كما تأول عثمان [٢] .

سبحان الله ! و هل هناك تأويل يمحق السنة النبوية غير هذا و أمثاله من التأويلات ؟ و هل يلوم أحد بعد هذا أبا حنيفة . أو أحد الأئمة أصحاب المذاهب الذين تأولوا ، فحللوا و حرموا وفق تأويلهم و اجتهادهم مقتدين في ذلك بسنة هؤلاء الصحابة .

و كان عمر بن الخطاب يجتهد و يتأول مقابل النصوص الصريحة من السنن النبوية بل في مقابل النصوص الصريحة من القرآن الحكيم فيحكم برأيه ، كقوله : " متعتان كانتا على عهد رسول الله و أنا أنهي عنهما و أعاقب عليهما " ، و يقول لمن أجنب و لم يجد ماء : " لا تصلّ " . رغم قول الله تعالى في سورة المائدة : { فإن لم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا } .

أخرج البخاري في صحيحه في باب " إذا خاف الجنب على نفسه " قال : سمعت شقيق بن سلمة قال : كنت عند عبد الله و أبي موسى فقال له أبو

---

[1] صحيح البخاري ج ٢ ص ١٥٤ ، صحيح مسلم ج ١ ص ٢٦٠ .

[2] صحيح مسلم ج ٢ ص ١٤٣ كتاب صلاة المسافرين .

موسى أرأيت يا أبا عبد الرحمن إذا أجنب فلم يجد ماء كيف يصنع فقال عبد الله لا يصلي حتى يجد الماء فقال أبو موسى فكيف تصنع بقول عمار حين قال له النبي (صلى الله عليه و آله) كان يكفيك أن تضرب ضربتين و علمه التيمم ، قال : ألم تر عمر لم يقنع بذلك فقال أبو موسى فدعنا من قول عمار كيف تصنع بهذه الآية فما درى عبد الله ما يقول

، فقال إنا لو رخصنا لهم في هذا لأوشك إذا برد على أحدهم الماء أن يدعه و يتيمم فقلت لشقيق : فإنما كره عبد الله لهذا ، قال : نعم [١] .

ما شاء الله ! لقد نصب عبد الله هذا نفسه إماما على الأمة فأفتى بما يحلو له و بما شاء هو ، لا بما اقتضته أحكام الله التي أنزلها في القرآن ، و رغم استدلال أبي موسى الأشعري بآية التيمم يقول عبد الله : " إنا لو رخصنا لهم في هذا " فمن أنت يا هذا ؟ ؟ حتى تحلل و تحرم و ترخص و تمنع كما تريد ، و لعمري إنك اتبعت في ذلك سنة من قبلك و أصررت على العناد لتأييد رأيه الذي كان يفتي بترك الصلاة عند فقدان الماء و لم يقتنع باحتجاج عمار بن ياسر عليه بالسنة النبوية كما لم تقتنع أنت باحتجاج أبي موسى بالآية القرآنية ! ، أ فبعد هذا يدعي علماؤنا بأن الصحابة كالنجوم بأيهم اقتدينا اهتدينا ، { أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنتُمْ سَامِدُونَ } [٢] .

٣ – الصحابة يشهدون على أنفسهم

روى أنس بن مالك أن رسول الله (صلى الله عليه و آله) قال للأنصار : إنكم سترون بعدي أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله و رسوله على الحوض . قال أنس فلم نصبر [٣] .

و عن العلاء بن المسيب عن أبيه قال : لقيت البراء بن عازب رضي الله عنهما فقلت طوبى لك صحبت النبي (صلى الله عليه و آله) و بايعته تحت الشجرة ، فقال : يا ابن أخي إنك لا تدري ما أحدثنا بعده [٤] .

---

[1] صحيح البخاري ج ١ ص ٥٤ .

[2] سورة النجم (٥٣) ، الآية : ٥٩ ــ ٦١ .

[3] صحيح البخاري ج ٢ ص ١٣٥ .

[4] صحيح البخاري ج ٣ ص ٣٢ باب غزوة الحديبية .

و إذا كان هذا الصحابي من السابقين الأولين الذين بايعوا النبي (صلى الله عليه و آلـه) تحت الشجرة ، و رضي الله عنهم و علم ما في قلوبهم فأثابهم فتحا قريبـــا ، يشهد على نفسه و على أصحابه بأنهم أحدثوا بعد النبي و هذه الـــشهادة هـــي مصداق ما أخبر

به (صلى الله عليه و آله) و تنبأ به من أن أصحابه سيحدثون بعده و يرتدون على أدبارهم فهل يمكن لعاقل بعد هذا أن يصدق بعدالة الصحابة كلهم أجمعين (أكتعين أبصعين) على ما يقول به أهل السنة و الجماعة ، و الذي يقول هذا القول فإنه يخالف العقل و النقل و لا يبقى للباحث أي مقاييس فكرية يعتمدها للوصول إلى الحقيقة .

٤ – شهادة الشيخين على نفسيهما

أخرج البخاري في صحيحه في باب مناقب عمر بن الخطاب قال : لما طعن عمر جعل يألم فقال له ابن عباس و كأنه يجزعه : يا أمير المؤمنين و لئن كان ذاك لقد صحبت رسول الله فأحسنت صحبته ثم فارقته و هو عنك راض ثم صحبت أبا بكر فأحسنت صحبته ثم فارقته و هو عنك راض ثم صحبت صحابتهم فأحسنت صحبتهم و لئن فارقتهم لتفارقنهم و هم عنك راضون .

قال : أما ما ذكرت من صحبة رسول الله و رضاه فإنما ذاك من مَنّ الله تعالى مَنّ به علي ، و أما ما ذكرت من صحبة أبي بكر و رضاه فإنما ذاك من مَنّ الله جل ذكره مَنّ به علي ، و أما ما ترى من جزعي فهو من أجلك و أجل أصحابك و الله لو أن لي طِلاع الأرض ذهبا لافتديت به من عذاب الله عَزَّ و جَلَّ قبل أن أراه [١] .

و قد سجل التاريخ له أيضا قوله : ليتني كنت كبش أهلي يسمنونني ما بدا لهم حتى إذا كنت أسمن ما أكون زارهم بعض من يحبون فجعلوا بعضي شواء و قطعوني قديدا ثم أكلوني و أخرجوني عذرة و لم أكن بشرا [٢] .

---

[1] صحيح البخاري ج ٢ ص ٢٠١ .

[2] منهاج السنة لابن تيمية ج ٣ ص ١٣١ . حلية الأولياء لأبي نعيم ج ١ ص ٥٢ .

كما سجل التاريخ لأبي بكر مثل هذا ، قال لما نظر أبو بكر إلى طائر على شجرة : طوبى لك يا طائر تأكل الثمر و تقع على الشجر و ما من حساب و لا عقاب عليك ، لوددت أني شجرة على جانب الطريق مر علي جمـــل فـــأكلني و أخرجني في بعره و لم أكن من البشر [1] .

[1] تاريخ الطبري ص ٤١ . الرياض النضرة ج ١ ص ١٣٤ . كتز العمال ص ٣٦١ . منهاج السنة لابن تيمية ، ج ٣ ص ١٢٠ .

و قال مرة أخرى : " ليت أمي لم تلدني ، ليتني كنت تبنة في لبنة " [١] . . . تلك بعض النصوص أوردتها على نحو المثال لا الحصر .

و هذا كتاب الله يبشر عباده المؤمنين بقوله :

{ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } [٢] .

و يقول أيضا : { إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ } [٣] ، صدق الله العلي العظيم .

فكيف يتمنى الشيخان أبو بكر و عمر أن لا يكونا من البشر الذي كرمه الله على سائر مخلوقاته .

و إذا كان المؤمن العادي الذي يستقيم في حياته تتنزل عليه الملائكة و تبشره بمقامه في الجنة فلا يخاف من عذاب الله و لا يحزن على ما خلف وراءه في الدنيا و له البشرى في الحياة الدنيا قبل أن يصل إلى الآخرة ، فما بال عظماء الصحابة الذين هم خير الخلق بعد رسول الله – كما تعلمنا ذلك – يتمنون أن يكونوا عذرة ، و بعرة ، و شعرة ، و تبنة ، و لو أن الملائكة بشرتهم بالجنة ما كانوا ليتمنوا أن لهم مثل طِلاع الأرض ذهبا ليفتدوا به من عذاب الله قبل لقاه .

---

[1] تاريخ الطبري ص ٤١ الرياض النضرة ج ١ ص ١٣٤ . كتر العمال ص ٣٦١ . منهاج السنة النبوية لابن تيمية ج ٣ ص ١٢٠ .

[2] سورة يونس (١٠) ، الآيات : ٦٢ ــ ٦٤ .

[3] سورة فصلت (٤١) ، الآيات : ٣٠ ــ ٣٢ .

قال تعالى : { وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ لاَفْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّواْ النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ } [1] .

[1] سورة يونس (١٠) ، الآية : ٥٤ .

و قال أيضا : { وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون } [1] .

و إنني أتمنى من كل قلبي أن لا تشمل هذه الآيات ، صحابة كبارا أمثال أبي بكر الصديق و عمر الفاروق . .

بيد أنني أتوقف كثيرا عند مثل هذه النصوص لأطلّ على مقاطع مثيرة من علاقتهم مع الرسول (صلى الله عليه و آله) و ما شهدتها تلك العلاقة من تخلف عن إجراء أوامره و تلبية طلبه في اللحظات الأخيرة من عمره المبارك الشريف مما أغضبه و دفعه إلى أن يأمر الجميع بمغادرة المنزل و تركه ، كما أنني أستحضر أمامي شريط الحوادث التي جرت بعد وفاة الرسول و ما جرى مع ابنته الزهراء الطاهرة من إيذاء و هضم و غمط و قد قال (صلى الله عليه و آله) : " فاطمة بضعة مني من أغضبها فقد أغضبني " [2] .

و قالت فاطمة لأبي بكر و عمر :

نشدتكما الله تعالى ألم تسمعا رسول الله (صلى الله عليه و آله) يقول : " رضا فاطمة من رضاي و سخط فاطمة من سخطي فمن أحب ابنتي فاطمة فقد أحبني و من أرضى فاطمة فقد أرضاني و من أسخط فاطمة فقد أسخطني ، قالا : نعم سمعناه من رسول الله (صلى الله عليه و آله) فقالت : فإني أشهد الله و ملائكته أنكما أسخطتماني و ما أرضيتماني و لئن لقيت النبي لأشكونكما إليه " [3] .

---

[1] سورة الزمر (٣٩) ، الآية : ٤٧ و ٤٨ .

[2] صحيح البخاري ج ٢ ص ٢٠٦ باب مناقب قرابة رسول الله (صلى الله عليه و آله) .

[3] الإمامة و السياسة لابن قتيبة ج ١ ص ٢٠ . فدك في التاريخ ص ٩٢ .

و دعنا من هذه الرواية التي تدمي القلوب ، فلعل ابن قتيبة و هو من علماء أهل السنة المبرزين في كثير من الفنون و له تآليف عديدة في التفسير و الحديث و اللغة و النحو و التاريخ ، لعله تشيع هو الآخر كما قال لي أحد المعاندين مرة عندما أطلعته على كتابه تاريخ الخلفاء ، و هذه هي الدعاية التي يلجأ إليها بعض علمائنا بعدما تعييهم الحيلة ، فالطبري عندنا تشيع و النسائي الذي ألف كتابا في

خصائص الإمام علي تشيع و ابن قتيبة تشيع و حتى طه حسين من المعاصرين لما ألف كتابه الفتنة الكبرى و ذكر حديث الغدير و اعترف بكثير من الحقائق الأخرى فهو أيضا تشيع ! ! .

و الحقيقة أن كل هؤلاء لم يتشيعوا و عندما يتكلمون عن الشيعة لا يذكرون عنهم إلا ما هو مشين ، و هم يدافعون عن عدالة الصحابة بكل ما أمكنهم ، و لكن الذي يذكر فضائل علي بن أبي طالب و يعترف بما فعله كبار الصحابة من أخطاء نتهمه بأنه تشيع ، و يكفي أن تقول أمام أحدهم عند ذكر النبي : " (صلى الله عليه و آله) " أو " تقول علي (عليه السلام) " ، حتى يقال : إنك شيعي ، و على هذا الأساس قلت يوما لأحد علمائنا و أنا أحاوره : ما رأيك في البخاري ؟ قال : هو من أئمة الحديث و كتابه أصح الكتب بعد كتاب الله عندنا و قد أجمع على ذلك علماؤنا .

فقلت له : إنه شيعي ، فضحك مستهزئا و قال : حاشى الإمام البخاري أن يكون شيعيا ! ! قلت : أو ليس أنك ذكرت بأن كل من يقول : " علي (عليه السلام) " فهو شيعي ؟ قال : بلى ، فأطلعته و من حضر معه على صحيح البخاري و في عدة مواقع عندما يأتي باسم علي يقول : (عليه السَّلام) و فاطمة (عليها السلام) و الحسين بن علي (عليهما السلام) [1] فبهت و ما دري ما يقول .

و أعود إلى رواية ابن قتيبة التي ادعى فيها أن فاطمة غضبت على أبي بكر و عمر ، فإذا شككت فيها فإنه لا يمكنني أن أشك في صحيح البخاري الذي هو عندنا أصح الكتب بعد كتاب الله ، و قد ألزمنا أنفسنا بأنه صحيح و للشيعة أن

[1] صحيح البخاري ج ١ ص ١٢٧ ، ١٣٠ و ج ٢ ص ١٢٦ ، ٢٠٥ .

يحتجوا به علينا و يلزموننا بما ألزمنا به أنفسنا و هـذا هـو الإنـصاف للقـوم العاقلين .

فها هو البخاري يخرج من باب مناقب قرابة رسول الله ، أن رسـول الله (صلى الله عليه و آله) قال : فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني .

كما أخرج في باب غزوة خيبر ، عن عائشة أن فاطمة (عليها السلام) بنـت النبي أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من رسول الله فأبى أبو بكر أن يدفع إلى

فاطمة منه شيئا فوجدت [١] فاطمة على أبي بكر في ذلك فهجرته فلم تكلمه حتى توفيت [٢] .

و النتيجة في النهاية هي واحدة ذكرها البخاري باختصار و ذكرها ابن قتيبة بشيء من التفصيل ، ألا و هي أن رسول الله (صلى الله عليه و آله) يغضب لغضب فاطمة و يرضى لرضاها و أن فاطمة ماتت و هي غاضبة على أبي بكر و عمر .

و إذا كان البخاري قد قال : ماتت و هي واجدة على أبي بكر فلم تكلمه حتى توفيت فالمعنى واحد كما لا يخفى ، و إذا كانت فاطمة سيدة نساء العالمين كما صرح بذلك البخاري في كتاب الاستئذان باب من ناجى بين يدي الناس ، و إذا كانت فاطمة هي المرأة الوحيدة في هذه الأمة ، التي أذهب الله عنها الرجس و طهرها تطهيرا ، فلا يكون غضبها لغير الحق و لذلك يغضب الله و رسوله لغضبها ، و لهذا قال أبو بكر : أنا عائذ بالله تعالى من سخطه و سخطك يا فاطمة ، ثم انتحب أبو بكر باكيا حتى كادت نفسه أن تزهق ، و هي تقول : و الله لأدعون الله عليك في كل صلاة أصليها ، فخرج أبو بكر يبكي و يقول : لا حاجة لي في بيعتكم ، أقيلوني بيعتي [٣] .

غير أن كثيرا من المؤرخين و من علمائنا ، يعترفون بأن فاطمة (عليها السلام) خاصمت أبا بكر في قضية النحلة و الإرث و سهم ذي القربى فردت دعواها حتى ماتت و هي غاضبة عليه ، إلا أنهم يمرون بهذه الأحداث مرور الكرام و لا يريدون التكلم فيها حفاظا على كرامة أبي بكر كما هي عادتهم في كل ما يمسه

---

[1] وجدت : غضبت .

[2] صحيح البخاري ج ٣ ص ٣٩ .

[3] تاريخ الخلفاء المعروف بالإمامة و السياسة لابن قتيبة الدينوري ج ١ ص ٢٠ .

من قريب أو بعيد ، و من أعجب ما قرأته في هذا الموضوع قول بعضهم بعد مـــا ذكر الحادثة بشيء من التفصيل قال : " حاشى لفاطمة من أن تدعي ما ليس لهـــا بحق ، و حاشى لأبي بكر من أن يمنعها حقها " .

و بهذه السفسطة ظن هذا العالم أنه حل المشكلة و أقنع الباحثين و كلامه هذا

كقول القائل : " حاشى للقرآن الكريم أن يقول غير الحق ، و حاشى لبني إسرائيل أن يعبدوا العجل " .

لقد ابتلينا بعلماء يقولون ما لا يفقهون و يؤمنون بالشيء و نقيضه في نفس الوقت و الحال يؤكد أن فاطمة ادعت و أبا بكر رفض دعواها فإما أن تكون كاذبة و " العياذ بالله " حاشاها ، أو أن يكون أبو بكر ظالما لها و ليس هناك حل ثالث للقضية كما يريدها بعض علمائنا .

و إذا امتنع بالأدلة العقلية و النقلية أن تكون سيدة النساء كاذبة لما ثبت عن أبيها رسول الله قوله : فاطمة بضعة مني من آذاها فقد آذاني ، و من البديهي أن الذي يكذب لا يستحق مثل هذا النص من قبل الرسول (صلى الله عليه و آله) ، فالحديث بذاته دال على عصمتها من الكذب و غيره من الفواحش ، كما أن آية التطهير دالة هي الأخرى على عصمتها و قد نزلت فيها و في بعلها و ابنيها بشهادة عائشة نفسها [١] ، فلم يبق إذن إلا أن يعترف العقلاء بأنها ظلمت فليس تكذيبها في دعواها إلا أمرا ميسورا لمن استباح حرقها إن لم يخرج المتخلفون في بيتها لبيعتهم [٢] .

و لكل هذا تراها – سلام الله عليها – لم تأذن لهما في الدخول عليها عندما استأذنها أبو بكر و عمر ، و لما أدخلهما علي أدارت بوجهها إلى الحائط و ما رضيت أن تنظر إليهما [٣] .

---

[1] صحيح مسلم ج ٧ ص ١٢١ و ص ١٣٠ .

[2] تاريخ الخلفاء ج ١ ص ٢٠ .

[3] تاريخ الخلفاء ج ١ ص ٢٠ .

و قد توفيت و دفنت في الليل سرا بوصية منها حتى لا يحضر جنازتها أحد منهم [1] ، و بقى قبر بنت الرسول مجهولا حتى يوم الناس هذا و إنني أتسأل لماذا يسكت علماؤنا عن هذه الحقائق و لا يريدون البحث فيها و لا حتى ذكرها ، و يصورون لنا صحابة رسول الله (صلى الله عليه و آله) و كأنهم ملائكة لا يخطئون و لا يذنبون .

و إذا ما سألت أحدهم كيف يقتل خليفة المسلمين سيدنا عثمان ذو النورين

[1] صحيح البخاري ج ٣ ص ٣٩ .

فسيجيبك بأن المصريين – و هم كفرة – جاؤوا و قتلوه و ينهي الموضوع كله بجملتين .

و لكن عندما وجدت الفرصة للبحث و قراءة التاريخ وجدت أن قتلة عثمان بالدرجة الأولى هم الصحابة أنفسهم و في مقدمتهم أم المؤمنين عائشة التي كانت تنادى بقتله و إباحة دمه على رؤوس الأشهاد فكانت تقول " اقتلوا نعثلا فقد كفر " [١] .

كذلك نجد طلحة و الزبير و محمد بن أبي بكر و غيرهم من مشاهير الصحابة و قد حاصروه و منعوه من شرب الماء ليجبروه على الاستقالة ، و يحدثنا المؤرخون أن الصحابة هم الذين منعوا دفن جثته في مقابر المسلمين فدفن في " حش كوكب " بدون غسل و لا كفن ، سبحان الله ، كيف يقال لنا إنه قتل مظلوما و أن الذين قتلوه ليسوا مسلمين ، و هذه القضية هي الأخرى كقضية فاطمة و أبي بكر ، فإما أن يكون عثمان مظلوما و عند ذلك نحكم على الصحابة الذين قتلوه أو شاركوا في قتله بأنهم قتلة مجرمون لأنهم قتلوا خليفة المسلمين ظلما و عدوانا و تتبعوا جنازته يحصبونها بالحجارة و أهانوه حيا و ميتا أو أن هؤلاء الصحابة استباحوا قتل عثمان لما اقترفه من أفعال تتنافى مع الإسلام كما جاء ذلك في كتب التاريخ ، و ليس هناك احتمال وسط إلا إذا كذبنا التاريخ و أخذنا بالتمويه " بأن المصريين و هم كفرة هم الذين قتلوه " .

---

[١] تاريخ الطبري ج ٤ ص ٤٠٧ تاريخ ابن الأثير ج ٣ ص ٢٠٦ لسان العرب ج ١٤ ص ١٩٣ تاج العروس ج ٨ ص ١٤١ العقد الفريد ج ٤ ص ٢٩٠ .

و في كلا الاحتمالين نفي قاطع لمقولة عدالة الصحابة أجمعين دون استثناء فأما أن يكون عثمان غير عادل أو يكون قتلته غير عدول و كلهم من الصحابة و بذلك تبطل دعوانا .

و تبقى دعوى شيعة أهل البيت القائلين بعدالة البعض منهم دون الآخر .

و نتساءل عن حرب الجمل التي أشعلت نارها أم المؤمنين عائشة إذ كانت

هي التي قادتها بنفسها ، فكيف تخرج أم المؤمنين عائشة من بيتها التي أمرها الله بالاستقرار فيه بقوله تعالى : { وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ... } [1] .

و نسأل بأي حق استباحت أم المؤمنين قتال خليفة المسلمين علي بن أبي طالب . و هو ولي كل مؤمن و مؤمنة .

و كالعادة و بكل بساطة يجيبنا علماؤنا بأنها لا تحب الإمام عليا لأنه أشار على رسول الله بتطليقها في حادثة الإفك ، و يريد هؤلاء إقناعنا بأن هذه الحادثة " إن صحت " و هي إشارة علي على النبي بتطليقها كافية بأن تعصي أمر ربها و تمتك سترا ضربه عليها رسول الله ، و تركب جملا نهاها رسول الله أن تركبه و حذرها أن تنبحها كلاب الحوأب [2] ، و تقطع المسافات البعيدة من المدينة إلى مكة و منها إلى البصرة ، و تستبيح قتل الأبرياء و محاربة أمير المؤمنين و الصحابة الذين بايعوه ، و تتسبب في قتل ألوف المسلمين كما ذكر ذلك المؤرخون [3] كل ذلك لأنها لا تحب الإمام عليا الذي أشار بتطليقها و مع ذلك لم يطلقها النبي ، فلماذا كل هذه الكراهية و قد سجل المؤرخون لها مواقف عدائية للإمام علي لا يمكن تفسيرها ، فقد كانت راجعة من مكة عندما أعلموها في الطريق بأن عثمانا قتل ففرحت فرحا شديدا و لكنها عندما علمت بأن الناس بايعوا عليا غضبت و قالت : وددت أن السماء انطبقت على الأرض قبل أن يليها ابن أبي طالب و قالت ردوني و بدأت تشعل نار الفتنة للثورة على علي الذي لا تريد ذكر اسمه

---

[1] سورة الأحزاب (٣٣) ، الآية : ٣٣ .

[2] الإمامة و السياسة .

[3] الطبري و ابن الأثير و المدائني و غيرهم من المؤرخين الذين أرخوا حوادث سنة ست و ثلاثين للهجرة .

كما سجله المؤرخون عليها ، أفلم تسمع أم المؤمنين قول الرسول (صلى الله عليه و آله) : " بأن حب على إيمان و بغضه نفاق [1] حتى قال بعض الصحابة : " كنا لا نعرف المنافقين إلا ببغضهم لعلي " .

أو لم تسمع أم المؤمنين قول النبي : " من كنت مولاه فعلي مولاه " ... إنها

[1] صحيح مسلم ج ١ ص ٤٨ .

لا شك سمعت كل ذلك و لكنها لا تحبه و لا تذكر اسمه بل إنها لما سمعت بموته سجدت شكرا لله [١] .

و دعني من كل هذا فأنا لا أريد البحث عن تاريخ أم المؤمنين عائشة و لكن أريد الاستدلال على مخالفة كثير من الصحابة لمبادئ الإسلام و تخلفهم عن أوامر رسول الله (صلى الله عليه و آله) ، و يكفيني من فتنة أم المؤمنين دليل واحد أجمع عليه المؤرخون ، قالوا لما جازت عائشة ماء الحوأب و نبحتها كلابها تذكرت تحذير زوجها رسول الله و نهيه إياها أن تكون هي صاحبة الجمل ، فبكت و قالت ردوني ، ردوني .

و لكن طلحة و الزبير جاءاها بخمسين رجلا جعلا لهم جَعْلاً ، فأقسموا بالله أن هذا ليس بماء الحوأب فواصلت مسيرها حتى البصرة ، و يذكر المؤرخون أنها أول شهادة زور في الإسلام [٢] .

دلونا أيها المسلمون يا أصحاب العقول النيرة على حل لهذا الإشكال ، أهؤلاء هم الصحابة الأجلاء الذين نحكم نحن بعدالتهم و نجعلهم أفضل البشر بعد رسول الله (صلى الله عليه و آله) ! فيشهدون شهادة الزور التي عدها رسول الله (صلى الله عليه و آله) من الكبائر الموبقة التي تقود إلى النار .

و السؤال نفسه يعود دائما و يتكرر أيهم على الحق و أيهم على الباطل ، فإما أن يكون علي و من معه ظالمين و على غير الحق ، و إما أن تكون عائشة و من معها و طلحة و الزبير و من معهم ظالمين و على غير الحق و ليس هناك

---

[1] الطبري و ابن الأثير و الفتنة الكبرى و كل المؤرخين الذي أرخوا حوادث سنة أربعين للهجرة .

[2] الطبري و ابن الأثير و المدائني و غيرهم من المؤرخين الذين أرخوا لسنة ست و ثلاثين للهجرة .

احتمال ثالث ، و الباحث المنصف لا أراه إلا مائلا لأحقية علي الذي يدور الحق معه حيث دار ، نابذا فتنة " أم المؤمنين عائشة " و أتباعها الذين أوقدوا نارهـــا و ما أطفأوها حتى أكلت الأخضر و اليابس و بقيت آثارها إلى اليوم .

و لمزيد البحث و ليطمئن قلبي أقول أخرج البخاري في صـــحيحه مـــن كتاب الفتن باب الفتنة التي تموج كموج البحر ، قال : لما سار طلحة و الزبير و عائشة إلى

البصرة بعث علي عمار بن ياسر و الحسن بن علي فقدما علينا الكوفة فصعدا المنبر فكان الحسن بن علي فوق المنبر في أعلاه و قام عمار أسفل من الحسن فاجتمعنا إليه فسمعت عمارا يقول : إن عائشة قد سارت إلى البصرة و والله إنها لزوجة نبيكم في الدنيا و الآخرة ، و لكن الله تبارك و تعالى ابتلاكم ليعلم إياه تطيعون أم هي [١] .

كما أخرج البخاري أيضا في كتاب الشروط باب ما جاء في بيوت أزواج النبي ، قال : قام النبي (صلى الله عليه و آله) خطيبا فأشار نحو مسكن عائشة فقال هاهنا الفتنة ، هاهنا الفتنة ، هاهنا الفتنة من حيث يطلع قرن الشيطان [٢] .

كما أخرج البخاري في صحيحه عنها أشياء عجيبة و غريبة في سوء أدبها مع النبي حتى ضربها أبوها فأسال دمها و في تظاهرها على النبي حتى هددها الله بالطلاق و أن يبدله ربه خيرا منها و هذه قصص أخرى يطول شرحها .

و بعد كل هذا أتسأل كيف استحقت عائشة كل هذا التقدير و الاحترام من أهل السنة و الجماعة ، أ لأنها زوج النبي ، فزوجاته كثيرات و فيهن من هي أفضل من عائشة بتصريح النبي نفسه [٣] .

أم لأنها ابنة أبي بكر ! أم لأنها هي التي لعبت الدور الكبير في إنكار وصية النبي لعلي حتى قالت عندما ذكروا عندها أن النبي أوصى لعلي : قالت من قاله ؟ لقد رأيت النبي (صلى الله عليه و آله) و إني لمسندته إلى صدري فدعا بالطست فانخنى فمات فما شعرت فكيف أوصى إلى علي [٤] .

---

[1] صحيح البخاري ج ٤ ص ١٦١ .

[2] صحيح البخاري ص ١٢٨ .

[3] صحيح الترمذي ، الاستيعاب ترجمة صفية ، الإصابة ترجمة صفية أم المؤمنين .

[4] صحيح البخاري ج ٣ ص ٦٨ باب مرض النبي و وفاته .

أم لأنها حاربته حربا لا هوادة فيها و أولاده من بعده حتى اعترضت جنازة الحسن سيد شباب أهل الجنة و منعت أن يدفن بجانب جده رسول الله قائلة : لا تدخلوا بيتي من لا أحب و نسيت أو تجاهلت قول الرسول فيه و في أخيه : " الحسن و الحسين سيدا شباب أهل الجنة " ، أو قوله : " أحب الله من أحبهما و أبغض الله

من أبغضهما " ، أو قوله : " أنا حرب لمن حاربكم و سلم لمن سالمكم " ، و غير ذلك كثير لست في معرض الكلام عنه ... كيف لا و هما ريحانتاه من هذه الأمة .

و لا غرابة فقد سمعت في حق علي أضعاف ذلك و لكنها و رغم تحذير النبي (صلى الله عليه و آله) لها ، أبت إلا محاربته و تأليب الناس عليه و إنكار فضله و فضائله . و من أجل ذلك أحبها الأمويون و أنزلوها تلك المنزلة العظيمة التي تقصر عنها المنازل و رووا في فضلها ما ملأ المطامير و سارت به الركبان حتى جعلوها المرجع الأكبر للأمة الإسلامية لان عندها وحدها نصف الدين .

و لعل نصف الدين الثاني خصوا به أبا هريرة الذي روى لهم ما يشتهون فقربوه و ولوه إمارة المدينة و بنوا له قصر العقيق بعد ما كان معدما ، و لقبوه براوية الإسلام .

و بذلك سهل على بني أمية أن يكون لهم دين كامل جديد ليس فيه من كتاب الله و سنة رسوله إلا ما تهواه أنفسهم و يتقوى به ملكهم و سلطانهم و خليق بهذا الدين أن يكون لعبا و هزوا مليئا بالمتناقضات و الخرافات ، و بذلك طمست الحقائق و حلت محلها الظلمات ، و قد حملوا الناس عليها و أغروهم بها حتى أصبح دين الله عندهم مهزلة من المهازل لا يقيمون له وزنا و لا يخافون من الله كخوفهم من معاوية .

و عندما نسأل بعض علمائنا عن حرب معاوية لعلي و قد بايعه المهاجرون و الأنصار ، تلك الحرب الطاحنة التي سببت انقسام المسلمين إلى سنة و شيعة و انصدع الإسلام و لم يلتئم حتى اليوم ، فإنهم يجيبون كالعادة و بكل سهولة قائلين : إن عليا و معاوية صحابيان جليلان اجتهدا فعلي اجتهد و أصاب فله أجران أما معاوية فاجتهد و أخطأ و له أجر واحد .

و ليس من حقنا نحن أن نحكم لهم أو عليهم و قد قال الله تعالى : { تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ } .

هكذا – و للأسف – تكون إجاباتنا و هي كما ترى سفسطة لا يقول بها عقل و لا دين و لا يقر بها شرع ، اللهم إني أبرأ إليك من خطل الآراء و زلـــل الأهواء

و { أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ } .

كيف يحكم العقل السليم باجتهاد معاوية و يعطيه أجراً على حربه إمـــام المسلمين و قتله المؤمنين الأبرياء و ارتكابه الجرائم و الآثام التي لا يحصي عـــددها إلا الله و قد اشتهر عند المؤرخين بقتله معارضيه و تصفيتهم بطريقته المشهورة و هو إطعامهم عسلا مسموما و كان يقول : " إن لله جنودا من عسل " .

كيف يحكم هؤلاء باجتهاده و يعطونه أجرا و قد كان إمام الفئة الباغية ؟ ففي الحديث المشهور الذي أخرجه كل المحدثين من السنة و الشيعة و سواهم : " ويح عمار تقتله الفئة الباغية " و لم يختلف اثنان من المسلمين على أن الذي قتـــل عمارا و أصحابه هو معاوية ! كيف يحكمون باجتهاده و قد قتل حجر بن عدي و أصحابه صبرا و دفنهم في مرج عذراء ببادية الشام لأنهم امتنعوا عن سب علي بن أبي طالب .

كيف يريدونه صحابيا عادلا و قد دس السم للحسن بن علي سيد شباب أهل الجنة و قتله .

كيف يترهونه و قد أخذ البيعة من الأمة بالقوة و القهر لنفسه أولا ثم لابنه الفاسق يزيد من بعده و بدل نظام الشورى بالملكية القيصرية [1] .

كيف يحكمون باجتهاده و يعطونه أجرا و قد حمل الناس على لعن علي و أهل البيت ذرية المصطفى من فوق المنابر ، و قتل الصحابة الذين امتنعوا عن ذلك و أصبحت سنة متبعة يهرم عليها الكبير و يشيب عليها الصغير فلا حـــول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم .

---

[1] راجع : الخلافة و الملك للمودودي . و يوم الإسلام لأحمد الأمين .

و السؤال يعود دائما و يتكرر و يلح : ترى أي الفريقين علـــى الحـــق و أيهما على الباطل ؟ فإما أن يكون علي و شيعته ظالمين و على غير الحق .

و إما أن يكون معاوية و أتباعه ظالمين و على غير الحق ، و قـــد أوضـــح رسول الله (صلى الله عليه و آله) كل شيء .

و في كلا الحالين فإن عدالة الصحابة كلهم من غير استثناء أمر مستحيل ، لا ينسجم مع المنطق السليم .

و لكل هذه المواضيع أمثلة كثيرة لا يحصي عـــددها إلا الله و لـــو أردت الدخول في التفصيل و بحث هذه المواضيع من كل جوانبها لاحتجت إلى مجلدات كثيرة و لكنني رمت الاختصار و أخذت في هذا البحث بعض الأمثلـــة و هـــي بحمد الله كافية لإبطال مزاعم قومي الذين جمدوا فكري ردحـــا مـــن الـــزمن و حجروا علي أن أفقه الحديث أو أحلل الأحداث التاريخية بميزان العقل و المقاييس الشرعية التي علمنا إياها القرآن الكريم و السنة النبوية الشريفة .

و لذلك سوف أتمرد على نفسي و أنفض عني غبار التعصب الذي غلفوني به و أتحرر من القيود و الأغلال التي كبلوني بها أكثر من عشرين عاما و لـــسان حالي يقول لهم : يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي و جعلني من المكرمين .

يا ليت قومي اكتشفوا العالم الذي يجهلونه و يعادونه دون أن يعرفوه .

* * *

بداية التحول

بقيت متحيرا ثلاثة أشهر مضطربا حتى في نومي تتجاذبني الأفكار و تموج بي الظنون و الأوهام خائفا على نفسي من بعض الصحابة الذين أحقق في تاريخهم فأقف على بعض المفارقات المذهلة في سلوكهم ، لان التربية التي تلقيتها طيلة حياتي تدعوني إلى احترام أولياء الله و الصالحين من عباده و تقديسهم ، الذين (يؤذون) من يقول فيهم سوءا أو يسيء إليهم الأدب حتى في غيابهم و إن كانوا موتى .

و لقد قرأت في ما سبق في كتاب حياة الحيوان الكبرى للدميري [1] : أن رجلا كان يشتم عمر بن الخطاب و كان أصحابه في القافلة ينهونه فلما ذهب يتبول لدغه أسود سالخ فمات لحينه و حفروا له لدفنه فوجدوا في القبر أسود سالخا ثم حفروا قبورا أخرى و في كل مرة يجدون أسود سالخا ، فقال لهم أحد العارفين ادفنوه أنى شئتم فلو حفرتم الأرض كلها لوجدتم أسود سالخا ذلك ليعذبه الله في الدنيا قبل الآخرة على شتمه سيدنا عمر .

و لذلك وجدتني و أنا أقحم نفسي في هذا البحث العسير خائفا محتارا و خصوصا لأنني تعلمت في الفرع الزيتوني بأن أفضل الخلفاء على التحقيق سيدنا أبو بكر الصديق ثم يأتي بعده سيدنا عمر بن الخطاب الفاروق الذي يفرق الله به بين الحق و الباطل ، ثم بعده سيدنا عثمان بن عفان ذو النورين الذي استحت منه

[1] كتاب حياة الحيوان الكبرى للدميري . هذه القصة توجد في حديثه عن الأسود السالخ .

ملائكة الرحمن ، ثم بعده سيدنا علي باب مدينة العلم ، ثم يأتي بعد هؤلاء الأربعة الستة الباقون من العشرة المبشرين بالجنة و هم ، طلحة و الزبير و سعد و سعيد ، و عبد الرحمن ، و أبو عبيدة ، ثم يأتي بعد هؤلاء الصحابة جميعا ، و كثيرا ما كانوا يعلموننا الاستدلال بالآية الكريمة (لا نفرق بين أحد من رسله) على وجوب النظر إلى بقية الصحابة بالمنظار نفسه دون خدش أي واحد منهم .

و على هذا خشيت على نفسي و استغفرت ربي مرات عديدة أردت فيها الانقطاع عن البحث في مثل هذه الأمور التي تشككني في صحابة رسول الله و بالتالي تشككني في ديني و لكني وجدت من خلال الحديث مع بعض العلماء طيلة تلك المدة تناقضات لا يقبلها العقل و بدأوا يحذرونني من أنني إن واصلت البحث في أحوال الصحابة فسوف يسلب الله نعمته عني و يهلكني ، و من كثرة معاندهم و تكذيبهم كل ما أقول دفعني فضولي العلمي و حرصي على بلوغ الحقيقة إلى أن أقحم نفسي من جديد في البحث و وجدت قوة داخلية تدفعني دفعا .

* * *

محاورة مع عالم

قلت لأحد علمائنا : إذا كان معاوية قتل الأبرياء و هتك الأعراض و تحكمون بأنه اجتهد و أخطأ و له أجر واحد .

و إذا كان يزيد قتل أبناء الرسول و أباح المدينة لجيشه و تحكمون بأنه اجتهد و أخطأ و له أجر واحد حتى قال بعضكم : " قتل الحسين بسيف جده " لتبرير فعل يزيد .

فلماذا لا أجتهد أنا في البحث و هو ما يجرني للشك في الصحابة و تعرية البعض منهم و هذا لا يقاس بالنسبة للقتل الذي فعله معاوية و ابنه يزيد في العترة الطاهرة ، فإن أصبت فلي أجران و إن أخطأت فلي أجر " واحد " ، على أن انتقاصي لبعض الصحابة لا أريد منه السب و الشتم و اللعن ، و إنما أريد الوصول إلى الحقيقة لمعرفة الفرقة الناجية من بين الفرق الضالة .

و هذا واجبي و واجب كل مسلم ، و الله سبحانه يعلم السرائر و ما تخفى الصدور .

أجابني العالم قائلا :

- يا بني لقد أغلق باب الاجتهاد من زمان .
- فقلت و من أغلقه ؟ .
- قال الأئمة الأربعة .

– فقلت متحررا : الحمد لله إذ لم يكن الله هو الذي أغلقه و لا رسول الله و لا الخلفاء الراشدون الذين " أمرنا بالإقتداء بهم " فليس علي حرج إذا اجتهدت كما اجتهدوا .

– فقال : لا يمكنك الاجتهاد إلا إذا عرفت سبعة عشر علما ، منها علم التفسير و اللغة و النحو و الصرف و البلاغة و الأحاديث و التاريخ و غير ذلك .

– و قاطعته قائلا : أنا لن اجتهد لأبين للناس أحكام القرآن و السنة أو لأكون صاحب مذهب في الإسلام ، كلا ، و لكن لأعرف من على الحق و من على الباطل ، و لمعرفة إن كان الإمام علي على الحق ، أو معاوية مثلا و لا يتطلب ذلك الإحاطة بسبعة عشر علما ، و يكفي أن أدرس حياة كل منهما و ما فعلاه حتى أتبين الحقيقة .

– قال : و ما يهمك أن تعرف ذلك (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت و لكم ما كسبتم و لا تسألون عما كانوا يعملون) .

قلت : أتقرأ " و لا تسألون " بفتح التاء أم بضمها ؟ .

– قال : تُسألون بالضم .

قلت : الحمد لله لو كانت بالفتح لامتنع البحث ، و ما دامت بالضم فمعناها أن الله سبحانه سوف لن يحاسبنا عما فعلوا و ذلك كقوله تعالى : (كل نفس بما كسبت رهينة) و (أن ليس للإنسان إلا ما سعى) .

و قد حثنا القرآن الكريم على استطلاع أخبار الأمم السابقة و لنستخلص منها العبرة ، و قد حكى الله لنا عن فرعون و هامان و نمرود و قارون و عن الأنبياء السابقين و شعوبهم ، لا للتسلية و لكن ليعرفنا الحق من الباطل .

أما قولك " و ما يهمني من هذا البحث " ؟ .

فأجيب عليه بقولي : يهمني :

* أولاً

: لكي أعرف ولي الله فأواليه و أعرف عدو الله فأعاديه و هذا ما طلبـــه مني القرآن بل أوجبه علي . .

* ثانيا

: يهمني أن أعرف كيف أعبد الله و أتقرب إليه بالفرائض التي افترضها و كما يريدها هو جل و علا لا كما يريدها مالك أو أبو حنيفة أو غيرهم من المجتهدين لأني وجدت مالكا يقول بكراهة البسملة في الصلاة بينما يقول أبو حنيفة بوجوبها ، و يقول غيره ببطلان الصلاة بدونها و بما أن الصلاة هي عمود الدين إن قبلت قبل ما سواها و إن ردت رد ما سواها ، فلا أريد أن تكون صلاتي باطلة ، كما أن الشيعة يقولون بمسح الرجلين في الوضوء و يقول السنة بغسلهما بينما نقرأ في القرآن (و امسحوا برؤوسكم و أرجلكم) و هي صريحة في المسح ، فكيف تريد يا سيدي أن يقبل المسلم العاقل قول هذا و يرد قول ذاك بدون بحث و دليل .

– قال : بإمكانك أن تأخذ من كل مذهب ما يعجبك لأنها مذاهب إسلامية و كلهم من رسول الله ملتمس .

– قلت : أخاف أن أكون ممن قال الله فيهم : { أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ }[1] . يا سيدي أنا لا أعتقد بأن المذاهب كلها على حق مادام الواحد منهم يبيح الشيء و يحرمه الآخر ، فلا يمكن أن يكون الشيء حراما و حلالا في آن واحد و الرسول (صلى الله عليه و آله) لم يتناقض في أحكامه لأنه " وحي من القرآن " { وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ

[1] سورة الجاثية (٤٥) ، الآية : ٢٣ .

اخْتِلاَفًا كَثِيرًا } [1] ، و بما أن المذاهب الأربعة فيها اختلاف كثير فليست من عند الله و لا من عند رسوله لان الرسول لا يناقض القرآن .

و لما رأى الشيخ العالم كلامي منطقيا و حجتي مقبولة .

– قال : أنصحك لوجه الله تعالى مهما شككت فلا تشك في الخلفاء الراشدين فهم أعمدة الإسلام الأربعة إذا هدمت عمودا منها سقط البناء . .

– قلت : استغفر الله يا سيدي فأين رسول الله إذن إذا كان هؤلاء هم أعمدة الإسلام ؟ .

[1] سورة النساء (٤) ، الآية : ٨٢ .

أجاب : رسول الله هو ذاك البناء ! هو الإسلام كله .

ابتسمت من هذا التحليل و قلت : استغفر الله مرة أخرى يا سيدي الشيخ فأنت تقول من حيث لا تشعر بأن رسول الله (صلى الله عليه و آله) لم يكن ليستقيم إلا بهؤلاء الأربعة بينما يقول الله تعالى : { هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا } [1] .

فقد أرسل محمدا بالرسالة و لم يشركه فيها أحدا من هؤلاء الأربعة و لا من غيرهم و قد قال الله تعالى في هذا الصدد : { كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ } [2] .

– قال : هذا ما تعلمناه نحن من مشايخنا و أئمتنا ، و لم نكن نحن في جيلنا نناقش و لا نجادل العلماء مثلكم اليوم الجيل الجديد أصبحتم تشكون في كل شيء و تشككون في الدين ، و هذه من علامات الساعة فقد قال (صلى الله عليه و آله) : " لن تقوم الساعة إلا على شرار الخلق " .

– فقلت : يا سيدي لماذا هذا التهويل أعوذ بالله أن أشك في الدين أو أشكك فيه ، فقد آمنت بالله وحده لا شريك له و ملائكته و كتبه و رسله ، و آمنت بأن سيدنا محمدا عبده و رسوله و هو أفضل الأنبياء و المرسلين و خاتمهم و أنا من المسلمين ، فكيف تتهمني بهذا ؟ .

---

[1] سورة الفتح (٤٨) ، الآية : ٢٨ .

[2] سورة البقرة (٢) ، الآية : ١٥١ .

– قال : أتهمك بأكثر من هذا لأنك تشكك في سيدنا أبي بكر و سيدنا عمر و قد قال (صلى الله عليه و آله) : " لو وزن إيمان أمتي بإيمان أبي بكر لرجح إيمان أبي بكر " .

و قال في حق سيدنا عمر : " عرضت عليّ أمتي و هي ترتدي قمصا لم تبلغ الثدي و عرض عليّ عمر و هو يجر قميصه ، قالوا ما أوَّلته يا رسول الله قال : الدين " .

و تأتي أنت اليوم في القرن الرابع عشر لتشكك في عدالة الصحابة و بالخصوص أبي بكر و عمر .

ألم تعلم بأن أهل العراق هم أهل الشقاق ، هم أهل الكفر و النفاق ! ! .

– ماذا أقول لهذا العالم المدعي العلم الذي أخذته العزة بالإثم ، فتحول من الجدال بالتي هي أحسن إلى التهريج و الافتراء و بث الإشاعات أمام مجموعة من الناس المعجبين به و الذين احمرت أعينهم و انتفخت أوداجهم و لاحظت في وجوههم الشر .

فما كان مني إلا أن أسرعت إلى البيت و أتيتهم بكتاب الموطأ للإمام مالك و صحيح البخاري و قلت يا سيدي : إن الذي بعثني على هذا الشك هو رسول الله نفسه و فتحت كتاب الموطأ و فيه روى مالك أن رسول الله (صلى الله عليه و آله) قال لشهداء أحد : هؤلاء أشهد عليهم ، فقال أبو بكر الصديق ، ألسنا يا رسول الله إخوانهم أسلمنا كما أسلموا ، و جاهدنا كما جاهدوا ، فقال رسول الله (صلى الله عليه و آله) : بلى و لكن لا أدري ما تحدثون بعدي ! فبكى أبو بكر ثم بكى ثم قال : " إننا لكائنون بعدك " [1] .

ثم فتحت صحيح البخاري و فيه دخل عمر بن الخطاب على حفصة و عندها أسماء بنت عميس فقال – حين رآها – من هذه ؟ قالت : أسماء بنت عميس ، قال عمر : الحبشية هذه ، البحرية هذه .

قالت أسماء نعم ، قال سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله منكم .

فغضبت و قالت كلا والله ، كنتم مع رسول الله يطعم جائعكم و يعظ جاهلكم و كنا في دار أو في أرض البعداء البغضاء بالحبشة و ذلك في الله و في

[1] موطأ الإمام مالك ج ١ ص ٣٠٧ . المغازي للواقدي ص ٣١٠ .

رسوله و أيم الله لا أطعم طعاما و لا أشرب شرابا حتى أذكر رسول الله (صلى الله عليه و آله) و نحن كنا نؤذى و نخاف و سأذكر ذلك للنبي أسأله و الله لا أكـــذب و لا أزيغ و لا أزيد عليه ، فلما جاء النبي (صلى الله عليه و آله) قالت يا نبي الله ، عمر قـــال كذا و كذا

قال فما قلت له قالت كذا و كذا .

قال : ليس بأحق بي منكم و له و لأصحابه هجرة واحدة و لكم أنتم أهل السفينة هجرتان قالت فلقد رأيت أبا موسى و أصحاب السفينة يأتونني أرسالا يسألونني عن هذا الحديث ما من الدنيا شيء هم به أفرح و لا أعظم ما في أنفسهم مما قال لهم النبي (صلى الله عليه و آله) [1] .

و بعد ما قرأ الشيخ العالم و الحاضرون معه الأحاديث تغيرت وجوههم و بدأوا ينظرون بعضهم إلى بعض ينتظرون رد العالم الذي صُدم فما كان منه إلا أن رفع حاجبيه علامة التعجب و قال : (و قل رب زدني علما) .

فقلت : إذا كان رسول الله (صلى الله عليه و آله) هو أول من شك في أبي بكر و لم يشهد عليه لأنه لا يدري ماذا سوف يحدث من بعده ، و إذا كان رسول الله (صلى الله عليه و آله) لم يقر بتفضيل عمر بن الخطاب على أسماء بنت عميس بل فضلها عليه ، فمن حقي أن أشك و أن لا أفضل أحدا حتى أتبين و أعرف الحقيقة و من المعلوم أن هذين الحديثين يناقضان كل الأحاديث الواردة في فضل أبي بكر و عمر و يبطلانها ، لأنهما أقرب إلى الواقع المعقول من أحاديث الفضائل المزعومة ، قال الحاضرون ! و كيف ذلك ؟ .

قلت : إن رسول الله (صلى الله عليه و آله) لم يشهد على أبي بكر و قال له إنني لا أدري ماذا تحدثون بعدي ! فهذا معقول جدا و قد قرر ذلك القرآن الكريم و التاريخ يشهد أنهم بدلوا بعده و لذلك بكى أبو بكر و قد بدل و أغضب فاطمة الزهراء بنت الرسول – كما سبق – و قد بدل حتى ندم قبل وفاته و تمنى أن لا يكون بشرا .

---

[1] صحيح البخاري ج ٣ ص ٣٨٧ باب غزوة خيبر .

أما الحديث الذي يقول : " لو وزن إيمان أمتي بإيمان أبي بكر لرجح إيمـــان أبي بكر " فهو باطل و غير معقول ، و لا يمكن أن يكون رجل قضى أربعين سنة من عمره يشرك بالله و يعبد الأصنام أرجح إيمانا من أمة محمد بأسرها ، و فيهـــا أولياء الله الصالحين و الشهداء و الأئمة الذين قضوا أعمارهم كلـــها جهـــادا في سبيل الله ،

ثم أين أبو بكر من هذا الحديث ؟ لو كان صحيحا لما كان في آخر حياته يتمنى أن لا يكون بشرا .

و لو كان إيمانه يفوق إيمان الأمة ما كانت سيدة النساء ، فاطمة بنت الرسول (صلى الله عليه و آله) ، تغضب عليه و تدعو الله عليه في كل صلاة تصليها .

و لم يرد العالم بشيء ، و لكن بعض المجالسين قالوا : لقد بعث – و الله – هذا الحديث الشك فينا ، عند ذلك تكلم العالم ليقول لي : أ هذا ما تريده ؟ لقد شككت هؤلاء في دينهم و كفاني أحدهم الرد عليه إذ قال : كلا ، إن الحق معه ، نحن لم نقرأ في حياتنا كتابا كاملا ، و اتبعناكم و اقتدينا بكم في ثقة عمياء بدون نقاش ، و قد تبين لنا الآن أن ما يقوله الحاج صحيح ، فمن واجبنا أن نقرأ و نبحث ! ! و وافقه على رأيه بعض الحاضرين ، و كان ذلك انتصارا للحق و الحقيقة ، و لم يكن انتصارا بالقوة و القهر و لكنه انتصار العقل و الحجة و البرهان (و قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) .

ذلك ما دفعني و شجعني على الدخول في البحث و فتح الباب على مصراعيه فدخلته باسم الله و بالله و على ملّة رسول الله ، راجيا منه سبحانه و تعالى التوفيق و الهداية فهو الذي وعد بهداية كل باحث عن الحق و هو لا يخلف وعده .

قرأت كتاب المراجعات للإمام شرف الدين و راجعته عدة مرات و قد فتح أمامي آفاقا سببت هدايتي و شرحت صدري لحب أهل البيت و مودتهم .

و قرأت كتاب الغدير للشيخ الأميني و أعدته ثلاث مرات لما فيه من حقائق دامغة واضحة جلية و قرأت كتاب فدك في التاريخ للسيد محمد باقر الصدر و كتاب السقيفة للشيخ محمد رضا المظفر و فهمت منهما أسرارا غامضة اتضحت ، كما قرأت كتاب النص و الاجتهاد فازددت يقينا ثم قرأت كتاب

أبي هريرة لشرف الدين و شيخ المضيرة للشيخ محمود أبو ريَّة المصري و عرفت أن الصحابة الذين غيروا بعد رسول الله قسمان ، قسم غير الأحكام بما له من السلطة و القوة الحاكمة ، و قسم غير الأحكام بوضع الأحاديث المكذوبة على رسول الله (صلى الله عليه و آله) .

ثم قرأت كتاب الإمام الصادق و المذاهب الأربعة لأسد حيدر و عرفت

الفرق بين العلم الموهوب و العلم المكسوب عرفت الفرق بين حكمة الله التي يؤتيها من يشاء و بين التطفل على العلم و الاجتهاد بالرأي الذي أبعد الأمة عن روح الإسلام .

و قرأت كتبا أخرى عديدة للسيد جعفر مرتضى العاملي و السيد مرتضى العسكري و السيد الخوئي و السيد الطباطبائي و الشيخ محمد أمين زين الدين و للفيروز آبادي و لابن أبي الحديد المعتزلي في شرحه لنهج البلاغة و الفتنة الكبرى لطه حسين ، و من كتب التاريخ قرأت تاريخ الطبري و تاريخ ابن الأثير و تاريخ المسعودي و تاريخ اليعقوبي ، و قرأت الكثير حتى اقتنعت بأن الشيعة الإمامية على حق فتشيعت و ركبت على بركة الله سفينة أهل البيت و تمسكت بحبل ولائهم لأني وجدت بحمد الله البديل عن بعض الصحابة الذين ثبت عندي أنهم ارتدوا على أعقابهم القهقرى و لم ينج منهم إلا القليل و أبدلتهم بأئمة أهل البيت النبوي الذين أذهب الله عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا و افترض مودتهم على الناس أجمعين .

فالشيعة ليسوا كما يدعي بعض علمائنا ، هم الفرس و المجوس الذين حطم سيدنا عمر كبرياءهم و مجدهم و عظمتهم في حرب القادسية و لذلك يبغضونه و يكرهونه ! .

و أجبت هؤلاء الجاهلين بأن التشيع لأهل البيت النبوي لا يختص بالفرس بل الشيعة في العراق و في الحجاز و في سوريا و لبنان كل هؤلاء عرب كما يوجد الشيعة في الباكستان و الهند و في أفريقيا و أمريكا و كل هؤلاء ليسوا من العرب و لا من الفرس .

و لو اقتصرنا على شيعة إيران فإن الحجة تكون أبلغ إذ أني وجدت الفرس يقولون بإمامة الأئمة الإثني عشر و كلهم من العرب من قريش من بني

هاشم عترة النبي ، فلو كان الفرس متعصبين و يكرهون العـــرب كمـــا يـــدعي البعض لاتخذوا سلمان الفارسي إماما لهم لأنه منهم و هو صحابي جليل عـــرف قدره كل من الشيعة و السنة على حد سواء .

بينما وجدت أهل السنة و الجماعة ينقطعون في الإمامة إلى الفرس فأغلب

أئمتهم من الفرس كأبي حنيفة و الإمام النسائي و الترمذي و البخاري و مسلم و ابن ماجة و الرازي و الإمام الغزالي و ابن سينا و الفارابي و غيرهم كثيرون يضيق بهم المقام فإذا كان الشيعة من الفرس يرفضون عمر بن الخطاب لأنه حطم كبرياءهم و عظمتهم فبماذا نفسر رفض الشيعة له من العرب و غير الفرس فهذه دعوى لا تقوم على دليل ، و إنما رفض هؤلاء عمر للدور الذي قام به في إبعاد أمير المؤمنين و سيد الوصيين علي بن أبي طالب عن الخلافة بعد رسول الله (صلى الله عليه و آله) و ما سبب ذلك من فتن و محن و قلاقل و انحلال لهذه الأمة و يكفي أن يزاح الحجاب عن أي باحث حر و تكشف له الحقيقة حتى يرفضه بدون عداوة سابقة .

و الحق إن الشيعة سواء كانوا من الفرس أم من العرب أم من غير هؤلاء قد خضعوا للنصوص القرآنية و النصوص النبوية و اتبعوا إمام الهدى و أولاده مصابيح الدجى و لم يرضوا بغيرهم رغم سياسة الترغيب و الترهيب التي قادها الأمويون و من بعدهم العباسيون طيلة سبعة قرون تتبعوا خلالها الشيعة تحت كل حجر و مدر و قتلوهم و شردوهم و منعوهم العطاء و محوا آثارهم و أثاروا حولهم الإشاعات و الدعايات التي تنفر الناس منهم و بقيت هذه الآثار حتى اليوم .

و لكن الشيعة ثبتوا و صمدوا و صبروا و تمسكوا بالحق لا تأخذهم في الله لومة لائم و هم يدفعون حتى اليوم ثمن هذا الصمود ، و إني أتحدى أي عالم من علمائنا أن يجلس مع علمائهم و يجادلهم فلا يخرج إلا مستبصرا بالهدى الذي هم عليه .

نعم وجدت البديل و الحمد لله الذي هداني لهذا و ما كنت لأهتدي لولا أن هداني الله .

الحمد لله و الشكر له على أن دلني على الفرقة الناجية التي كنت أبحث عنها بلهف و لم يبق عندي أي شك في أن المتمسك بعلي و أهل البيت قد تمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، و النصوص النبوية على ذلك كثيرة أجمع عليها المسلمون ، و العقل وحده خير دليل لمن ألقى السمع و هو شهيد ، فعلي كان أعلم الصحابة و أشجعهم على الإطلاق و ذلك بإجماع الأمة ، و هذا وحده كاف للدلالة على أحقيته (عليه السلام) للخلافة دون غيره ، قال الله تعالى : { وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ

بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [1] .

و قد قال رسول الله (صلى الله عليه و آله) :

" إن عليا مني و أنا منه و هو و لي كل مؤمن من بعدي " [2] .

و قال الإمام الزمخشري في أبيات له :

كثر الشك و الخلاف و كلٌ * يدعى أنه الصراط السوي
فتمسكت بلا إله إلا الله * و حبي لأحمد و علي
فاز كلب بحب أصحاب كهف * كيف أشقى بحب آل النبي

نعم وجدت البديل بحمد الله ، و صرت اقتدي – بعد رسول الله – بأمير المؤمنين و سيد الوصيين و قائد الغر المحجلين أسد الله الغالب الإمام علي بن أبي طالب و بسيدي شباب أهل الجنة و ريحانتي النبي من هذه الأمة الإمام أبي محمد الحسن الزكي و الإمام أبي عبد الله الحسين و ببضعة المصطفى سلالة النبوة و أم الأئمة معدن الرسالة و من يغضب لغضبها رب العزة و الجلالة سيدة النساء فاطمة الزهراء .

و أبدلت الإمام مالك بأستاذ الأئمة و معلم الأمة الإمام جعفر الصادق .

و تمسكت بالأئمة التسعة المعصومين من ذرية الحسين أئمة المسلمين و أولياء الله الصالحين .

---

[1] سورة البقرة (٢) ، الآية : ٢٤٧ .

[2] صحيح الترمذي ج ٥ ص ٢٩٦ خصائص النسائي ص ٨٧ مستدرك الحاكم ج ٣ ص ١١٠ .

و أبدلت الصحابة المنقلبين على أعقابهم أمثال معاوية و عمرو بن العاص ، و المغيرة بن شعبة و أبي هريرة و عكرمة و كعب الأحبار و غيرهـــم بالـــصحابة الشاكرين الذين لم ينقضوا عهد النبي أمثال عمار بن ياسر و سلمان الفارســـي و أبي ذر الغفاري

و المقداد بن الأسود و خزيمة بن ثابت ذي الشهادتين و أُبي بن كعب و غيرهم و الحمد لله على هذا الإستبصار .

و أبدلت علماء قومي ، الذين جمدوا عقولنا و اتبع كثير منهم السلاطين و الحكام في كل زمان ، بعلماء الشيعة الأبرار الذين ما أغلقوا يوما باب الاجتهاد و لا وهنوا و لا استكانوا للأُمراء و السلاطين الظالمين .

نعم أبدلت أفكارا متحجرة متعصبة تؤمن بالتناقضات بأفكار نيرة متحررة و متفتحة تؤمن بالدليل و الحجة و البرهان .

و كما يقال في عصرنا الحاضر : " غسلت دماغي " من أوساخ كثّفتها عليه – طوال ثلاثين عاما – أضاليل بني أمية و طهرته بعقيدة المعصومين الذين أذهب الله عنهم الرجس و طهرهم تطهيرا لما تبقى من حياتي " .

اللهم أحينا على ملتهم و أمتنا على سنتهم و احشرنا معهم فقد قال نبيك (صلى الله عليه و آله) " يحشر المرء مع من أحب " .

و بذلك أكون قد رجعت إلى أصلي ، فقد كان أبي و أعمامي يحدثوننا حسب الشجرة التي يعرفونها أنهم من السادة الذين هربوا من العراق تحت الضغط العباسي و لجأوا إلى شمال أفريقيا حيث أقاموا في تونس و بقيت آثارهم حتى اليوم .

و هناك في شمال أفريقيا كثيرون مثلنا يسمون الأشراف لأنهم من السلالة الطاهرة و لكنهم تاهوا في ضلالات الأمويين و العباسين و لم يبق عندهم من الحقيقة شيء إلا ذلك الاحترام و التقدير الذي يكنه لهم الناس ، فالحمد لله على هدايته و الحمد لله على إستبصاري و فتح بصري و بصيرتي على الحقيقة .

* * *

أسباب الإستبصار

أما الأسباب التي دعتني للإستبصار فكثيرة جدا و لا يمكن لي في هذه العجالة إلا ذكر بعض الأمثلة منها :

١ – النص على الخلافة

لقد آليت على نفسي عند الدخول في هذا البحث أن لا أعتمد إلا ما هو موثوق عند الفريقين و أن أطرح ما انفردت به فرقة دون الأخرى ، و على ذلك أبحث في فكرة التفضيل بين أبي بكر و علي بن أبي طالب و أن الخلافة إنما كانت بالنص على علي كما يدعي الشيعة أو بالانتخاب و الشورى كما يدعي أهل السنة و الجماعة .

و الباحث في هذا الموضوع إذا تجرد للحقيقة فإنه سيجد النص على علي بن أبي طالب واضحا جليا كقوله (صلى الله عليه و آله) : " من كنت مولاه فهذا علي مولاه " قال ذلك بعد ما انصرف من حجة الوداع فعقد لعلي موكب للتهنئة حتى أن أبا بكر نفسه و عمر كانا من جماعة المهنئين للإمام و يقولان : " بخ بخ لك يا أبن أبي طالب أصبحت و أمسيت مولى كل مؤمن و مؤمنة " [١] .

---

[١] مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٤ ص ٢٨١ سر العالمين للإمام الغزالي ص ١٢ . تذكرة الخواص لابن الجوزي ص ٢٩ الرياض النضرة للطبري ج ٢ ص ١٦٩ كتر العمال ج ٦ ص ٣٩٧ البداية و النهاية لابن كثير ج ٥ ص ٢١٢ تاريخ ابن عساكر ج ٢ ص ٥٠ تفسير الرازي ج ٣ ص ٦٣ الحاوي للفتاوي للسيوطي ج ١ ص ١١٢ .

و هذا النص مجمع عليه من الشيعة و السنة ، و لم أخرج أنا في البحث – هذا – إلا مصادر أهل السنة و الجماعة و مع ذلك لم أذكر المصادر كلها فهي أكثر بكثير مما ذكرت ، و للإطلاع على مزيد من التفصيل أدعو القارئ إلى مطالعة كتاب الغدير للعلامة الأميني و قد طبع منه ثلاثة عشر مجلدا يحصي فيها المصنف رواة هذا الحديث من طريق أهل السنة و الجماعة .

أما الإجماع المدعى على انتخاب أبي بكر يوم السقيفة ثم مبايعته بعد ذلك في المسجد ، فإنه دعوى بدون دليل ، إذ كيف يكون الإجماع و قد تخلف عن البيعة علي و العباس و سائر بني هاشم كما تخلف أسامة بن زيد و الزبير و سلمان الفارسي و أبو ذر الغفاري و المقداد بن الأسود و عمار بن ياسر و حذيفة بن اليمان و خزيمة بن ثابت و أبو بريدة الأسلمي و البراء بن عازب و أُبي بن كعب و سهل بن حنيف و سعد بن عبادة و قيس بن سعد و أبو أيوب الأنصاري و جابر بن عبد الله و خالد بن سعيد و غير هؤلاء كثيرون [1] .

فأين الإجماع المزعوم يا عباد الله ؟ على أنه لو كان علي بن أبي طالب وحده تخلف عن البيعة لكان ذلك كافيا للطعن في ذلك الإجماع إذ أنه المرشح الوحيد للخلافة من قبل الرسول على فرض عدم وجود النص المباشر عليه .

و إنما كانت بيعة أبي بكر عن غير مشورة بل وقعت على حين غفلة من الناس و خصوصا أولي الحل و العقد منهم كما يسميهم علماء المسلمين إذ كانوا مشغولين بتجهيز الرسول و دفنه ، و قد فوجئ سكان المدينة المنكوبة بموت نبيهم

[1] تاريخ الطبري ، تاريخ ابن الأثير ، تاريخ الخلفاء ، تاريخ الخميس ، الاستيعاب ، و كل من ذكر بيعة أبي بكر .

و حمل الناس على البيعة بعد ذلك قهرا [1] . كما يشعرنا بذلك تهديدهم بحرق بيت فاطمة إن لم يخرج المتخلفون عن البيعة فكيف يجوز لنا بعد هذا أن نقول بأن البيعة كانت بالمشورة و بالإجماع .

و قد شهد عمر بن الخطاب نفسه بأن تلك البيعة كانت فلتة وقى الله

[1] تاريخ الخلفاء لابن قتيبة ج ١ ص ١٨ .

المسلمين شرها ، و قال فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه ، أو قال فمن دعا إلى مثلها فلا بيعة له و لا لمن بايعه [١] .

و يقول الإمام علي في حقها : " أما و الله لقد تقمصها ابن أبي قحافة و إنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى ينحدر عني السيل و لا يرقى إلي الطير [٢] .

و يقول سعد بن عبادة سيد الأنصار الذي هاجم أبا بكر و عمر يوم السقيفة و حاول بكل جهوده أن يمنعهم و يبعدهم عن الخلافة و لكنه عجز عن مقاومتهم لأنه كان مريضا لا يقدر على الوقوف ، و بعدما بايع الأنصار أبا بكر قال سعد : و الله لا أبايعكم أبدا حتى أرميكم بكل سهم في كنانتي من نبل ، و أخضب سناني و رمحي ، و أضربكم بسيفي ما ملكته يدي ، و أقاتلكم بمن معي من أهلي و عشيرتي و لا و الله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس ما بايعتكم حتى أعرض على ربي ، فكان لا يصلي بصلاتهم و لا يجتمع بجمعتهم ، و لا يفيض بإفاضتهم ، و لو يجد عليهم أعوانا لطال بهم ، و لو بايعه أحد على قتالهم لقاتلهم ، و لم يزل كذلك حتى قتل بالشام في خلافة عمر [٣] .

فإذا كانت هذه البيعة فلتة وقى الله المسلمين شرها على حد تعبير عمر الذي شيد أركانها و عرفت ما آلت إليه أمور المسلمين بسببها .

و إذا كانت هذه الخلافة تقمصا – من قبل أبي بكر – كما وصفها الإمام علي إذ قال بأنه هو صاحبها الشرعي .

---

[1] صحيح البخاري ج ٤ ص ١٢٧ .

[2] شرح نهج البلاغة لمحمد عبده ج ١ ص ٣٤ الخطبة الشقشقية .

[3] تاريخ الخلفاء ج ١ ص ١٧ .

و إذا كانت هذه البيعة ظلما كما اعتبرها سعد بن عبادة سـيد الأنـصار الذي فارق الجماعة بسببها .

و إذا كانت هذه البيعة غير شرعية لتخلف أكابر الصحابة و العباس عـم النبي عنها .

فما هي إذن الحجة في صحة خلافة أبي بكر ؟ و الجواب لا حجة هنـــاك عند أهل السنة و الجماعة .

فقول الشيعة إذن هو الصحيح في هذا الموضوع ، لأنه ثبت وجود الـــنص على خلافة علي عند السنة أنفسهم ، و قد تأولوه حفاظا على كرامة الصحابة ، فالمنصف العادل لا يجد مناصا من قبول النص و بالأخص إذا عرف ملابـــسات القضية [١] .

٢ – خلاف فاطمة مع أبي بكر

و هذا الموضوع أيضا مجمع على صحته من الفريقين فلا يـــسع المنـــصف العاقل إلا أن يحكم بخطأ أبي بكر إن لم يعترف بظلمه و حيفه على سيدة النساء .

لان من يتتبع هذه المأساة و يطلع على جوانبها يعلم علم اليقين أن أبا بكر تعمد إيذاء الزهراء و تكذيبها لئلا تحتج عليه بنصوص الغدير و غيرها على خلافة زوجها و ابن عمها علي و نجد قرائن عديدة على ذلك ، منـــها مـــا أخرجـــه المؤرخون من أنها – سلام الله عليها – خرجت تطوف على مجالس الأنـــصار و تطلب منهم النصرة و البيعة لابن عمها ، فكانوا يقولون : " يا ابنة رسول الله قد مضت بيعتنا لهذا الرجل ، و لو أن زوجك و ابن عمك سبق إلينا قبل أبي بكر ما عدلنا به ، فيقول علي كرم الله وجهه : أ فكنت أدع رسول الله (صلى الله عليـــه و آلـــه) في بيته لم أدفنه ، و أخرج أنازع الناس سلطانه ؟ فقالت فاطمة : ما صـــنع أبـــو الحسن إلا ما كان ينبغي له ، و لقد صنعوا ما الله حسيبهم و طالبهم [٢] .

---

[1] راجع : السقيفة و الخلافة لعبد الفتاح عبد المقصود ، و السقيفة للشيخ محمد رضا المظفر .

[2] تاريخ الخلفاء لابن قتيبة ج ١ ص ١٩ . شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديـــد (بيعـــة أبي بكر) .

و لو كان أبو بكر مخطئا عن حسن نية أو على اشـــتباه لأقنعتـــه فاطمـــة الزهراء و لكنها غضبت عليه و لم تكلمه حتى ماتت ، لأنـــه رد في كـــل مـــرة دعواها و لم يقبل شهادتها و لا شهادة زوجها و لكل هذا اشتد غضبها عليه حتى أنها لم تأذن له بحضور جنازتها حسب وصيتها لزوجها الذي دفنها في الليل ســـرا [1].

[1] صحيح البخاري ج ٣ ص ٣٦ صحيح مسلم ج ٢ ص ٧٢ باب لا نورث مـــا تركنـــاه صدقة .

و على ذكر دفنها – سلام الله عليها – سرا في الليل فقد سافرت خلال سنوات البحث إلى المدينة المنورة لاطلع بنفسي على بعض الحقائق ، و اكتشفت .

أولا : أن قبر الزهراء مجهول لا يعرفه أحد فمن قائل بأنه في الحجرة النبوية و من قائل بأنه في بيتها مقابل الحجرة النبوية ، و ثالث يقول : " إنه في البقيع وسط قبور أهل البيت بدون تحديد " .

هذه الحقيقة الأولى التي استنتجت منها أنها – سلام الله عليها – أرادت بهذا أن يتسأل المسلمون عبر الأجيال عن السبب الذي دعاها أن تطلب من زوجها أن يدفنها في الليل سرا و لا يحضر جنازتها منهم أحدا ! ! ! و بذلك يمكن لأي مسلم أن يصل إلى بعض الحقائق المثيرة من خلال مراجعة التاريخ .

ثانيا : اكتشفت أن الزائر الذي يريد زيارة قبر عثمان بن عفان يمشي مسافة طويلة حتى يصل إلى آخر البقيع فيجده تحت الحائط بينما يجد أغلب الصحابة مدفونين في بداية البقيع قرب المدخل و حتى مالك بن أنس صاحب المذهب و هو من تابعي التابعين مدفون قرب زوجات الرسول ، و تحقق لدي ما قاله المؤرخون من أنه دفن بحش كوكب و هي أرض يهودية لان المسلمين منعوا دفنه في بقيع رسول الله ، و لما استولى معاوية بن أبي سفيان على الخلافة اشترى تلك الأرض من اليهود و أدخلها في البقيع ليدخل بذلك قبر ابن عمه عثمان فيها و الذي يزور البقيع حتى اليوم سيري هذه الحقيقة بأجلى ما تكون .

و إن عجبي لكبير حين أعلم أن فاطمة الزهراء – سلام الله عليها – أول من لحق بأبيها فبينها و بينه ، ستة أشهر على أكثر الاحتمالات ثم لا تدفن إلى جانب أبيها .

و إذا كانت فاطمة الزهراء هي التي أوصت بدفنها سرا فلم تدفن بالقرب من قبر أبيها كما ذكرت فما بال ما حصل مع جثمان ولدها الحـــسن لم يـــدفن قرب قبر جده ؟ ! فقد منعت هذا (أم المؤمنين) عائشة و قد فعلت ذلك عندما جاء الحسين بأخيه الحسن ليدفنه إلى جانب جده رسول الله ، فركبت عائشة بغلة و خرجت تنادي و تقول : لا تدفنوا في بيتي من لا أحب .

و اصطف بنو أمية و بنو هاشم للحرب و لكن الإمام الحسين قال لها أنه سيطوف بأخيه على قبر جده ثم يدفنه في البقيع لان الإمام الحسن أوصاه أن لا يهرقوا من أجله و لو محجمة من دم .

و قال لها ابن عباس أبياتا مشهورة :

تَجَمَّلت [1] تَبَغَّلت [2] * و لو عشت تَفَيَّلت

لك التسع من الثمن * و بالكل تصرفت

و هذه حقيقة أخرى من الحقائق المخيفة ، فكيف ترث عائشة كل البيت من بين أزواج النبي المتعددات و هن تسع نساء حسب ما قاله ابن عباس :

و إذا كان النبي لا يورث كما شهد بذلك أبو بكر نفسه و منع ذلك ميراث الزهراء من أبيها فكيف ترث عائشة ؟ فهل هناك في كتاب الله آية تعطي الزوجة حق الميراث و تمنع البنت ؟ أم أن السياسة هي التي أبدلت كل شيء فحرمت البنت من كل شيء و أعطت الزوجة كل شيء ؟ .

و بالمناسبة أذكر هنا قصة طريفة ذكرها بعض المؤرخين و لها علاقة بموضوع الإرث .

قال ابن أبي الحديد المعتزلي في شرحه لنهج البلاغة : جاءت عائشة و حفصة و دخلتا على عثمان أيام خلافته و طلبتا منه أن يقسم لهما إرثهما من رسول الله (صلى الله عليه و آله) .

و كان عثمان متكئا فاستوى جالسا و قال لعائشة :

---

[1] إشارة إلى ركوبها الجمل في حرب الجمل المشهورة .

[2] إشارة إلى ركوبها البغلة يوم منعت دفن الحسن بجانب جده .

أنت و هذه الجالسة جئتما بأعرابي يتطهر ببوله و شهدتما أن رسـول الله (صلى الله عليه و آله) قال : نحن معشر الأنبياء لا نورِّث فإذا كان الرسـول حقيقـة لا يورث فماذا تطلبان بعد هذا ، و إذا كان الرسول يورث لماذا منعتم فاطمة حقها ؟ فخرجت من عنده

غاضبة و قالت : أقتلوا نعثلا فقد كفر [١] .

٣ – علي أولى بالإتباع

و من الأسباب التي دعتني للإستبصار و ترك سنة الآباء و الأجداد ، الموازنة العقلية و النقلية بين علي بن أبي طالب و أبي بكر .

و كما ذكرت في الأبواب السابقة من هذا البحث إني أعتمد على الإجماع الذي يوافق عليه أهل السنة و الشيعة .

و قد فتشت في كتب الفريقين فلم أجد إجماعا إلا على علي بن أبي طالب فقد أجمع على إمامته الشيعة و السنة في ما ورد من نصوص ثبتتها مصادر الطرفين ، بينما لا يقول بإمامة أبي بكر إلا فريق من المسلمين و قد كنا ذكرنا ما قاله عمر عن بيعة أبي بكر ، كما أن الكثير من الفضائل و المناقب التي يذكرها الشيعة في علي بن أبي طالب لها سند و وجود حقيقي ثابت في كتب أهل السنة المعتمدة عندهم ، و من عدة طرق لا يتطرق إليها الشك ، فقد روى الحديث في فضائل الإمام علي جمع غفير من الصحابة ، حتى قال أحمد بن حنبل :

ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه و آله) من الفضائل كما جاء لعلي بن أبي طالب [٢] .

و قال القاضي إسماعيل و النسائي و أبو علي النيسابوري : لم يرد في حق أحد من الصحابة بالأسانيد الحسان ما جاء في علي [٣] .

---

[1] شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ج ١٦ ص ٢٢٠ – ٢٢٣ .

[2] المستدرك على الصحيحين للحاكم ج ٣ ص ١٠٧ المناقب للخوارزمي ص ٣ و ١٩ .
تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٦٨ الصواعق المحرقة لابن حجر الهيثمي ص ٧٢ .
تاريخ ابن عساكر ج ٣ ص ٦٣ شواهد التنزيل للحسكاني الحنفي ج ١ ص ١٩ .

[3] الرياض النضرة للطبري ج ٢ ص ٢٨٢ الصواعق المحرقة لابن حجر ص ١١٨ و ص ٧٢ .

هذا مع ملاحظة أن الأمويين حملوا الناس في مـــشارق الأرض و مغاربهـــا على سبه و لعنه و عدم ذكر فضيلة له حتى منعوا أن يتسمى أحد باسمه ، و مـــع كل ذلك

خرجت فضائله و مناقبه سلام الله عليه رغم الجحود ، و في ذلك يقول الإمـــام الشافعي : " عجبت لرجل كتم أعداؤه فضائله حسدا ، و كتمها محبوه خوفـــا ، و خرج ما بين ذين ما طبق الخافقين " .

أما بشأن أبي بكر فقد فتشت أيضا في كتب الفريقين فلم أجد له في كتب أهل السنة و الجماعة القائلين بتفضيله ما يوازي أو يعادل فضائل الإمام علـــي ، على أن فضائل أبي بكر المذكورة في الكتب التاريخية مروية إما عن ابنته عائشة و قد عرفنا موقفها من الإمام علي فهي تحاول بكل جهـــدها دعـــم أبيهـــا و لـــو بأحاديث موضوعة أو عن عبد الله بن عمر و هو أيضا من البعيدين عن الإمـــام علي و قد رفض مبايعته بعدما أجمع الناس على ذلك و كان يحـــدث أن أفـــضل الناس بعد النبي أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم لا تفاضل و الناس بعد ذلك سواسية [١] يعني هذا الحديث أن عبد الله بن عمر جعل الإمام علي من سوقة الناس كـــأي شخص عادي ليس له فضل و لا فضيلة .

فأين عبد الله بن عمر من الحقائق التي ذكرها أعلام الأمة و أئمتها بأنه لم يرد في أحد من الصحابة بالأسانيد الحسان ما جاء في علي بن أبي طالب ، هـــل أن عبد الله بن عمر لم يسمع بفضيلة واحدة لعلي ؟ بلى و الله لقد سمع و وعى و لكن السياسة و ما أدراك ما السياسة فهي تقلب الحقائق و تصنع الأعاجيب .

كذلك يروي فضائل أبي بكر ، كل من عمرو بن العاص و أبو هريـــرة و عروة و عكرمة و هؤلاء كلهم يكشف التاريخ أنهم كانوا متحاملين على الإمـــام علي و حاربوه إما بالسلاح و إما بالـــدس و اخـــتلاق الفـــضائل لأعدائـــه و خصومه .

---

[١] صحيح البخاري ج ٢ ص ٢٠٢ .

قال الإمام أحمد بن حنبل : إن عليا كان كثير الأعداء ففتش أعداؤه عـــن شيء يعيبونه به فلم يجدوا ، فجاؤوا إلى رجل قد حاربه و قاتله ، فأطروه كيـــدا منهم له [1] .

[1] فتح الباري في شرح صحيح البخاري ج ٧ ص ٨٣ تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٩٩ ، الصواعق المحرقة لابن حجر ص ١٢٥ .

و لكن الله يقول : { إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا {١٥/٨٦} وَأَكِيدُ كَيْدًا {١٦/٨٦} فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا } [1] .

و إنه لمن معجزات الله سبحانه أن تخرج فضائل الإمام على بعد ستة قرون من الحكم الجائر الظالم له و لأهل بيته ، إذ لم يكن العباسيون أقل بغضا و حسدا و نكاية و تقتيلا لأهل البيت النبوي من أسلافهم الأمويين حتى قال أبو فراس الحمداني في ذلك :

ما نال منهم بنو حرب و إن عظمت * تلك الجرائر إلا دون نيلكم
كم غدرة لكم في الدين واضحة * و كم دم لرسول الله عندكم
أنتم له شيعة في ما ترون و في * أظفاركم من بنيه الطاهرين دم

فإذا خلصت بعد كل ذلك تلكم الأحاديث و خرجت من تلكم الظلمات فلتكن لله الحجة البالغة ، و لئلا يكون للناس على الله حجة بعد ذلك .

و رغم أن أبا بكر كان هو الخليفة الأول و له من النفوذ ما قد عرفنا و رغم أن الدولة الأموية كانت تجعل عطاء خاصا و رشوة لكل من يروي في حق أبي بكر و عمر و عثمان و رغم أنها اختلقت لأبي بكر من الفضائل و المناقب الكثير مما سودت بها صفحات الكتب ، مع ذلك فلم يبلغ معشار عشر حقائق الإمام علي و فضائله ، أضف إلى ذلك أنك إذا حللت الأحاديث المروية في فضائل أبي بكر وجدتها لا تتماشى مع ما سجله له التاريخ من أعمال تناقض ما قيل فيه و لا يقبلها عقل و لا شرع و قد تقدم شرح ذلك في حديث " لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أمتي لرجح إيمان أبي بكر " و لو كان يعلم رسول الله أن أبا

[1] سورة الطارق (٨٦) ، الآيات : ١٥ ــ ١٧ .

بكر على هذه الدرجة من الإيمان ما كان ليؤمر عليه أسامة بن زيد و لا ليمتنـــع من الشهادة له كما شهد على

شهداء أُحد و قال له إني لا أدري ماذا تحدث من بعدي حتى بكى أبو بكر [١] ، و ما كان ليرسل خلفه علي بن أبي طالب ليأخذ منه سورة براءة فيمنعه من تبليغها [٢] ، و ما كان قال يوم إعطاء الراية في خيبر : لأعطين رايتي غدا رجلا يحب الله و رسوله و يحبه الله و رسوله كرارا ليس فرارا امتحن الله قلبه بالإيمان ، فأعطاها إلى علي و لم يعطها إليه [٣] .

و لو علم الله أن أبا بكر على هذه الدرجة من الإيمان و أن إيمانه يفوق إيمان أمة محمد بأسرها فلم يكن الله سبحانه ليهدده بإحباط عمله عندما رفع صوته فوق صوت النبي [٤] . و لو علم علي بن أبي طالب و الصحابة الذين اتبعوه أن أبا بكر على هذه الدرجة من الإيمان ما جاز لهم أن يتخلفوا عن بيعته و لو علمت فاطمة الزهراء سيدة النساء أن أبا بكر على هذه الدرجة من الإيمان ما كانت لتغضب عليه و تمتنع عن الكلام معه و عن رد السلام عليه و تدعو الله عليه في كل صلاة [٥] ، ثم لا تأذن له – حسب ما ورد في وصيتها – حتى بحضور جنازتها .

و لو علم أبو بكر أنه على هذه الدرجة من الإيمان ما كان ليتمنى عند احتضاره أنه لو لم يكن يكشف بيت فاطمة (عليها السلام) .

---

[1] موطأ الإمام مالك ج ١ ص ٣٠٧ مغازي الواقدي ص ٣١٠ .

[2] صحيح الترمذي ج ٤ ص ٣٣٩ مسند أحمد بن حنبل ج ٢ ص ٣١٩ مستدرك الحاكم ج ٣ ص – ٥١ .

[3] صحيح مسلم باب فضائل علي بن أبي طالب .

[4] صحيح البخاري ج ٤ ص ١٨٤ .

[5] الإمامة و السياسة ج ١ ص ١٤ رسائل الجاحظ ص ٣٠١ أعلام النساء ج ٣ ص ١٢١٥ .

و أنه لو لم يكن أحرق الفجاءة السلمي ، و لكان يوم السقيفة قذف الأمر في عنق أحد الرجلين عمر أو أبي عبيدة [1] .

فالذي هو على هذه الدرجة من الإيمان و يرجح إيمانه على إيمان كل الأمة لا يندم في آخر لحظات حياته على ما فعله مع فاطمة و على حرقه الفجاءة السلمي و على توليه الخلافة ، كما لا يتمنى أن لا يكون من البشر و يكون شعرة أو بعرة ، أَفَ يُعادل إيمان مثل هذا الشخص إيمان الأمة الإسلامية بل يرجح عليها ؟ ! .

[1] تاريخ الطبري ج ٤ ص ٥٢ الإمامة و السياسة ج ١ ص ١٨ تاريخ المسعودي ج ١ ص ٤١٤ .

و إذا أخذنا حديث " لو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا " .

فهو كسابقه ، إذ أين كان أبو بكر يوم المؤاخاة الصغرى في مكة قبل الهجرة و يوم المؤاخاة الكبرى في المدينة بعد الهجرة و في كلتيهما اتخذ رسول الله (صلى الله عليه و آله) عليا أخا له و قال له : " أنت أخي في الدنيا و الآخرة " [1] ، و لم يلتفت إلى أبي بكر فحرمه من مؤاخاة الآخرة كما حرمه من الخلة ، و أنا لا أريد الإطالة في هذا الموضوع و أكتفي بهذين المثلين اللذين أوردهما من كتب أهل السنة و الجماعة ، أما عند الشيعة فلا يعترفون بتلك الأحاديث مطلقا و لديهم الأدلة الواضحة على أنها وضعت في زمن متأخر عن زمن أبي بكر .

هذا و إذا تركنا الفضائل و بحثنا في المساوئ فإننا لا نحصى لعلي بن أبي طالب سيئة واحدة من كتب الفريقين ، بينما نجد لغيره مساويء كثيرة في كتب أهل السنة كالصحاح و كتب السير و التاريخ .

و بهذا يكون الإجماع من الفريقين يختص بعلي وحده كما يؤكد التاريخ أن البيعة الصحيحة لم تكن إلا لعلي وحده .

فقد امتنع هو و أصر عليها المهاجرون و الأنصار و قعد عن بيعته نفر فلم يجبرهم عليها ، بينما كانت بيعة أبي بكر فلتة وقى الله المسلمين شرها – كما يقول عمر بن الخطاب – و كانت خلافة عمر بعهد عهده إليه أبو بكر و كانت خلافة عثمان مهزلة تاريخية ، ذلك أن عمر رشح ستة للخلافة و ألزمهم أن يختاروا من بينهم واحدا و قال إذا اتفق أربعة و خالف إثنان فاقتلوهما و إذا انقسم الستة إلى فريقين ثلاثة في كل جهة فخذوا برأي الثلاثة الذين يقف معهم

---

[1] تذكرة الخواص للسبط ابن الجوزي ص ٢٣ تاريخ دمشق لابن عساكر ج ١ ص ١٠٧ .
المناقب للخوارزمي ص ٧ الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ص ٢١ .

عبد الرحمن بن عوف ، و إذا مضى وقت و لم يتفق الستة فاقتلوهم ، و القـــصة طويلة و عجيبة ، و المهم أن عبد الرحمن بن عوف اختار عليا و اشترط عليه أن يحكم فيهم بكتاب الله و سنة رسوله و سنة الشيخين أبي بكر و عمر فرفض علي هذا الشرط ، و قبله عثمان فكان

هو الخليفة ، و خرج علي من البيعة و هو يعلم مسبقا النتيجة و قد تحدث عن ذلك في خطبته المعروفة بالشقشقية .

و بعد علي استولى معاوية على الخلافة فأبدلها قيصرية ملكية يتداولها بنو أمية و من بعدهم بنو العباس إبنا عن أب و لم يكن هناك خليفة إلا بنص السابق على اللاحق أو بقوة السيف و السلاح و الاستيلاء ، فلم تكن هناك بيعة صحيحة [1] في التاريخ الإسلامي من عهد الخلفاء و حتى عهد كمال أتاتورك الذي قضى على الخلافة الإسلامية إلا لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب .

٤ – الأحاديث الواردة في علي توجب إتباعه

من الأحاديث التي أخذت بها و دفعتني للإقتداء بالإمام علي ، تلك التي أخرجتها صحاح أهل السنة و الجماعة و أكدت صحتها و الشيعة عندهم أضعافها و لكن – و كالعادة – سوف لا أستدل و لا أعتمد إلا الأحاديث المتفق عليها من الفريقين ، و من هذه الأحاديث .

أ – حديث " أنا مدينة العلم و علي بابها " [2]

و هذا الحديث وحده كاف لتشخيص القدوة الذي ينبغي إتباعه بعد الرسول (صلى الله عليه و آله) ، لان العالم أولى بالإتباع ، أولى أن يقتدى به من الجاهل .

قال تعالى : { ... قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ... } [3] .

---

[1] أي بإجماع المسلمين لم يفرضها عليهم أحد و لم تكن " فتنة " .

[2] مستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٢٧ تاريخ ابن كثير ج ٧ ص ٣٥٨ أحمد بن حنبل في المناقب .

[3] سورة الزمر (٣٩) ، الآية : ٩ .

و قال أيضا : { أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ } [1] ، و من المعلوم أن العالم هو الذي يهدي و الجاهل يستحق الهداية و هو أحوج إليها من أي أحد .

[1] سورة يونس (١٠) ، الآية : ٣٥ .

و في هذا الصدد سجل لنا التاريخ أن الإمام عليا هو أعلم الصحابة على الإطلاق و كانوا يرجعون إليه في أمهات المسائل و لم نعلم أنه (عليه السلام) رجع إلى واحد منهم قط فهذا أبو بكر يقول : لا أبقاني الله لمعضلة ليس لها أبو الحسن ، و هذا عمر يقول : لولا علي لهلك عمر [١] .

و هذا ابن عباس يقول : ما علمي و علم أصحاب محمد في علم علي إلا كقطرة في سبعة أبحر [٢] .

و هذا الإمام علي نفسه يقول : " سلوني قبل أن تفقدوني ، و الله لا تسألونني عن شيء يكون إلى يوم القيامة إلا أخبرتكم به و سلوني عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا و أنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار في سهل أم في جبل " [٣] .

بينما يقول أبو بكر عندما سئل عن معنى الأب في قوله تعالى : (و فاكهة و أبا متاعا لكم و لأنعامكم) قال أبو بكر : أي سماء تظلني و أي أرض تقلني أن أقول في كتاب الله بما لا أعلم .

و هذا عمر بن الخطاب يقول : " كل الناس أفقه من عمر حتى ربات الحجال " و يسأل عن آية من كتاب الله فينتهر السائل و يضربه بالدرة حتى

---

[1] الاستيعاب ج ٤ ص ٣٩ مناقب الخوارزمي ص ٤٨ الرياض النضرة ج ٢ ص ١٩٤ .

[2] لقد أجمعت صحاح أهل السنة و كتبهم على أفضلية علي (عليه السَّلام) و تقدمه في العلم على كل الصحابة .

راجع – على سبيل المثال ما جاء في الاستيعاب ج ٣ ، ص ٣٨ – ٤٥ من أقوال الصحابة أنفسهم فيه و تقديمهم له عليهم .

[3] المحب الطبري في الرياض النضرة ج ٢ ص ١٩٨ تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٢٤ .

الإتقان ج ٢ ص ٣١٩ فتح الباري ج ٨ ص ٤٨٥ تهذيب التهذيب ج ٧ ص ٣٣٨ .

يدميه و يقول : " لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم " [1] و قد سئل عن الكلالة فلم يعلمها .

أخرج الطبري في تفسيره عن عمر أنه قال : لئن أكون أعلم الكلالة أحب إلي من أن يكون لي مثل قصور الشام .

[1] سنن الدارمي ج ١ ص ٥٤ تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٢٣٢ الدر المنثور ج ٦ ص ١١١ .

كما أخرج ابن ماجه في سننه عن عمر بن الخطاب قال : ثلاث لئن يكون رسول الله بينهن أحب إلي من الدنيا و ما فيها : الكلالة و الربا و الخلافة .

سبحان الله ! حاشى لرسول الله أن يكون سكت عن هذه الأشياء و لم يبينها .

ب – حديث " يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي " :

و هذا الحديث كما لا يخفى على أهل العقول فيه ما فيه من اختصاص أمير المؤمنين علي بالوزارة و الوصاية و الخلافة .

فكما كان هارون وزيرا و وصيا ، و خليفة موسى في غيابه عندما ذهب لميقات ربه ، كذلك أيضا منزلة الإمام علي (عليه السلام) فهو كهارون عليه و على نبينا السلام و صورة طبق الأصل عنه ما عدا النبوة التي استثناها نفس الحديث ، و فيه أيضا أن الإمام عليا هو أفضل الصحابة و الحديث كما هو معلوم مجمع عليه عند عامة المسلمين .

ت – حديث " من كنت مولاه فهذا علي مولاه ، اللهم وال من والاه و عاد من عاداه و انصر من نصره و اخذل من خذله و أدر الحق معه حيث دار " :

و هذا الحديث وحده كاف لرد مزاعم تقديم أبي بكر و عمر و عثمان على من نصبه رسول الله (صلى الله عليه و آله) وليا للمؤمنين من بعده ، و لا عبرة بمن أوَّل الحديث إلى معنى المحب و النصير لصرفه عن معناه الأصلي الذي قصده الرسول و ذلك حفاظا على كرامة الصحابة ، لان رسول الله (صلى الله عليه و آله)

عندما قام خطيبا في ذلك الحر الشديد " قال ألستم تشهدون بأني أولى المـــؤمنين من أنفسهم " قالوا بلى يا رسول الله فقال عندئذ : " فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه . . " و هذا نص صريح في استخلافه على أمتـــه ، و لا يمكـــن للعاقـــل المنصف العادل إلا قبول هذا المعنى و رفض تأويل البعض المتكلف و الحفاظ على كرامة الرسول قبل الحفاظ على كرامة الصحابة لان في تأويلهم هذا استخفافا و استهزاء بحكمة الرسول الذي يجمع

حشود الناس في الحر و الهجير الذي لا يطاق ليقول لهم بأن علي هو محب المؤمنين و ناصرهم .

و بماذا يفسر هؤلاء الذين يؤولون النصوص حفاظا على كرامة كبرائهم و ساداتهم موكب التهنئة الذي عقده له رسول الله (صلى الله عليه و آله) .

و بدأ بزوجاته أمهات المؤمنين و جاء أبو بكر و عمر يقولان " بخ بخ لك يا ابن أبي طالب أصحبت و أمسيت مولى كل مؤمن و مؤمنة " و الواقع و التاريخ يشهدان أن المتأولين لكاذبون فويل لهم مما كتبت أيديهم و ويل لهم مما يكتبون قال تعالى :

{ ... وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } [1] .

ث – حديث : " علي مني و أنا من علي ، و لا يؤدي عني إلا أنا أو علي " [2] .

و هذا الحديث الشريف هو الآخر صريح في أن الإمام عليا هو الشخص الوحيد الذي أهله صاحب الرسالة ليؤدي عنه و قد قاله عندما بعثه بسورة براءة يوم الحج الأكبر عوضا عن أبي بكر ، و رجع أبو بكر يبكي و يقول يا رسول الله أنزل في شيء فقال : إن الله أمرني أن لا يؤدي عني إلا أنا أو علي .

و هذا ظهير ما قاله رسول الله (صلى الله عليه و آله) لعلي في مناسبة أخرى عندما قال له : " أنت يا علي تبين لأمتي ما اختلفوا فيه بعدي " [1] .

---

[1] سورة البقرة (٢) ، الآية : ١٤٦ .

[2] سنن إبن ماجه ج ١ ص ٤٤ خصائص النسائي ص ٢٠ صحيح الترمذي ج ٥ ص ٣٠٠ .

جامع الأصول لابن كثير ج ٩ ص ٤٧١ الجامع الصغير للسيوطي ج ٢ ص ٥٦ .

الرياض النضرة ج ٢ ص ٢٢٩ .

فإذا كان لا يؤدي عن رسول الله إلا علي و هو الذي يبين للأمة ما اختلفوا فيه بعده ، فكيف يتقدم عليه من لا يعرف معنى الأب و من لا يعرف معنى الكلالة و هذا لعمري من المصائب التي أصابت هذه الأمة و أعاقتها عن أداء المهمة التي

[1] تاريخ دمشق لابن عساكر ج ٢ ص ٤٨٨ كنوز الحقائق للمناوي ص ٢٠٣ . كتز العمال ج ٥ ص ٣٣ .

رشحها الله لها ، و ليست الحجة على الله و لا على رسول الله و لا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، و إنما الحجة البالغة على الذين عصوا و بدلوا ، قال تعالى : { وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ } [1] .

ج – حديث الدار يوم الإنذار :

قال رسول الله (صلى الله عليه و آله) مشيرا إلى علي :

" إن هذا أخي ، و وصيي ، و خليفتي من بعدي فاسمعوا له و أطيعوا " [2] .

و هذا الحديث هو أيضا من الأحاديث الصحيحة التي نقلها المؤرخون لبداية البعثة النبوية و عدوها من معجزات النبي ، و لكن السياسة هي التي أبدلت و زيفت الحقائق و الوقائع ، و لا عجب من ذلك لان ما وقع في ذلك الزمان المظلم يتكرر اليوم في عصر النور فهذا محمد حسين هيكل أخرج الحديث بكامله في كتابه " حياة محمد " في صفحة ١٠٤ من الطبعة الأولى سنة ١٣٥٤ هجرية و في الطبعة الثانية و ما بعدها حذف من الحديث قوله (صلى الله عليه و آله) (وصيي و خليفتي من بعدي) ، كذلك حذفوا من تفسير الطبري الجزء ١٩ صفحة ١٢١ قوله (وصيي و خليفتي) و أبدلوها بقوله إن هذا أخي و كذا و كذا . . ! ! و غفلوا عن أن الطبري ذكر الحديث بكامله في تاريخه الجزء ٢ صفحة ٣١٩ .

---

[1] سورة المائدة (٥) ، الآية : ١٠٤ .

[2] تاريخ الطبري ج ٢ ص ٣١٩ تاريخ ابن الأثير ج ٢ ص ٦٢ السيرة الحلبية ج ١ ص ٣١١ شواهد التنزيل للحسكاني ج ١ ص ٣٧١ كنز العمال ج ١٥ ص ١٥ .
تاريخ ابن عساكر ج ١ ص ٨٥ تفسير الخازن لعلاء الدين الشافعي ج ٣ ص ٣٧١ .
حياة محمد لحسين هيكل الطبعة الأولى باب و أنذر عشيرتك الأقربين .

أنظر كيف يحرفون الكلم عن مواضعه و يقلبون الأمـــور ، يريـــدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم و الله متم نوره . .

و خلال البحث الذي قمت به أردت الوقوف على جلية الحال فبحثـــت عن الطبعة الأولى لكتاب " حياة محمد " و تحصلت عليها بحمد الله بعد عنـــاء و مشقة

و قد كلفني ذلك كثيرا ، و المهم أنني اطلعت على ذلك التحريف و زادني ذلك يقينا بأن أهل السوء يحاولون جهدهم أن يمحوا الحقائق الثابتة لأنها حجة قوية لدى (خصومهم) ! .

و لكن الباحث المنصف عندما يقف على شيء من هذا التحريف و التزييف يزداد عنهم بعدا و يعرف بلا شك أنهم لا حجة لديهم غير التضليل و الدس و قلب الحقائق بأي ثمن ، و لقد استأجروا كتابا كثيرين و أغدقوا عليهم الأموال كما أغدقوا عليهم الألقاب و الشهادات الجامعية المزيفة ليكتبوا لهم ما يريدون من الكتب و المقالات التي تشتم الشيعة و تكفرهم و تدافع بكل جهد و إن كان باطلا عن كرامة بعض الصحابة المنقلبين على أعقابهم و الذين بدلوا بعد رسول الله الحق بالباطل { ... كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ } [1] ، صدق الله العظيم .

***

[1] سورة البقرة (٢) ، الآية : ١١٨ .

الأحاديث الصحيحة

التي توجب أتباع أهل البيت

١ – حديث الثقلين

قال رسول الله (صلى الله عليه و آله) :

" يا أيها الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله و عترتي أهل بيتي " و قال أيضا :

" يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب و إني تارك فيكم الثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى و النور و أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي " [١] .

و إذا أمعنا النظر في هذا الحديث الشريف الذي أخرجه صحاح أهل السنة و الجماعة وجدنا أن الشيعة وحدهم هم الذين اتبعوا الثقلين " كتاب الله و العترة النبوية الطاهرة " بينما اتبع أهل السنة و الجماعة قول عمر " حسبنا كتاب الله " .

و ليتهم اتبعوا كتاب الله بغير تأويل حسب أهوائهم فإذا كان عمر نفسه لم يفهم منه معنى الكلالة و لا عرف منه آية التيمم و عدة أحكام أخرى فكيف بمن جاء بعده و قلده بدون اجتهاد أو اجتهد برأيه في النصوص القرآنية ، و بطبيعة

---

[١] صحيح مسلم باب فضائل علي ج ٥ ص ١٢٢ صحيح الترمذي ج ٥ ص ٣٢٨ .
مستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٤٨ مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٣ ص ١٧ .

الحال سوف يردون علي بالحديث المروي عندهم و هو " تركت فيكم كتاب الله و سنتي " [١] .

و هذا الحديث إن صح و هو صحيح في معناه ، لان معنى العترة بقوله (صلى الله عليه و آله) في حديث الثقلين المتقدم هو الرجوع إلى أهل بيتي ليعلموكم – أولا – سنتي ، أو لينقلوا إليكم الأحاديث الصحيحة لأنهم مترهون عن الكذب و إن الله سبحانه عصمهم بآية التطهير .

و ثانيا : لكي يفسروا لكم معانيها و مقاصدها ، لان كتاب الله وحده لا يكفي للهداية فكم من فرقة تحتج بكتاب الله و هي في الضلالة كما ورد ذلك عن رسول الله عندما قال : " كم من قارئ للقرآن و القرآن يلعنه " .

فكتاب الله صامت ، و حمال أوجه ، و فيه المحكم و المتشابه و لابد لفهمه من الرجوع إلى الراسخين في العلم حسب التعبير القرآني و إلى أهل البيت حسب التفسير النبوي .

فالشيعة يرجعون كل شيء إلى الأئمة المعصومين من أهل البيت النبوي و لا يجتهدون إلا في ما لا نص فيه .

و نحن نرجع في كل شيء إلى الصحابة سواء في تفسير القرآن أو في إثبات السنة و تفسيرها ، و قد علمنا أحوال الصحابة و ما فعلوه و ما استنبطوه و اجتهدوا فيه بآرائهم مقابل النصوص الصريحة و هي تعد بالمئات فلا يمكن الركون إلى مثلهم بعد ما حصل منهم ما حصل .

---

[١] أخرج مسلم في صحيحه و النسائي و الترمذي و ابن ماجه و أبي داوود في سننهم الحديث المذكور .

و إذا سألنا علماءنا ، أي سنة تتبعون ؟ لأجابوا قطعا : ســـنة رســـول الله (صلى الله عليه و آله) .

و الواقع التاريخي لا ينسجم مع ذلك ، فقد رووا أن الرسول نفسه قال : " عليكم بسنتي و سنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضوا عليهـــا بالنواجـــذ " إذا فالسنة التي يتبعونها هي في أغلب الأحيان سنة الخلفاء الراشدين و حتى سنة

الرسول التي يقولون بها فهي المروية عن طريق هؤلاء .

على أننا نروي في صحاحنا أن الرسول منعهم من كتابة سننه لئلا تختلط بالقرآن ، و كذلك فعل أبو بكر و عمر إبان خلافتيهما ، فلا يبقى بعد هذا حجة في قولنا " تركت فيكم سنتي " [١] .

و الذي ذكرته في هذا البحث من الأمثلة – و ما لم أذكره هو أضعاف ذلك – كاف لرد هذا الحديث لان من سنة أبي بكر و عمر و عثمان ما يناقض سنة النبي و يبطلها ، كما لا يخفى .

و إذا كانت أول حادثة وقعت بعد وفاة رسول الله مباشرة و سجلها أهل السنة و الجماعة و المؤرخون : هي مخاصمة فاطمة الزهراء لأبي بكر الذي احتج بحديث " نحن معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة " .

هذا الحديث الذي كذبته فاطمة الزهراء و أبطلته بكتاب الله ، و احتجت على أبي بكر بأن أباها رسول الله (صلى الله عليه و آله) لا يمكنه أن يناقض كتاب الله الذي أنزل عليه إذ يقول سبحانه و تعالى : { يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ ... } [٢] .

و هي عامة تشمل الأنبياء و غير الأنبياء ، و احتجت عليه بقوله تعالى : { وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ } [٣] و كلاهما نبي .

---

[1] ورد بلفظ (كتاب الله و عترتي) مسندا إلى رسول الله (صلى الله عليه و آله) . أما لفظ سنتي فلم يرد في أي من الصحاح الست ، و قد أخرج الحديث بهذا اللفظ مالك بن أنس في موطئه و نقله مرسلا غير مسند ، و أخذ عنه بعد ذلك البعض كالطبري و ابن هشام و نقلوه مرسلا كما ورد عن مالك .

[2] سورة النساء (٤) ، الآية : ١١ .

[3] سورة النمل (٢٧) ، الآية : ١٦ .

و قوله عز من قائل : { ... فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا } [1] .

و الحادثة الثانية التي وقعت لأبي بكر في أيام خلافته و سجلها المؤرخون

[1] سورة مريم (١٩) ، الآية : ٥ و ٦ .

من أهل السنة و الجماعة اختلف فيها مع أقرب الناس إليه و هو عمر بن الخطاب تلك الحادثة التي تتلخص في قراره بمحاربة ما نعي الزكاة و قتلهم فكان عمر يعارضه و يقول له لا تقاتلهم لأني سمعت رسول الله (صلى الله عليه و آله) يقول : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فمن قالها عصم مني ماله و دمه و حسابه على الله " .

و هذا نص أخرجه مسلم في صحيحه جاء فيه : " إن رسول الله (صلى الله عليه و آله) أعطى الراية إلى علي يوم خيبر فقال علي : يا رسول الله على ماذا أقاتلهم ؟ فقال (صلى الله عليه و آله) قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله و أن محمدا رسول الله ، فإن فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم و أموالهم إلا بحقها و حسابهم على الله " [1] .

و لكن أبا بكر لم يقتنع بهذا الحديث و قال : و الله لأقاتلن من فرق بين الصلاة و الزكاة فإن الزكاة حق المال ، أو قال : " و الله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم على منعه " و اقتنع عمر بن الخطاب بعد ذلك و قال : ما إن رأيت أبا بكر مصمما على ذلك حتى شرح الله صدري ، و لست أدري كيف يشرح الله صدور قوم بمخالفتهم سنة نبيهم ! .

و هذا التأويل ، منهم لتبرير قتال المسلمين الذين حرم الله قتلهم إذ قال في كتابه العزيز .

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ

[1] صحيح مسلم ج ٨ ص ٥١ كتاب الإيمان .

كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُواْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا }[1] . صدق الله العظيم .

على أن هؤلاء الذين منعوا إعطاء أبي بكر زكاتهم لم ينكروا وجوبها و لكنهم تأخروا ليتبينوا الأمر و يقول الشيعة إن هؤلاء فوجئوا بخلافة أبي بكر و فيهم من حضر مع رسول الله حجة الوداع و سمع منه النص على علي بن أبي طالب فتريثوا

[1] سورة النساء (٤) ، الآية : ٩٤ .

حتى يفهموا الحقيقة ، و لكن أبا بكر أراد إسكاتهم عن تلك الحقيقة و بما أنني لا أستدل و لا أحتج بما يقوله الشيعة فسأترك هذه القضية لمن يهمه الأمر ليبحث فيها .

على أنني لا يفوتني أن أسجل هنا أن صاحب الرسالة (صلى الله عليه و آله) وقعت له في حياته قصة ثعلبة الذي طلب منه أن يدعو له بالغنى و ألح في ذلك و عاهد الله أنه يتصدق و دعا له رسول الله و أغناه الله من فضله و ضاقت عليه المدينة و أرجاؤها من كثرة إبله و غنمه حتى ابتعد و لم يعد يحضر صلاة الجمعة ، و لما أرسل إليه رسول الله (صلى الله عليه و آله) العاملين على الزكاة رفض أن يعطيهم شيئا منها قائلا إنما هذه جزية أو أخت الجزية ، و لم يقاتله رسول الله و لا أمر بقتاله و أنزل فيه قوله : { وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ }[1] .

و جاء ثعلبة بعد نزول الآية و هو يبكي و طلب من رسول الله قبول زكاته و امتنع الرسول حسب ما تقول الرواية .

فإذا كان أبو بكر و عمر يتبعان سنة الرسول فلماذا هذه المخالفة و إباحة دماء المسلمين الأبرياء لمجرد منع الزكاة على أن المعتذرين لأبي بكر و الذين يريدون تصحيح خطئه بتأويله بأن الزكاة هي حق المال ، لا يبقى لهم و لا له عذر بعد قصة ثعلبة الذي أنكر الزكاة و اعتبرها جزية ، و من يدري لعل أبا بكر أقنع صاحبه عمر بوجوب قتل من منعوه الزكاة أن تسري دعوتهم في البلاد الإسلامية لإحياء نصوص الغدير التي نصبت عليا للخلافة ، و لذلك شرح الله

[1] سورة التوبة (٩) ، الآية : ٧٥ و ٧٦ .

صدر عمر بن الخطاب لقتالهم و هو الذي هدد بقتل المتخلفين في بيت فاطمـــة و حرقهم بالنار من أجل أخذ البيعة لصاحبه .

أما الحادثة الثالثة التي وقعت لأبي بكر في أول خلافته و خالفه فيها عمـــر بن الخطاب و قد تأول فيها النصوص القرآنية و النبوية : فهي قصة خالـــد بـــن الوليد

الذي قتل مالك بن نويرة صبرا و نزا على زوجته فدخل بها في نفس الليلة .

و كان عمر يقول لخالد : يا عدو الله قتلت امرءا مسلما ثم نزوت على امرأته ، و الله لأرجمنك بالأحجار [1] .

و لكن أبا بكر دافع عنه و قال : " هبه يا عمر ، تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد " .

و هذه فضيحة أخرى سجلها التاريخ لصحابي من الأكابر ! ! إذا ذكرناه ، ذكرناه بكل احترام و قداسة ، بل و لقبناه بـ " سيف الله المسلول " ! ! .

ماذا عساني أن أقول في صحابي يفعل مثل تلك الأفعال يقتل مالك بن نويرة الصحابي الجليل سيد بني تميم و بني يربوع و هو مضرب الأمثال في الفتوة و الكرم و الشجاعة .

و قد حدث المؤرخون أن خالدا غدر بمالك و أصحابه بعد أن وضعوا السلاح وصلوا جماعة فأوثقوهم بالحبال و فيهم ليلى بنت المنهال زوجة مالك و كانت من أشهر نساء العرب بالجمال و يقال إنها لم ير أجمل منها و فتن خالد بجمالها ، و قال له مالك : يا خالد أبعثتنا إلى أبي بكر فيكون هو الذي يحكم فينا ، و تدخل عبد الله بن عمر و أبو قتادة الأنصاري و ألحا على خالد أن يبعثهم إلى أبي بكر فرفض خالد و قال : لا أقالني الله إن لم أقتله فالتفت مالك إلى زوجته ليلى و قال لخالد : هذه التي قتلتني ، فأمر خالد بضرب عنقه و قبض على ليلى زوجته و دخل بها في تلك الليلة [2] .

---

[1] تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٨٠ تاريخ أبي الفداء ج ١ ص ١٥٨ .
تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١١٠ الإصابة في معرفة الصحابة ج ٣ ص ٣٣٦ .

[2] تاريخ أبي الفداء ج ١ ص ١٥٨ تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١١٠ .
تاريخ ابن الشحنة بهامش الكامل ج ١١ ص ١١٤ وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٤ .

ماذا عساني أن أقول في هؤلاء الصحابة الذين يستبيحون حرمـــات الله و يقتلون النفوس المسلمة من أجل هوى النفس و يستبيحون الفروج التي حرمها

الله ، ففي الإسلام لا تنكح المرأة المتوفى زوجها إلا بعد العدة التي حـــددها الله في كتابه العزيز ، و لكن خالدا اتخذ إلهه هواه فتردى و أي قيمة للعدة عنده بعد أن قتل زوجها صبرا و ظلما و قتل قومه أيضا و هم مسلمون بشهادة عبد الله بـــن عمر و أبي قتادة الذي غضب غضبا شديدا مما فعله خالد و انصرف راجعـــا إلى المدينة و أقسم أن لا يكون أبدا في لواء عليه خالد بن الوليد [١] .

و حسبنا في هذه القضية المشهورة أن ننقل اعتراف الأســـتاذ هيكـــل في كتابه " الصديق أبو بكر " إذ قال تحت عنوان " رأي عمر و حجته في الأمر " .

" أما عمر ، و كان مثال العدل الصارم ، فكان يرى أن خالدا عدا علـــى امرئ مسلم و نزا على امرأته قبل انقضاء عدتها فلا يصح بقاؤه في قيادة الجـــيش حتى لا يعود لمثلها فيفسد أمر المسلمين ، و يسيء إلى مكانتهم بين العرب قال : و لا يصح أن يترك بغير عقاب على ما أتم مع ليلى .

و لو صح أنه تأول فأخطأ في أمر مالك ، و هذا ما لا يجيـــزه عمـــر ، و حسبه ما صنع مع زوجته ليقام عليه الحد ، فليس ينهض عذرا له إنه سيف الله ، و إنه القائد الذي يسير النصر في ركابه فلو أن مثل هذا العذر يقبـــل لأبيحـــت لخالد و أمثاله المحارم ، و لكان أسوأ مثل يضرب للمسلمين في احترام كتاب الله ، لذلك لم يفتأ عمر يعيد على أبي بكر ، و يلح عليه ، حتى اســـتدعى خالـــدا و عنفه . . " [٢] .

---

[1] تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٨٠ تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١١٠ .
تاريخ أبي الفداء الإصابة ج ٣ ص ٣٣٦ .

[2] كتاب " الصديق أبو بكر " للأستاذ هيكل ص ١٥١ .

و هل لنا أن نسأل الأستاذ هيكل و أمثاله من علمائنا الـــذين يراوغـــون حفاظا على كرامة الصحابة ، هل لنا أن نسألهم ، لماذا لم يقم أبو بكر الحد على خالد ؟ و إذا كان عمر كما يقول هيكل مثال العدل الصارم فلماذا اكتفى بعزله عن قيادة الجيش و لم يقم عليه الحد الشرعي حتى لا يكون ذلـــك أســـوأ مثـــل يضرب للمسلمين في احترام كتاب الله كما ذكر ؟ و هل احترموا كتـــاب الله و أقاموا حدود الله ؟ كلا إنها

السياسة و ما أدراك ما السياسة ؟ تصنع الأعاجيب و تقلب الحقائق ، و تضرب بالنصوص القرآنية عرض الجدار .

و هل لنا أن نسأل بعض علمائنا الذين يروون في كتبهم أن رسول الله (صلى الله عليه و آله) غضب غضبا شديدا عندما جاء أسامة ليشفع لإمراة شريفة سرقت .

فقال (صلى الله عليه و آله) : " و يحك أتشفع في حد من حدود الله و الله لو كانت فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ، إنما أهلك من كان قبلكم إذا سرق الشريف تركوه و إذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد " .

فكيف يسكتون عن قتل المسلمين الأبرياء و الدخول بنسائهم في نفس الليلة و هن منكوبات بموت أزواجهن و يا ليتهم يسكتون ! و لكنهم يحاولون تبرير فعل خالد باختلاق الأكاذيب و بخلق الفضائل و المحاسن له حتى لقبوه بسيف الله المسلول .

و لقد أدهشني بعض أصدقائي و كان مشهورا بالمزح و قلب المعاني ، فكنت أذكر له مزايا خالد بن الوليد في أيام جهالتي و قلت له أنه سيف الله المسلول ، فأجابني : إنه سيف الشيطان المشلول ، و استغربت يومها ، و لكن بعد البحث فتح الله بصيرتي و عرفني قيمة هؤلاء الذين استولوا على الخلافة و بدلوا أحكام الله و عطلوها و تعدوا حدود الله و اخترقوها .

و خالد بن الوليد له في حياة النبي قصة مشهورة إذ بعثه النبي إلى بني جذيمة ليدعوهم إلى الإسلام و لم يأمره بقتالهم .

فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فقالوا : صبأنا صبأنا فجعل خالد يقتل و يأسر بهم و دفع الأسرى إلى أصحابه و أمرهم بقتلهم و امتنع البعض من قتلهم لما تبين لهم أنهم أسلموا و لما رجعوا و ذكروا ذلك النبي (صلى الله عليه و آله) .

قال : اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد قالها مرتين [1] و بعث علي بن أبي طالب إلى بني جذيمة و معه مال فودَّى لهم الدماء و ما أصيبت لهم من

[1] صحيح البخاري ج ٤ ص ١٧١ باب إذا قضى الحاكم بجور فهو رد .

أموال حتى ودَّى لهم ميلغة الكلب و قام رسول الله (صلى الله عليه و آلـه) فاستقبل القبلة قائما شاهرا يديه إلى السماء حتى انه ليرى ما تحت منكبيه ، يقول : اللـهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد ثلاث مرات [1] .

فهل لنا أن نسأل أين هي عدالة الصحابة المزعومة الـتي يـدعونها ، و إذا كان خالد بن الوليد و هو عندنا من عظمائنا حتى لقبناه بسيف الله أ فكان ربنـا يسل سيفه و يسلطه على المسلمين و الأبرياء و على المحارم فيهتكها ، ففي ذلـك تناقض لان الله ينهى عن قتل النفس و ينهى عن الفحشاء و المنكـر و البغـي و لكنه – أي خالد – في نفس الوقت يسل سيف البغي ليفتك بالمسلمين و يهـدر دماءهم و أموالهم و يسبي نساءهم و ذراريهم ، إن هذا زور من القول و بهتـان مبين ، سبحانك ربنا و بحمدك تباركت و تعاليت عن ذلـك علـوا كـبيرا ، سبحانك ما خلقت السماوات و الأرض و ما بينهما باطلا ، ذلك ظـن الـذين كفروا فويل للذين كفروا من النار .

كيف جاز لأبي بكر و هو خليفة المسلمين أن يسمع بتلكم الجرائم الموبقة و يسكت عنها بل و يدعو عمر بن الخطاب بأن يكف لسانه عـن خالـد ، و يغضب على أبي قتادة لإنكاره فعل خالد ، أكان مقتنعا حقا بأن خالـدا تـأول فأخطأ ، فأي حجة بعد هذا على المجرمين و الفاسقين في هـتكهم الحرمـات و ادعائهم التأويل .

أما أنا فلا أعتقد بأن أبا بكر كان متأولا في أمر خالد الذي سماه عمر بن الخطاب بـ " عدو الله " و كان من رأيه أن يقتل خالد لأنه قتل إمرءا مسلما و يرجمه بالحجارة لأنه زنى بزوجة مالك " ليلى " و لم يقع شيء من ذلك للقاتـل

---

[1] سيرة ابن هشام ج ٤ ص ٥٣ طبقات ابن سعد ، أُسد الغابة ج ٣ ص ١٠٢ .

الجاني بل خرج منها منتصرا على عمر بن الخطاب لان أبا بكر وقف إلى جانبه و هو يعلم حقيقة خالد أكثر من أي أحد ، فقد سجل المؤرخون أنه بعثه بعد تلك الواقعة المشينة إلى اليمامة التي خرج منها منتصرا و تزوج في أعقابها بنتا كما فعل مع ليلى و لما تجف دماء المسلمين بعد و لا دماء أتباع مسيلمة ، و قد عنفه أبـــو بكر على فعلته هذه بأشد مما عنفه على فعلته مع ليلى [1] ، و لا شـــك أن هـــذه البنت هي الأخرى ذات

[1] الأستاذ هيكل في كتابه " الصديق أبو بكر " ص ١٥١ و ما بعدها .

بعل فقتله خالد و نزا عليها كما فعل بليلى زوجة مالك .

و إلا لما استحق أن يعنفه أبو بكر بأشد مما عنفه على فعلته الأولى ، على أن المؤرخين يذكرون نص الرسالة التي بعث بها أبو بكر إلى خالد بن الوليد و فيها يقول : " لعمري يابن أم خالد إنك لفارغ تنكح النساء و بفناء بيتك دم ألف و مائتي رجل من المسلمين لم يجف بعد " [1] .

و لما قرأ خالد هذا الكتاب قال : هذا عمل الأعسر يقصد بذلك عمر بن الخطاب .

فهذه من الأسباب القوية التي جعلتني أنفر من أمثال هؤلاء الصحابة ، و من تابعيهم الذين يتأولون النصوص و يختلقون الروايات الخيالية لتبرير أعمال أبي بكر و عمر و عثمان و خالد بن الوليد و معاوية و عمرو بن العاص و إخوانهم ، اللهم إني استغفرك و أتوب إليك ، اللهم إني أبرأ إليك من أفعال هؤلاء و أقوالهم التي خالفت أحكامك و استباحت حرماتك و تعدت حدودك ، و اغفر لي ما سبق من موالاتهم إذ كنت من الجاهلين ، و قد قال رسولك " لا يعذر الجاهل بجهله " ، اللهم إن ساداتنا و كبراءنا قد أضلونا السبيل و حجبوا عنا الحقيقة و صوروا لنا الصحابة المنقلبين بأنهم أفضل الخلق بعد رسولك ، و لا شك إن آباءنا و أجدادنا كانوا ضحية الدس و الغش الذي توخاه الأمويون و من بعدهم العباسيون اللهم فاغفر لهم و لنا فأنت تعلم السرائر و ما تخفي الصدور و ما كان حبهم و تقديرهم و احترامهم لأولئك الصحابة إلا عن حسن نية على أنهم أنصار رسولك محمد صلواتك و سلامك عليه و أحباؤه . . و أنت تعلم – يا سيدي – حبهم و حبنا للعترة الطاهرة ، الأئمة الذين أذهبت عنهم الرجس و طهرتهم

[1] تاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٥٤ ، تاريخ الخميس ج ٣٤٣ .

تطهيرا و على رأسهم سيد المسلمين و أمير المؤمنين و قائد الغر المحجلين و إمـــام المتقين سيدنا على بن أبي طالب .

و اجعلني اللهم من شيعتهم و من المتمسكين بحبل ولائهم و السائرين على منهاجهم ، و الراكبين في سفينتهم و المستمسكين بعروتهم الوثقى و الداخلين من

أبوابهم و الدائبين في محبتهم و مودتهم العاملين بأقوالهم و أفعالهم و الشاكرين لفضلهم و نوالهم .

اللهم و احشرني في زمرتهم فقد قال نبيك صلواتك عليه و على آله : " يحشر المرء مع من أحب " .

٢ – حديث السفينة

قال رسول الله (صلى الله عليه و آله) :

" إنما مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح في قومه ، من ركبها نجا و من تخلف عنها غرق " [١] .

" و إنما مثل أهل بيتي فيكم مثل باب حطة في بني إسرائيل من دخله غفر له " [٢] .

و قد أورد ابن حجر في كتابه الصواعق المحرقة هذا الحديث ثم قال : و وجه تشبيههم بالسفينة أن من أحبهم وعظمهم شكرا لنعمة مشرفهم ، و أخذا بهدي علمائهم نجا من ظلمة المخالفات ، و من تخلف عن ذلك غرق في بحر كفر النعم و هلك في مفاوز الطغيان ، و وجه تشبيههم بباب حطة ، إن الله تعالى جعل دخول ذلك الباب الذي هو باب أريحا ، أو بيت المقدس مع التواضع ، و الاستغفار سببا للمغفرة ، و جعل لهذه الأمة مودة أهل البيت سببا للمغفرة و النجاة .

---

[1] المستدرك للحاكم ج ٣ ص ١٥١ تلخيص الذهبي ، ينابيع المودة ص ٣٠ و ٣٧٠ .

الصواعق المحرقة لابن حجر ص ١٨٤ و ٢٣٤ ، تاريخ الخلفاء للسيوطي و الجامع الصغير له ، إسعاف الراغبين .

[2] مجمع الزوائد للهيثمي ج ٩ ص ١٦٨ .

و يا ليتني أسأل ابن حجر هل كان من الذين ركبوا السفينة و دخلوا الباب و أخذوا بهدي العلماء ، أم أنه من الذين يقولون ما لا يفعلون و يخالفون ما يعتقدون ، و كثيرون هم أولئك الجهلة الذين عندما أسألهم و احتج عليهم يقولون

لي ، نحن أولى بأهل البيت و بالإمام علي من غيرنا ، نحن نحترم أهل البيت و نقدرهم و ليس هناك من ينكر فضلهم و فضائلهم ! .

نعم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، أو أنهم يحترمونهم و يقدرونهم و لكن يقتدون بأعدائهم ، و يقلدونهم و من قاتلهم و خالفهم .

أو أنهم في أغلب الأحيان لا يعرفون من هم أهل البيت و إذا سألتهم من هم أهل البيت ؟ يجيبون على الفور : هم نساء النبي اللاتي أذهب الله عنهن الرجس و طهرهم تطهيرا ، و قد كشف لي أحدهم عن هذا اللغز عندما سألته و أجابني قائلا : أهل السنة و الجماعة كلهم يقتدون بأهل البيت ، و تعجبت و قلت كيف ذلك ؟ فقال : قال رسول الله خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء يعني عائشة ، فنحن أخذنا نصف الدين عن أهل البيت ، و على هذا الأساس يفهم كلامهم حول احترام و تقدير أهل البيت أما إذا سألتهم عن الأئمة الإثني عشر فلا يعرفون منهم غير علي و الحسن و الحسين مع أنهم لا يقولون بإمامة الحسنين ، و هم يحترمون معاوية بن أبي سفيان الذي دس السم للحسن فقتله (و يسمونه " كاتب ـــ الوحي ") و عمرو بن العاص كاحترامهم الإمام علي .

إنه التناقض و الخلط و التلبيس تلبيس الحق بالباطل و تغليف الضياء بالظلام و إلا كيف يجتمع في قلب المؤمن حب الله و الشيطان معا ، قال الله في كتابه المجيد :

{ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ }
[1] .

و قال أيضا عز من قائل :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ

[1] سورة المجادلة (٥٨) ، الآية : ٢٢ .

وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ ... } [1] .

٣ – حديث من سره أن يحيا حياتي

قال رسول الله (صلى الله عليه و آله) :

" من سره أن يحيا حياتي ، و يموت مماتي ، و يسكن جنة عدن غرسها ربي ، فليوال عليا من بعدي و ليوال وليه ، و ليقتد بأهل بيتي من بعدي ، فإنهم عترتي خلقوا من طينتي ، و رزقوا فهمي و علمي ، فويل للمكذبين بفضلهم من أمتي ، القاطعين فيهم صلتي ، لا أنالهم الله شفاعتي " [2] .

و هذا الحديث هو كما نرى من الأحاديث الصريحة التي لا تقبل التأويل و لا تترك للمسلم أي اختيار بل تقطع عليه كل حجة ، و إذا لم يوال عليا و يقتد بأهل البيت عترة الرسول فهو محروم من شفاعة جدهم رسول الله (صلى الله عليه و آله) .

و تجدر الإشارة هنا بأنه خلال البحث الذي قمت به شككت في البدء في صحة هذا الحديث و استعظمته لما فيه من تهديد و وعيد لمن كان على خلاف مع علي و أهل البيت و خصوصا أن هذا الحديث لا يقبل التأويل ، و خفت الوطأة عندما قرأت في كتاب الإصابة لابن حجر العسقلاني بعدما أخرج الحديث قوله : " قلت في أسناده يحيى بن يعلى المحاربي و هو واه " و أزال ابن حجر بهذا القول بعض الإشكال الذي علق بذهني إذ تصورت أن يحيى بن يعلى المحاربي هو واضع الحديث و هو ليس بثقة ، و لكن الله سبحانه و تعالى أراد أن يوقفني على

---

[1] سورة الممتحنة (٦٠) ، الآية : ١ .

[2] مستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٢٨ الطبراني في الجامع الكبير الإصابة لابن حجر العسقلاني ، كنز العمال ج ٦ ص ١٥٥ . المناقب للخوارزمي ص ٣٤ ينابيع المودة ص ١٤٩ . حلية الأولياء ج ١ ص ٨٦ تاريخ ابن عساكر ج ٢ ص ٩٥ .

الحقيقة بكاملها ، و قرأت يوما كتاب " مناقشات عقائدية في مقالات إبـــراهيم الجبهان " [١] .

[1] مناقشات عقائدية في مقالات إبراهيم الجبهان صفحة ٢٩ .

و أوقفني هذا الكتاب على جلية الحال إذ تبين أن يحيى بن يعلى المحاربي هو من الثقات الذين اعتمدهم الشيخان مسلم و البخاري ، و تتبعت بنفسي فوجدت البخاري يخرج له أحاديث في باب غزوة الحديبية من جزئه الثالث في صفحة عدد ٣١ ، كما أخرج له مسلم في صحيحه في باب الحدود من جزئه الخامس في صفحة عدد ١١٩ و الذهبي نفسه – على تشدده – أرسل توثيقة إرسال المسلمات و قد عده أئمة الجرح و التعديل من الثقات و احتج به الشيخان فلماذا هذا الدس و التزوير و تقليب الحقائق و الطعن في رجل ثقة احتج به أهل الصحاح ؟ أ لأنه ذكر الحقيقة الناصعة في وجوب الإقتداء بأهل البيت فكان جزاؤه من ابن حجر التوهين و التضعيف ، و قد فات ابن حجر أن من ورائه علماء جهابذة يحاسبونه على كل صغيرة و كبيرة و يكشفون تعصبه و جهله لأنهم يستضيئون بنور النبوة و يهتدون بهدى أهل البيت .

و عرفت بعد ذلك أن ببعض علمائنا يحاولون جهدهم تغطية الحقيقة لئلا ينكشف أمر الصحابة و الخلفاء الذين كانوا أمراءهم و قدوتهم فتجدهم مرة يتأولون الأحاديث الصحيحة الثابتة و يحملونها غير معانيها ، مثال ذلك تأويلهم لمعنى المولى بدل الأولى إلى معنى المحب و الناصر في حديث " من كنت مولاه فهذا علي مولاه " ، فعلماء أهل السنة يقولون بصحة الحديث و لكن يجب تأويله إلى معنى المحب و الناصر و ذلك لتصحيح خلافة أبي بكر و عمر و عثمان و إلا لوجب أن يكون علي كرم الله وجهه أولى منهم جميعا ، و هذا فيه ما فيه من تفسيق أكثر الصحابة الذين بايعوا أبا بكر و هو منكر من القول ، هذا قول علماء أهل السنة و الجماعة كما صرح لي به كثير من علمائنا في تونس ! و لما قلت لهم أن رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) قبلَ الحديث و خلال الخطبة سألهم (ألست أولى بكم من أنفسكم ؟ قالوا : بلى عند ذلك قال " من كنت مولاه

فهذا علي مولاه ") ، أجاب البعض بأن هذا من زيادات الـــشيعة ، و عنـــدما سألتهم : أيعقل أن يجمع رسول الله (صلى الله عليه و آلـه) و سلم مائة ألف من الحجيج في حر الهجير و يحبسهم في الشمس المحرقة ليقول لهم بأن عليا محـــب و ناصـــر المسلمين ؟ أ هذا معقول ؟ ؟ فسكتوا و لم يجيبوا .

و مرة يكذبون الأحاديث التي تناقض مذهبهم و إن وردت في صحاحهم

و أسانيدهم ، مثال ذلك حديث " الخلفاء من بعدي إثنا عشر كلهم من قريش و في رواية كلهم من بني هاشم " و قد أخرج الحديث كل من البخاري و مسلم و كل صحاح أهل السنة و الجماعة ، و مع ذلك فهم يكذبون أن يكون هؤلاء هم الأئمة الإثنا عشر من أهل البيت الذين تقول بإمامتهم و ولائهم الشيعة الإمامية الإثنا عشرية ، و هم يعدون الخلفاء الراشدين الأربعة و منهم من يلحق بهم الخليفة عمر بن عبد العزيز فيصح العدد خمسة و يتوقفون عند ذلك لأنهم ، و الحق معهم لا يعدون معاوية و ابنه يزيد و لا مروان بن الحكم و أولاده من الخلفاء الراشدين ، و يبقى العدد (إثنا عشر) بالنسبة إليهم لغزا ليس له حل اللهم إلا إذا قالوا بقول الإمامية ! .

و مرة يحذفون من الحديث نصفه أو ثلثيه ليبدلوه بـ (كذا و كذا) ! ! و مثال ذلك حديث " إن هذا أخي و وصيي و خليفتي من بعدي فاسمعوا له و أطيعوا " قاله و هو آخذ برقبة علي و قد أخرج هذا الحديث كل من الطبري في تاريخه و ابن الأثير في كامله و كذلك كتر العمال و مسند الإمام أحمد و صاحب السيرة الحلبية و ابن عساكر و لكن الذي طبع كتاب تفسير الطبري ج ١٩ ص ١٢١ لم يترك الحديث كاملا كما نطق به رسول الله (صلى الله عليه و آله) و سلم بل حذف منه كل معانيه و أبدلها بقوله " إن هذا أخي و كذا و كذا ! ! " و غفل عن أن الطبري أخرج الحديث كاملا في تاريخه ج ٢ ص ٣١٩ - ٣٢١ ، إنها الأمانة العلمية ، و لعل هذا العالم لم تمكنه الحيل من تكذيب الحديث و رأى أن فيه نصا صريحا على خلافة علي بعد رسول الله (صلى الله عليه و آله) و سلم فعمد إلى تغطية هذه النصوص و تبديلها بكذا و كذا و ظن هذا المسكين بأنه سوف يحجب نور الشمس عندما يغمض هو عينيه ، أو أنه سوف يقنع القراء و المثقفين بقوله : كذا و كذا ، كلا إنها كلمة هو قائلها ! ! .

و مرة يشككون في الرواة الثقاة لأنهم حدثوا بما لا تهوى أنفسهم ، مثـــال ذلك طعنهم في يحيى بن يعلى المحاربي و هو من الثقاة الذين احتج بهم البخاري و مسلم في الصحاح و لكن ابن حجر العسقلاني طعن به و وصفه بأنه واه ، لا إلا أنه روى حديث الموالاة الذي أمر فيه رسول الله (صلى الله عليه و آله و ســلم) أصحابه بأن يوالوا من بعده عليا و أهل البيت ، و هذا الحديث لا يروق

لابن حجر و أمثاله الذين يحاولون جهدهم طمس الحقائق التي أنفق معاوية بن أبي سفيان كل ما يملك من الذهب و الفضة في سبيل طمسها فلم يفلح ، فكيف يمكن لابن حجر أن يطمسها بطعنه في الرواة الثقاة ، و قد كان لمعاوية زيادة على المال ، الحول و الطول و السلطة و الجاه و مع ذلك فشل فشلا ذريعا و طواه الزمان في خبر كان بينما بقي نور الإمام علي يشع على مر الأيام ، فكيف يتسنى لابن حجر و أضرابه أن يشككوا في حقيقة أهل البيت بمجرد الطعن في الرواة الأمناء الثقاة ؟ ؟ فهيهات هيهات أن ينطفئ نور الله بالأفواه ! . .

و مرة يخرجون الحديث في الطبعة الأولى و يحذفونه في الطبعات الأخرى بدون أي إشارة إلى مبرر الحذف رغم أن المطلعين يدركون سبب ذلك ! ! مثال ذلك ما فعله محمد حسين هيكل في كتابه " حياة محمد " في الطبعة الأولى ص ١٠٤ قال :

عندما نزل قوله سبحانه (و أنذر عشيرتك الأقربين) ثم أورد القصة كما ذكرها المؤرخون و في أخرها قال رسول الله (صلى الله عليه و آله و سلم) " إن هذا أخي و وصيي و خليفتي فيكم .. ! ! " و لكنه حذفها في الطبعة الثانية و ما بعدها من الطبعات بدون إشارة و لا تعليق يشيران من قريب أو من بعيد لسبب حذفه هذه الفقرة من حديث الرسول (صلى الله عليه و آله و سلم) و إن كان الشيخ محمد جواد مغنية – و العهدة عليه – نقل في كتابه " الشيعة في الميزان " هذه الحادثة و قال أن محمد حسين هيكل حذف هذه الفقرة مقابل آلاف الجنيهات ، و بما أن هيكل لم يكذب الخبر و لم يعلل حذفه للفقرة المذكورة ، فقد تبين صدق الشيخ محمد جواد مغنية ، و إطلاعه الواسع على مجريات الأمور ! .

على أننا نقول لهؤلاء و أمثالهم الذين يشترون بآيات الله ثمنا قليلا : إتقوا الله و قولوا قولا سديدا و تذكروا قوله سبحانه و تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا

أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّـهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ } ، سورة البقرة آية ١٥٩ ، و قوله سبحانه و تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } ، سورة البقرة آية ١٧٤ .

فهل لهؤلاء أن يتوبوا إلى الله و يعترفوا بالحق عسى أن يتوب الله عليهم ، قبل فوات الأوان ؟ ؟ ؟ .

و قد تحقق لدي كل هذا بعد البحث و التمحيص و عندي أدلة قاطعة على ما أقول ، فليتهم إذ يحاولون عبثا كل هذه المحاولات لتبرير أعمال الصحابة الذين انقلبوا على الأعقاب ، فجاءت أقوالهم متناقضة بعضها مع بعض و متناقضة مع التاريخ .

ليتهم اتبعوا الحق و لو كان مُرا إذا لأراحوا و استراحوا ، و لكانوا سببا في جمع شمل هذه الأمة المتمزقة و المتناحرة لا لشيء إلا لتأييد أقوالهم أو تفنيدها .

و إذا كان بعض الصحابة الأولين غير ثقاة في نقل الأحاديث النبوية الشريفة فيبطلون منها ما لا يتماشى و أهواءهم و خصوصا إذا كانت هذه الأحاديث من الوصايا التي أوصى بها رسول الله (صلى الله عليه و آله) عند وفاته ، فقد أخرج البخاري و مسلم أن رسول الله أوصى عند موته بثلاث :

- أخرجوا المشركين من جزيرة العرب .
- أجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم . . ثم يقول الراوي :

و نسيت الثالثة [1] .

فهل يعقل أن الصحابة الحاضرين الذين سمعوا وصايا الرسول الثلاث عند موته ينسون الوصية الثالثة و هم الذين كانوا يحفظون القصائد الشعرية الطويلة بعد سماعها مرة واحدة ؟ كلا و لكن السياسة هي التي أجبرتهم على نسيانها و عدم ذكرها ، إنها مهزلة أخرى من مهازل هؤلاء الصحابة ، و لان الوصية

[1] صحيح البخاري ج ١ ص ١٢١ باب جوائز الوفد من كتاب الجهاد و السير ، صحيح مسلم ج ٥ ص ٧٥ كتاب الوصية .

الأولى لرسول الله كانت – بلا شك – استخلاف علي بـــن أبي طالـــب فلـــم يذكرها الراوي .

مع أن الباحث في هذه المسألة يجد رائحة الوصية لعلي تفوح رغم كتمانها و عدم ذكرها فقد أخرج البخاري في صحيحه في كتاب الوصايا كما أخـــرج مسلم

أيضا في صحيحه في كتاب الوصية أنه ذكر عند عائشة أن النبي أوصى إلى علي [١] ، أنظر كيف يظهر الله نوره و لو ستره الظالمون .

أعود فأقول إذا كان هؤلاء الصحابة غير ثقاة في نقل وصايا رسول الله فلا لوم بعد ذلك على التابعين و تابعي التابعين .

و إذا كانت عائشة أم المؤمنين لا تطيق ذكر اسم علي و لا تطيب لها نفسا بخير كما ذكر ذلك ابن سعد في طبقاته [٢] و البخاري في صحيحه (باب مرض النبي و وفاته) و إذا كانت تسجد لله شكرا عندما سمعت بموته ، فكيف يرجى منها ذكر الوصية لعلي و هي من عرفت لدى الخاص و العام بعدائها و بغضها لعلي و أولاده و لأهل بيت المصطفى .

فلا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم .

***

[١] صحيح البخاري ج ٣ ص ٦٨ باب مرض النبي و وفاته صحيح مسلم ج ص ١٤ من كتاب الوصية .

[٢] طبقات ابن سعد القسم الثاني من الجزء ٢ ص ٢٩ .

مصيبتنا في الاجتهاد مقابل النصوص

استنتجت من خلال البحث أن مصيبة الأمة الإسلامية انجرت عليها من الاجتهاد الذي دأب عليه الصحابة مقابل النصوص الصريحة فاخترقت بذلك حدود الله و محقت السنة النبوية و أصبح العلماء و الأئمة بعد الصحابة يقيسون على اجتهادات الصحابة و يرفضون بعض الأحيان النص النبوي إذا تعارض مع ما فعله أحد الصحابة ، أو حتى النص القرآني و لست مبالغا و قد قدمت كيف أنهم رغم وجود النص على التيمم في كتاب الله و سنة الرسول الثابتة رغم كل ذلك اجتهدوا ، فقالوا بترك الصلاة مع فقد الماء و قد علل عبد الله بن عمر اجتهاده بالنحو الذي أشرنا إليه في مكان آخر من بحثنا .

و من أول الصحابة الذين فتحوا هذا الباب على مصراعيه هو الخليفة الثاني الذي استعمل رأيه مقابل النصوص القرآنية بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه و آله) فعطل سهم المؤلفة قلوبهم الذين فرض الله لهم سهما من الزكاة و قال : لا حاجة لنا فيكم .

أما اجتهاده في النصوص النبوية فلا يحصى و قد اجتهد في حياة الرسول نفسه و عارضه عدة مرات .

و قد أشرنا في ما سبق إلى معارضته في صلح الحديبية و في منع كتابة الكتاب و قوله حسبنا كتاب الله و قد وقعت له حادثة أخرى مع رسول الله (صلى الله عليه و آله) لعلها تعطينا صورة أوضح لنفسية عمر الذي أباح لنفسه أن يناقش و يجادل و يعارض صاحب الرسالة تلك هي حادثة التبشير بالجنة إذ بعث رسول الله أبا هريرة و قال له من

لقيته يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه فبشره بالجنة ، فخرج ليبشر فلقيه عمر و منعه من ذلك و ضربه حتى سقط على أسته ، فرجع أبو هريرة إلى رسول الله و هو يبكي و أخبره بما فعل عمر فقال رسول الله لعمر ما حملك على ما فعلت ؟ قال : هل أنت بعثته ليبشر بالجنة من قال لا إله إلا الله مستيقنا بها قلبه ؟ قال رسول الله نعم ، قال عمر : لا تفعل فإني أخشى أن يتكل الناس على لا إله إلا الله ! .

و هذا ابنه عبد الله بن عمر يخشى أن يتكل الناس على التيمم فيأمرهم بترك الصلاة ، و يا ليتهم تركوا النصوص كما هي و لم يبدلوها باجتهاداتهم العقيمة التي تؤدي إلى محو الشريعة و انتهاك حرمات الله و تشتيت الأمة في متاهات المذاهب المتعددة و الآراء المتشعبة و الفرق المتناحرة .

و من مواقف عمر المتعددة تجاه النبي و سنته نفهم بأنه ما كان يعتقد يوما بعصمة الرسول بل كان يرى أنه بشر يخطئ و يصيب .

و من هنا جاءت الفكرة لعلماء السنة و الجماعة بأن رسول الله معصوم في تبليغ القرآن فقط و ما عدا ذلك فهو يخطئ كغيره من البشر و يستدلون على ذلك بأن عمر صوب رأيه في العديد من القضايا .

و إذا كان رسول الله (صلى الله عليه و آله) – كما يروي البعض من الجهلة – يقبل مزمارة الشيطان في بيته و هو مستلق على ظهره و النسوة يضربن الدفوف و الشيطان يلعب و يمرح إلى جانبه حتى إذا دخل عمر بن الخطاب هرب الشيطان و أسرع النسوة فخبأن الدفوف تحت استهن و قال رسول الله لعمر ما رآك الشيطان سالكا فجا حتى سلك فجا غير فجك .

فلا غرابة إذا أن يكون لعمر بن الخطاب رأي في الدين و أن يسمح لنفسه بمعارضة النبي في الأمور السياسية و حتى في الأمور الدينية كما تقـــدم في تبـــشير المؤمنين بالجنة .

و من فكرة الاجتهاد و استعمال الرأي مقابل النصوص نشأت أو تكونت مجموعة من الصحابة و على رأسهم عمر بن الخطاب و قد رأيناهم يوم الرزيـــة كيف

ساندوا و عضدوا رأي عمر مقابل النص الصريح .

و من ذلك أيضا نستنتج أن هؤلاء لم يقبلوا يوما نصوص الغدير التي نصب بها النبي (صلى الله عليه و آله) عليا خليفة له على المسلمين ، و تحينوا الفرصة السانحة لرفضها عند وفاة النبي فكان اجتماع السقيفة و انتخاب أبي بكر من نتيجة هذا الاجتهاد ، و لما استتب لهم الأمر و تناسى الناس نصوص النبي بشأن الخلافة ، بدأوا يجتهدون في كل شيء حتى استطالوا على كتاب الله فعطلوا الحدود و أبدلوا الأحكام فكانت مأساة فاطمة الزهراء بعد مأساة زوجها و إبعاده عن منصة الخلافة ، ثم كانت مأساة قتل مانعي الزكاة ، و كل ذلك من الاجتهاد مقابل النصوص ، ثم كانت خلافة عمر بن الخطاب نتيجة حتمية لذلك الاجتهاد إذ أن أبا بكر اجتهد برأيه و أسقط الشورى التي كان يستدل بها هو نفسه على صحة خلافته و زاد عمر في الطين بلة عندما ولي اُمور المسلمين فأحل ما حرم الله و رسوله [١] و حرم ما أحل الله و رسوله [٢] .

و لما جاء عثمان بعده ذهب شوطا بعيدا في الاجتهاد فبالغ أكثر ممن سبقوه حتى أثر اجتهاده في الحياة السياسة و الدينية بوجه عام فقامت الثورة و دفع حياته ثمن اجتهاده .

و لما ولي الإمام علي أمور المسلمين وجد صعوبة كبيرة في إرجاع الناس إلى السنة النبوية الشريفة و حظيرة القرآن و حاول جهده أن يزيل البدع التي أدخلت في الدين و لكن بعضهم صاح واسنة عمراه ! و أكاد اعتقد و أجزم بأن

---

[١] كقضية إمضائه الطلاق الثلاث ، صحيح مسلم باب الطلاق الثلاث ، سنن أبي داوود ج ١ ص ٣٤٤ .

[٢] كتحريمه متعة الحج و متعة النساء صحيح مسلم كتاب الحج صحيح البخاري كتاب الحج باب التمتع .

الذين حاربوا الإمام عليا و خالفوه ، إنما فعلوا ذلك لأنه – سلام الله عليه – حملهم على الجادة و أرجعهم إلى النصوص الصحيحة مميتا بذلك كل البدع و الاجتهادات التي ألصقت بالدين طوال ربع قرن و قد ألفها الناس و خاصة منهم أصحاب الأهواء و الأطماع الدنيوية الذين اتخذوا مال الله دولا و عباد الله خولا و كدسوا الذهب و الفضة و حرموا المستضعفين من أبسط الحقوق التي شرعها الإسلام .

و قد نجد أن المستكبرين في كل عصر يميلون إلى الاجتهاد و يطبلون لـــه لأنه يفسح لهم المجال للوصول إلى مآربهم من كل طريق . أما النصوص فتقطـــع عليهم وجهتهم و تحول بينهم و بين ما يرومون .

ثم أن الاجتهاد وجد له أنصارا في كل عصر و مصر حتى من المستضعفين أنفسهم لما فيه من سهولة التطبيق و عدم الالتزام .

و لان النص فيه التزام و عدم حرية و قد يسمى عند رجـــال الـــسياسة الحكم الثيوقراطي يعني حكم الله و لان الاجتهاد فيه حرية و عدم إلتزام بالقيود و ربما يسمونه الحكم الديمقراطي يعني حكم الشعب فالذين اجتمعـــوا في الـــسقيفة بعد وفاة النبي (صلى الله عليه و آله) ألغوا الحكومة الثيوقراطية التي أســـسها رســـول الله على مبدأ النصوص القرآنية ، و أبدلوها بحكومة ديمقراطية يختار الشعب فيها من يراه صالحا لقيادته ، على أن أولئك الـــصحابة لم يكونـــوا ليعرفـــوا كلمـــة " الديمقراطية " لأنها ليست عربية و لكنهم يعرفون نظام الشورى [1] .

فالذين لا يقبلون النص على الخلافة – اليوم – هم أنصار " الديمقراطيـــة " و يفتخرون بذلك مدعين أن الإسلام هو أول من ارتأى هذا النظـــام ، و هـــم أنصار الاجتهاد و التجديد و هم اليوم أقرب ما يكونون من الـــنظم الغربيـــة و لذلك نسمع اليوم من الحكومات الغربية تمجيدا لهؤلاء و تـــسميتهم بالمـــسلمين المتطورين و المتسامحين .

---

[1] رغم أنه في الواقع لم يحصل حتى هذا النوع من الانتخاب إذ أن الذين انتخبوا لا يملكـــون حق تمثيل الأمة بأي وجه من الوجوه علاوة على غياب الكثيرين من وجوه المسلمين الذين لهم حـــق الانتخاب فكانت كما جاء في الشعر المنسوب إلى أمير المؤمنين يخاطب أبا بكر :

فإن كنت بالشورى ملكت أمورهم * فكيف بهذا و المشيرون غيب

و إن كنت بالقربى حججت خصيمهم * فغيرك أولى بالنبي و أقرب

أما الشيعة أنصار " الثيوقراطية " أو حكومة الله و الذين يرفضون الاجتهاد مقابل النص و يفرقون بين حكم الله و الشورى ، فالشورى عندهم لا علاقة لها بالنصوص و إنما الاجتهاد و الشورى في ما لا نص فيه ، أفلا ترى أن الله سبحانه

هو الذي اختار رسوله محمدا و مع ذلك قال له : { ... وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ... } [1] .

أما في ما يتعلق باختيار القادة الذين يقودون البشرية فقال : { وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ... } [2] .

فالشيعة إذ يقولون بخلافة الإمام علي بعد رسول الله إنما يتمسكون بالنص و هم إذ يطعنون في بعض الصحابة إنما يطعنون في الذين أبدلوا النص بالاجتهاد فضيعوا بذلك حكم الله و رسوله ، و فتحوا في الإسلام رتقا لم يلتئم حتى اليوم .

و من أجل هذا أيضا نجد الحكومات الغربية و مفكريهم ينبذون الشيعة و يسمونهم بالتعصب الديني و يسمونهم رجعيين لأنهم يريدون الرجوع إلى القرآن الذي يقطع يد السارق و يرجم الزاني و يأمر بالجهاد في سبيل الله و كل ذلك عندهم عنجهية بربرية .

و فهمت خلال هذا البحث لماذا أغلق بعض علماء أهل السنة و الجماعة باب الاجتهاد منذ فقهاء القرن الثالث للهجرة فربما كان ذلك لما جره هذا الاجتهاد على الأمة من ويلات و مصائب و خطوب و حروب دامية أكلت الأخضر و اليابس و قد أبدل الاجتهاد خير أمة أخرجت للناس أمة متناحرة متقاتلة تسودها الفوضى و تحكم فيها القبلية و تنقلب من الإسلام إلى الجاهلية .

بعكس الشيعة الذين بقي عندهم باب الاجتهاد مفتوحا ما دامت النصوص قائمة و لا يمكن لأي أحد تبديلها و أعانهم على ذلك وجود الأئمة

---

[1] سورة آل عمران (٣) ، الآية : ١٥٩ .

[2] سورة القصص (٢٨) ، الآية : ٦٨ .

الاثني عشر الذين ورثوا علم جدهم فكانوا يقولون ليس هنـــاك مـــسألة إلا و لله حكم فيها و قد بينه رسول الله (صلى الله عليه و آله) .

و نفهم أيضا أن أهل السنة و الجماعة لما اقتدوا بالصحابة المجتهدين الذين منعوا كتابة السنة النبوية وجدوا أنفسهم مضطرين أمام غياب النصوص للاجتهاد بالرأي و القياس و الاستصحاب و سد باب الذرائع إلى غير ذلك ...

و نفهم أيضا من كل ذلك أن الشيعة التفوا حول الإمام علي و هو بـــاب مدينة العلم و الذي كان يقول لهم : سلوني عن كل شيء فقد علمني رسول الله ألف باب من العلم يفتح لكل باب ألف باب [1] . بينما التف غير الشيعة حـــول معاوية بن أبي سفيان الذي لم يكن يعرف من سنة النبي إلا قليلا . و أصبح إمـــام الفئة الباغية أميراً للمؤمنين بعد وفاة الإمام علي فعمل في دين الله برأيه أكثر مـــن الذين سبقوه ، و أهل السنة و الجماعة يقولون إنه كاتب الوحي و إنه من العلماء المجتهدين ، كيف يحكمون باجتهاده و قد دس السم للحسن بن علي سيد شباب أهل الجنة فقتله ؟ و لعلهم يقولون : هذا أيضا مـــن اجتـــهاده فقـــد اجتهـــد و أخطأ ! .

كيف يحكمون باجتهاده و قد أخذ البيعة من الأمة بالقوة و القهر لنفـــسه ثم لابنه يزيد من بعده و حول نظام الشورى إلى الملكية القيصرية .

كيف يحكمون باجتهاده و يعطونه أجرا و قد حمل الناس على لعن علي و أهل البيت ذرية المصطفى من فوق المنابر و أصبحت سنة متبعة طـــوال ســـتين عاما .

بل كيف يسمونه " كاتب الوحي " . . و قد نزل الوحي على رسول الله (صلى الله عليه و آلـــه) طيلة ثلاثة و عشرين عاما ، كان معاوية مدة أحد عشر عاما منها مشركا بالله . . و لما أسلم بعد الفتح لم نعثر على رواية تقول أنه سكن المدينة في حين أن رسول الله (صلى الله عليه و آله) لم يسكن مكة بعد الفتح . . فكيـــف تـــسنى لمعاوية كتابة الوحي يا ترى ؟ ! .

---

[1] تاريخ دمشق لابن عساكر ج ٢ ص ٤٨٤ ترجمة الإمام علي بن أبي طالب . مقتل الحسين للخوارزمي ج ١ ص ٣٨ . الغدير للاميني ج ٣ ص - ١٢٠ .

فلا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم ! و السؤال يعـــود دائمـــا : أي الفريقين على الحق و أيهما على الباطل ، فإما أن يكون علي و شيعته ظـــالمين و على غير الحق ، و إما أن يكون معاوية و أتباعه ظالمين و على غير الحق .

و قد أوضح رسول الله (صلى الله عليه و آله) كل شيء غير أن بعض مدعي أتباع السنة

يبغونها عوجا و قد اتضح لي من خلال البحث و من خلال الوقوف على الدفاع عن معاوية إن المدافعين عنه هم أتباعه و أتباع بني أمية و ليسوا كما يدعون أتباع السنة النبوية ، و خصوصا إذا تتبعت مواقفهم فهم يكرهون شيعة علي و يحتفلون بيوم عاشوراء عيدا و يدافعون عن الصحابة الذين آذوا رسول الله في حياته و بعد وفاته و يصححون أخطاءهم و يبررون أعمالهم .

ترى ، كيف تحبون عليا و أهل البيت و تترضون في نفس الوقت على أعدائهم و قاتليهم ؟ كيف تحبون الله و رسوله و تدافعون عمن بدل أحكام الله و رسوله و اجتهد و تأول برأيه في أحكام الله ؟ .

كيف تحترمون من لم يحترم رسول الله بل يرميه بالهجر و يطعن في إمارته ؟ ! .

كيف تقلدون أئمة نصبتهم الدولة الأموية أو الدولة العباسية لأمور سياسية و تتركون الأئمة الذين نص عليهم رسول الله بعددهم [1] و بأسمائهم [2] . كيف تقلدون من لم يعرف النبي حق معرفته و تتركون باب مدينة العلم و من كان منه بمنزلة هارون من موسى ؟ !

* من الذي أطلق مصطلح أهل السنة و الجماعة ؟ !

لقد بحثت في التاريخ فلم أجد إلا أنهم اتفقوا على تسمية العام الذي استولى فيه معاوية على الحكم " عام الجماعة " ، و ذلك أن الأمة انقسمت بعد مقتل عثمان إلى قسمين شيعة علي و أتباع معاوية و لما استشهد الإمام علي و استولى معاوية على الحكم بعد الصلح الذي أبرمه مع الإمام الحسن و أصبح

---

[1] صحيح البخاري ج ٤ ص ١٦٤ صحيح مسلم ص ١١٩ في باب الناس تبع لقريش .

[2] ينابيع المودة للقندوزي الحنفي .

معاوية هو أمير المؤمنين سُمّيَ ذلك العام " عام الجماعة " ، إذاً فتسمية " أهل السنة و الجماعة " دالة على إتباع سنة معاوية و الاجتماع عليه و ليست تعني إتباع سنة رسول الله ، فالأئمة من ذريته و أهل بيته أدرى و أعلم بسنة جدهم من الطلقاء ، و أهل البيت أدرى بما فيه ، و أهل مكة أدرى بشعابها و لكننا خالفنا الأئمة الإثني

عشر الذين نص عليهم رسول الله (صلى الله عليه و آله) و اتبعنا أعداءهم .

و رغم اعترافنا بالحديث الذي ذكر فيه رسول الله اثني عشر خليفة كلهم من قريش إلا أننا نتوقف دائما عند الخلفاء الأربعة و لعل معاوية الذي سمانا " أهل السنة و الجماعة " كان يقصد الاجتماع على السنة التي سنها بسب علي و أهل البيت و التي استمرت ستين عاماً و لم يقدر على إزالتها إلا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه و قد يحدثنا بعض المؤرخين أن الأمويين تآمروا على قتل عمر بن عبد العزيز و هو منهم لأنه أمات السنة و هي لعن علي بن أبي طالب .

يا أهلي و عشيرتي لنتجه – على هدى الله تعالى – إلى البحث عن الحق و ننبذ التعصب جانباً فنحن ضحايا بني أمية و بني العباس و ضحايا التاريخ المظلم و ضحايا الجمود الفكري الذي ضربه علينا الأوائل ، إننا لا شك ضحايا الدهاء و المكر الذي اشتهر به معاوية و عمرو بن العاص و المغيرة بن شعبة و أضرابهم ، ابحثوا في واقع تاريخنا الإسلامي لتبلغوا الحقائق الناصعة و سيؤتيكم الله أجركم مرتين فعسى أن يجمع الله بكم شمل هذه الأمة التي نكبت بعد موت نبيها و تمزقت إلى ثلاث و سبعين فرقة ، هلموا لتوحيدها تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله الإقتداء بأهل البيت النبوي الذين أمرنا رسول الله (صلى الله عليه و آله) بإتباعهم فقال : " لا تقدموهم فتهلكوا ، و لا تتخلفوا عنهم فتهلكوا ، و لا تعلموهم فإنهم أعلم منكم " [1] .

---

[1] الدر المنثور للسيوطي ج ٢ ص ٦٠ ص ٦٠ أُسد الغابة ج ٣ ص ١٣٧ الصواعق المحرقة لابن حجر ص ١٤٨ و ٢٢٦ ينابيع المودة ص ٤١ و ٣٥٥ كنز العمال ج ١ ص ١٦٨ مجمع الزوائد ج ٩ ص ١٦٣ .

لو فعلنا ذلك ، لرفع الله مقته و غضبه عنا و لا بدلنا من بعد خوفنا أمناً ، و لمكننا في الأرض و استخلفنا فيها و لا ظهر لنا وليه الإمام المهدي عليه السلام الذي وعدنا به رسول الله ليملأ أرضنا قسطاً و عدلاً كما ملئت ظلماً و جوراً و ليتم به الله نوره في كل المعمورة .

دعوة أصدقاء للبحث

كان التحول بداية السعادة الروحية إذ أحسست براحة الضمير و انشرح صدري للمذهب الحق الذي اكتشفته أو قل للإسلام الحقيقي الذي لا شك فيه ، و غمرتني فرحة كبيرة و اعتزاز بما أنعم الله عليّ من هداية و رشاد .

و لم يسعني السكوت و التكتم على ما يختلج في صدري و قلت في نفسي : لا بد لي من إفشاء هذه الحقيقة على الناس { وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ } و هي من أكبر النعم أو هي النعمة الكبرى في الدنيا و في الآخرة ، و " الساكت عن الحق شيطان أخرس " " و ليس بعد الحق " إلا " الضلال " .

و الذي زاد شعوري يقينا بوجوب نشر هذه الحقيقة هو براءة أهل السنة و الجماعة الذين يحبون رسول الله و أهل بيته و يكفي أن يزول الغشاء الذي نسجه التاريخ حتى يتبعوا الحق و هذا ما وقع لي شخصيا .

قال تعالى : { ... كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللّهُ عَلَيْكُمْ ... } [1] .

و دعوت أربعة أصدقاء من الأساتذة العاملين معي في المعهد كان إثنان منهم يدرسان التربية الدينية و الثالث يدرس مادة العربية و الرابع كان أستاذ الفلسفة الإسلامية . لم يكن أربعتهم من قفصة بل كانوا من تونس و من جمال و سوسة ،

[1] سورة النساء (٤) ، الآية : ٩٤ .

دعوتهم إلى البحث معي في هذا الموضوع الخطير و أشعرتهم بأني قاصر عن إدراك بعض المعاني و قد اضطربت و تشككت في بعض الأمور ، و قبلوا المجيء إلى بيتي بعد إنهاء العمل ، و تركتهم يقرأون كتاب المراجعات على أن مؤلفه يدعي أشياء عجيبة و غريبة في الدين ، و قد استهوى الكتاب ثلاثة منهم أما الرابع الذي يدرس اللغة العربية فقد قاطعنا بعد أربع جلسات أو خمس قائلا : " إن الغرب الآن يغزو القمر و أنتم ما زلتم تبحثون عن الخلافة الإسلامية " .

و ما أن أتممنا الكتاب خلال شهر واحد حتى استبصر ثلاثتهم و قد أعنتهم كثيرا للوصول إلى الحقيقة من أقرب الطرق بما تكون عندي من سعة الإطلاع خلال سنوات البحث و ذقت حلاوة الهداية و استبشرت بالمستقبل و أخذت أدعو في كل مرة بعض الأصدقاء من قفصة و الذين كانت تربطني بهم حلقات الدرس في المسجد أو العلاقات المنجرة من الطرق الصوفية و بعض تلاميذي الذين كانوا يلازمونني و ما مرت سنة واحدة حتى أصبحنا بحمد الله عددا كبيرا نوالي أهل البيت ، نوالي من والاهم و نعادي من عاداهم ، نفرح في أعيادهم و نحزن في عاشورا و نعقد مجالس تعزية .

و كانت أولى رسائلي التي تحمل خبر إستبصاري إلى السيد الخوئي و السيد محمد باقر الصدر بمناسبة عيد الغدير إذ احتفلنا به أول مرة في قفصة ، و قد اشتهر أمري لدى الخاص و العام بأني تشيعت و أني أدعو إلى التشيع لآل بيت الرسول (صلى الله عليه و آله) و بدأت الاتهامات و الإشاعات تروج في البلاد ، على أنني جاسوس لإسرائيل أعمل على تشكيك الناس في دينهم و بأنني أسب الصحابة و بأنني صاحب فتنة إلى غير ذلك .

و في تونس العاصمة اتصلت بالصديقين راشد الغنوشي و عبد الفتاح مورو و كانت معارضتهما لي عنيفة جدا و في حديث دار بيننا في بيت عبد

الفتاح ، قلت يجب علينا كمسلمين مراجعة كتبنا و مراجعة تاريخنـــا و ضـــربت لذلك مثلا صحيح البخاري الذي فيه أشياء لا يقبلها عقل و لا دين .

و ثارت ثائرتهما قائلين لي : من أنت حتى تنتقد البخاري ؟ و بذلت كل جهدي

من أجل إقناعهما بالدخول في البحث العلمي الموضوعي فرفضا ذلك .

ازدادت على أثره حملة الإشاعات ضدنا من قبل البعض و بثوا في أوساطهم إشاعات غريبة بغية إبعاد الناس عني و إحاطتي بطوق من العزلة – سامحهم الله تعالى ـــ .

و بدأت العزلة من بعض الشبان و من الشيوخ الذين يتبعون الطرق الصوفية و عشنا فترات قاسية غرباء في ديارنا و بين إخواننا و عشيرتنا و لكن الله سبحانه أبدلنا خيرا منهم فكان بعض الشبان يأتون من مدن أخرى يسألون عن الحقيقة فكنت أبذل قصارى ما في وسعي لإقناعهم بحقيقة منهج أهل البيت (عليهم السلام) و بالواقع التاريخي فاستبصر عدد من الشبان في العاصمة و في القيروان و في سوسة و سيدي بوزيد و كنت خلال رحلتي الصيفية إلى العراق مررت بأوروبا حيث التقيت بعض الأصدقاء في فرنسا و في هولندا و تحدثت معهم في الموضوع فاستبصروا و الحمد لله .

و كم كانت فرحتي عظيمة عندما قابلت السيد محمد باقر الصدر في النجف الأشرف و كان في بيته نخبة من العلماء و أخذ السيد يقدمني إليهم بأني بذرة التشيع لآل بيت النبي (صلى الله عليه و آله) في تونس كما أعلمهم بأنه بكى تأثرا عندما وصلته رسالتي مهنئة تحمل إليه بشرى احتفالنا أول مرة بعيد الغدير السعيد و شكوت إليه ما نلاقيه من مقاومة و من بث الإشاعات ضدنا و العزلة التي نواجهها .

و قال السيد في معرض كلامه : " لابد " من تحمل المشاق لان طريق أهل البيت صعب و وعر ، و قد جاء رجل إلى النبي (صلى الله عليه و آله) فقال له : إني أحبك يا رسول الله ! فقال له : أبشر بكثرة الابتلاء ، فقال : و أحب ابن عمك عليا ! فقال : أبشر بكثرة الأعداء . فقال : و أحب الحسن و الحسين ! فقال

له : فاستعد للفقر و كثرة البلاء . و ماذا قدمنا نحن في سبيل دعوة الحق التي دفع ثمنها أبو عبد الله الحسين (عليه السلام) بنفسه و أهله و ذريته و أصحابه ، كما دفع ثمنها الشيعة على مر التاريخ و ما زالوا حتى اليوم يدفعون ثمن ولائهم لأهل البيت ، فلابد يا أخي من تحمل بعض الأتعاب و التضحية في سبيل الحق فلئن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا و ما فيها .

كما نصحني السيد الصدر بعدم الانزواء و أمرني بأن أتقرب أكثر من إخواني أهل السنة كلما حاولوا الابتعاد عني ، و أمرني أن أصلي خلفهم حتى لا تكون القطيعة ، و أن أعتبرهم أبرياء فهم ضحايا الإعلام و التاريخ المزيف ، و الناس أعداء ما جهلوا .

و قد نصحني السيد الخوئي بالشيء نفسه تقريبا ، كما كان السيد محمد علي الطباطبائي الحكيم يبعث لنا دائما بنصائحه في رسائل متعددة كان لها أثر كبير في سيرة الإخوة المستبصرين على الهدى .

هذا و قد تعددت زياراتي للنجف الأشرف و لعلماء النجف في مناسبات كثيرة ، ثم آليت على نفسي أن أقضى العطلة الصيفية من كل عام في رحاب الإمام علي أحضر دروس السيد محمد باقر الصدر التي استفدت منها كثيرا و نفعتني أيما نفع كما آليت على نفسي أن أزور مقامات الأئمة الإثني عشر و قد حقق الله أمنيتي بأن وفقني حتى لزيارة الإمام الرضا الذي يوجد مرقده في مشهد و هي مدينة قرب الحدود الروسية في إيران و هناك تعرفت على أبرز العلماء و استفدت منهم كثيرا .

كما أعطاني السيد الخوئي الذي كنا نقلده وكالة للتصرف في الخمس و الزكاة و إفادة المجموعة المستبصرة عندنا بما تحتاجه من كتب و إعانات و غير ذلك ، و قد كونت مكتبة مفيدة بها أهم المصادر التي تخص البحث و تجمع كتب الفريقين و تحمل إسم مكتبة أهل البيت (عليهم السلام) و قد أفادت الكثيرين و الحمد لله .

و زاد الله فرحتنا فرحتين و سعادتنا سعادتين فقبل حوالي خمسة عشر عاما سخر لنا الله الكاتب العام لبلدية قفصة فوافق على تسمية الشارع الذي أسكن فيه باسم شارع الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، فلا يفوتني هنا أن أشكر له

هذه اللفتة المشرفة ، فهو من المسلمين العاملين و له ميل كبير و محبة فائقة لشخص الإمام علي (عليه السلام) و قد أهديته كتاب المراجعات ، و هو يبادل مجموعتنا حبا و تقديرا و احتراما فجزاه الله خيرا و أعطاه ما يتمنى .

و قد عمل بعض الحاقدين على إزالة اللوحة و أعيتهم الحيل و شاء الله تثبيتها

، و أصبحت الرسائل ترد علينا من كل أنحاء العالم و عليها اسم شارع الإمـــام علي بن أبي طالب (عليه السلام) ، الذي بارك اسمه الشريف مدينتنا الطيبة العريقة .

و عملا بنصائح الأئمة من أهل البيت (عليهم الـــسلام) و كذلك بنصائح علماء النجف الأشرف عمدنا إلى التقرب من إخوتنا من المذاهب الأخـــرى و لازمنـــا الجماعة فكنا نصلي معا ، و خفَّت بذلك حدة التوتر و تمكنا من إقنـــاع بعـــض الشبان من خلال تساؤلاتهم عن كيفية صلاتنا و وضوئنا و عقائدنا .

***

هدى الحق

في إحدى قرى الجنوب التونسي و خلال حفل زفاف كانت النساء يتحدثن عن فلانة زوجة فلان ، و استغربت العجوز الكبيرة التي كانت تجلس وسطهن و تسمع حديثهن أن تكون فلانة قد تزوجت فلانا و لما سألنها عن سبب استغرابها اخبرتهن أنها أرضعت الاثنين فهما أخوان من الرضاعة ، و نقل النسوة هذا النبأ العظيم إلى أزواجهن و تثبت الرجال فشهد والد المرأة بأن ابنته أرضعتها تلك العجوز المعروفة لدى الجميع بأنها مرضعة كما شهد والد الزوج بأن ابنه أرضعته نفس المرضعة ، و قامت قيامة العشيرتين و تقاتلوا بالعصي كل منهما تتهم الأخرى بأنها سبب الكارثة التي سوف تجرهم إلى سخط الله و عقابه و خصوصا لان هذا الزواج مر عليه عشرة أعوام أنجبت المرأة خلالها ثلاثة أطفال و قد هربت عند سماعها الخبر إلى بيت أبيها و امتنعت عن الأكل و الشراب و أرادت الانتحار لأنها لم تتحمل الصدمة و كيف أنها تزوجت من أخيها و ولدت منه و هي لا تعلم ، و سقط عدد من الجرحى من العشيرتين و تدخل أحد الشيوخ الكبار و أوقف المعارك و نصحهم بأن يطوفوا على العلماء ليستفتوهم في هذه القضية عسى أن يجدوا حلا .

فصاروا يتجولون في المدن الكبرى المجاورة يسألون علماءها عن حل لقضيتهم و كلما اتصلوا بعالم و أطلعوه على الأمر أخبرهم بحرمة الزواج و ضرورة تفريق الزوجين إلى الأبد و تحرير رقبة أو صيام شهرين إلى غير ذلك من الفتاوى .

و وصلوا إلى قفصة و سألوا علماءها فكان الجواب نفسه ، لان المالكية

كلهم يحرمون الرضاعة و لو من قطرة واحدة إقتداء بالإمام مالك الـــذي قـــاس الحليب على الخمر إذ أن (ما أسكر كثيره فقليله حرام) ، فتحرم الرضاعة و لو من قطرة واحدة من الحليب ، و الذي وقع أن أحد الحاضرين اختلى بهم و دلَّهم على بيتي قائلا لهم : أسألوا التيجاني في مثل هذه القضايا فإنه يعرف كل المذاهب ، و قد رأيته يجادل هؤلاء العلماء عدة مرات فيبزهم بالحجة البالغة .

هذا ما نقله إليّ زوج المرأة حرفيا عندما أدخلته إلى المكتبة و حكى لي كل القضية بالتفصيل من أولها إلى آخرها و قال : " يا ســـيدي أن زوجـــتي تريـــد الانتحار و أولادي مهملون و نحن لا نعرف حلا لهذه المشكلة و قد دلونا عليك و قد استبشرت خيرا لما رأيت عندك هذه الكتب التي لم أشهد في حياتي مثلـــها فعسى أن يكون الحل عندك " .

أحضرت له قهوة و فكرت قليلا ثم سألته عن عدد الرضعات التي رضعها هو من المرأة فقال : لا أدري غير أن زوجتي رضعت منها مرتين أو ثلاثا و قـــد شهد أبوها بأنه حملها مرتين أو ثلاث مرات إلى تلك العجوز المرضعة ، فقلت إذا كان هذا صحيحا فليس عليكما شيء و الزواج صحيح و حلال محلل ، و ارتمى المسكين علي يقبل رأسي و يدي و يقول : بشرك الله بالخير لقد فتحت أبـــواب السكينة أمامي ، و نهض مسرعا و لم يكمل قهوته و لا استفسر مني و لا طلـــب الدليل غير أنه استأذن للخروج حتى يسرع فيبشر زوجتـــه و أولاده و أهلـــه و عشيرته .

لكنه رجع في اليوم التالي و معه سبعة رجال و قدمهم إلي قـــائلا : هـــذا والدي و هذا والد زوجتي و الثالث هو عمدة القرية و الرابع إمـــام الجمعـــة و الجماعة و الخامس هو المرشد الديني و السادس شيخ العشيرة و السابع هو مـــدير المدرسة ، و قد جاؤوا يستفسرون عن قضية الرضاعة و بماذا حللتها ؟ .

و أدخلت الجميع إلى المكتبة و كنت أتوقع جدالهم و أحضرت لهم القهوة و رحبت بهم : قالوا إنما جئناك نناقشك في تحليلك الرضاعة و قد حرمها الله في القرآن ، و حرمها رسوله بقوله : يحرم بالرضاعة ما يحرم بالنسب ، و كذلك حرمها الإمام مالك .

قلت : يا سادتي أنتم ما شاء الله ثمانية و أنا واحد فإذا تكلمت مع الجميع فسوف لن أقنعكم و تضيع المناقشة في الهامشيات ، و إنما اقترح عليكم اختيار أحدكم حتى أتناقش معه و أنتم تكونون حكما بيني و بينه ! .

و أعجبتهم الفكرة و استحسنوها ، و سلموا أمرهم إلى المرشد الديني قائلين أنه أعلمهم و أقدرهم ، و بدأ السيد يسألني كيف أحلل ما حرم الله و رسوله و الأئمة ؟ ! .

قلت : أعوذ بالله أن أفعل ذلك ! و لكن الله حرم الرضاعة بآية مجملة و لم يبين تفصيل ذلك و إنما أوكل ذلك إلى رسوله فأوضح مقصود الآية بالكيف و الكم .

قال : فإن الإمام مالك يحرم الرضاعة من قطرة واحدة .

قلت : أعرف ذلك ، و لكن الإمام مالك ليس حجة على المسلمين و إلا فما هو قولك بالأئمة الآخرين ؟ .

أجاب : رضي الله عنهم و أرضاهم فكلهم من رسول ملتمس .

قلت : فما هي إذن حجتك عند الله في تقليدك الإمام مالك الذي يخالف رأيه نص الرسول (صلى الله عليه و آله) ؟ .

قال محتارا : سبحان الله أنا لا أعلم أن الإمام مالكا إمام دار الهجرة يخالف النصوص النبوية ، و تحير الحاضرون من هذا القول ، و استغربوا مني هذه الجرأة على الإمام مالك و التي لم يعهدوها من قبل في غيري ، و استدركت قائلا : هل كان الإمام مالك من الصحابة ؟ قال : لا ، قلت : هل كان من التابعين ؟ قال : لا ، و إنما هو من تابعي التابعين .

قلت : فأيهما أقرب هو أم الإمام علي بن أبي طالب ؟ .

قال : الإمام علي أقرب فهو من الخلفـــاء الراشـــدين ، و تكلـــم أحـــد الحاضرين قائلا : سيدنا علي كرم الله وجهه هو باب مدينة العلم .

فقلت : فلماذا تركتم باب مدينة العلم و اتبعتم رجلا ليس من الصحابة و لا

من التابعين و إنما ولد بعد الفتنة و بعدما أبيحت مدينة رسول الله لجيش يزيد و فعلوا فيها ما فعلوا و قتلوا خيار الصحابة و انتهكوا فيها المحارم ، و غيروا سنة الرسول ببدع ابتدعوها ، فكيف يطمئن الإنسان بعد ذلك إلى هؤلاء الأئمة الذين رضيت عنهم السلطة الحاكمة لأنهم أفتوها بما يلائم أهواءهم .

و تكلم أحدهم و قال : سمعنا أنك شيعي تعبد الإمام عليا فلكزه صاحبه الذي كان بجانبه لكزة أوجعته و قال له : أسكت أما تستحي أن تقول مثل هذا القول لرجل فاضل مثل هذا و قد عرفت العلماء و حتى الآن لم تر عيني مكتبة مثل هذه المكتبة ، و هذا الرجل يتكلم عن معرفة و وثوق بما يقول ! .

أجبته قائلا : أنا شيعي هذا صحيح و لكن الشيعة لا يعبدون عليا و إنما عوض أن يقلدوا الإمام مالكا فهم يقلدون الإمام عليا لأنه باب مدينة العلم حسب شهادتكم ، قال المرشد الديني : و هل حلل الإمام علي زواج الرضيعين ؟ .

قلت : لا و لكنه يحرم ذلك إذا بلغت الرضاعة خمس عشرة رضعة مشبعات و متواليات ، أو ما أنبت لحما و عظما .

و تهلل وجه والد الزوجة و قال : الحمد لله فابنتي لم ترضع إلا مرتين أو ثلاث مرات فقط ، و إن في قول الإمام علي هذا مخرجا لنا من هذه الورطة و رحمة لنا من الله بعد أن يئسنا .

فقال المرشد : أعطنا الدليل على هذا القول حتى نقتنع ، فأعطيتهم كتاب منهاج الصالحين للسيد الخوئي ، و قرأ هو بنفسه عليهم باب الرضاعة ، و فرحوا بذلك فرحا عظيما و خصوصا الزوج الذي كان خائفا أن لا يكون لديّ الدليل المقنع و طلبوا مني إعارتهم الكتاب حتى يحتجوا به في قريتهم فسلمته إليهم و خرجوا مودعين داعين معتذرين .

و بمجرد خروجهم من بيتي التقى بهم أحد المناوئين و حملهم إلى بعض علماء السوء فخوفوهم و حذروهم بأني عميل لإسرائيل و أن كتاب منهاج الصالحين الذي أعطيتهم إياه كله ضلالة و أن أهل العراق هم أهل الكفر و النفاق و أن الشيعة

مجوس يبيحون نكاح الأخوات فلا غرابة إذن في إباحتي لهم نكاح الأخت من الرضاعة إلى غير ذلك من التهم و الأراجيف و ما زال بهم يحذرهم حتى ارتدوا على أعقابهم و انقلبوا بعد اقتناعهم ، و أجبروا الزوج على أن يتقدم بدعوى عدلية للطلاق لدى المحكمة الابتدائية في قفصة و طلب منهم رئيس المحكمة أن يذهبوا إلى العاصمة و يتصلوا بمفتي الجمهورية ليحل هذا الإشكال ، و سافر الزوج و بقى هناك شهرا كاملا حتى تمكن من مقابلته و قص عليه قصته من أولها إلى آخرها و سأله مفتي الجمهورية عن العلماء الذين قالوا بحلية الزواج و صحته فأجاب الزوج بأنه ليس هناك من قال بحليته غير شخص واحد هو التيجاني السماوي ، و سجل المفتي إسمي و قال للزوج : إرجع أنت و سوف أبعث أنا برسالة إلى رئيس المحكمة في قفصة ، و بالفعل جاءت الرسالة من مفتي الجمهورية و أطلع عليها وكيل الزوج و أعلمه بأن مفتي الجمهورية حرم ذلك الزواج .

هذا ما قصه عليّ زوج المرأة الذي بدا عليه الضعف و الإرهاق من كثرة التعب و هو يعتذر إليّ مما سببه لي من إزعاج و حرج ، فشكرته على عواطفه متعجبا كيف يبطل مفتي الجمهورية الزواج القائم في مثل هذه القضية ، و طلبت منه أن يأتيني برسالته التي بعثها إلى المحكمة حتى أنشرها في الصحف التونسية و أبين أن مفتي الجمهورية يجهل المذاهب الإسلامية و لا يعرف اختلافهم الفقهي في مسألة الرضاعة .

فقال الزوج أنه لا يمكنه أن يطلع على ملف قضيته فضلا عن أن يأتيني برسالة منه ، و افترقنا .

و بعد بضعة أيام جاءتني دعوة من رئيس المحكمة يأمرني فيها بإحضار الكتاب و الأدلة على عدم بطلان ذلك الزواج بين (الرضيعين) ! ، و ذهبت محملا بعدة مصادر انتقيتها مسبقا و وضعت في كل منها بطاقة في باب الرضاعة

ليسهل تخريجه في لحظة واحدة ، و ذهبت في اليـــوم و الـــساعة المـــذكورين و استقبلني كاتب المحكمة و أدخلني إلى مكتب الرئيس و فوجئت برئيس المحكمـــة الابتدائية و رئيس محكمة الناحية و وكيل الجمهورية و معهم ثلاثـــة أعـــضاء و كلهم يرتدون لباسهم الخاص للقضاء و كأنهم في جلسة رسمية ، و لاحظت أيضا أن زوج المرأة يجلس في

آخر القاعة قبالهم ، و سلمت على الجميع فكانوا كلهم ينظرون إلي باشمئزاز و احتقار و لما جلست خاطبني الرئيس بلهجة خشنة قائلا :

– أنت هو التيجاني السماوي ؟ قلت : نعم .

– قال : أنت الذي أفتيت بصحة الزواج في هذه القضية ؟ .

– قلت : لا لست أنا بمفت ، و لكن الأئمة و علماء المسلمين هم الذين أفتوا بحليته و صحته ! .

– قال : و من أجل ذلك دعوناك ، و أنت الآن في قفص الاتهام ، فإذا لم تثبت دعواك بالدليل فسوف نحكم بسجنك و سوف لن تخرج من هنا إلا إلى السجن .

و عرفت وقتها أنني بالفعل في قفص الاتهام ، لا لأنني أفتيت في هذه القضية ، و لكن لان بعض علماء السوء حدَّث هؤلاء الحكام بأنني صاحب فتنة و أنني أسب الصحابة و أبث التشيع لآل البيت النبوي ، و قد قال له رئيس المحكمة إذا أتيتني بشاهدين ضده فسألقيه في السجن .

أضف إلى ذلك أن جماعة من الإخوان المسلمين استغلوا هذه الفتوى و روجوا لدى الخاص و العام أنني أبيح نكاح الأخوات و هو قول الشيعة على زعمهم ! .

كل ذلك عرفته من قبل و تيقنته عندما هددني رئيس المحكمة بالسجن فلم يبق أمامي إلا التحدي و الدفاع عن نفسي بكل شجاعة فقلت للرئيس :

– هل لي أن أتكلم بصراحة و بدون خوف ، قال :

– نعم تكلم فأنت ليس لك محام . . قلت :

– قبل كل شيء أنا لم أنصب نفسي للإفتاء ، و لكن ها هو زوج المرأة أمامكم فاسألوه ، فهو الذي جاءني إلى بيتي يطرق بابي و يسألني ، فكان واجبا

عليّ أن أجيبه بما أعلم و قد سألته بدوري عن عدد الرضعات و لما أعلمني بـــأن زوجته لم ترضع غير مرتين أعطيته وقتها حكم الإسلام فيها ، فلست أنـــا مـــن المجتهدين و لا من المشرعين .

قال الرئيس : عجبا ، أنت الآن تدعي أنك تعرف الإسلام و نحن نجهله ! قلت : أستغفر الله أنا لم أقصد هذا ، و لكن كل الناس هنا يعرفون مذهب الإمام مالك و يتوقفون عنده ، و أنا فتشت في كل المذاهب و وجدت حلا لهذه القضية .

قال الرئيس : أين وجدت الحل ؟ قلت :

– قبل كل شيء هل لي أن أسالكم سؤالا يا سيدي الرئيس ؟ .

– قال : إسأل ما تريد .

– قلت : ما قولكم في المذاهب الإسلامية ؟ .

– قال : كلها صحيحة ، فكلهم من رسول الله ملتمس ، و في اختلافهم رحمة .

– قلت : فارحموا إذن هذا المسكين " مشيرا إلى زوج المرأة " الذي قضى الآن أكثر من شهرين و هو مفارق لزوجه و ولده بينما هناك من المذاهب الإسلامية من حل مشكلته .

فقال الرئيس مغضبا :

– هات الدليل و كفاك تهريجا ، نحن سمحنا لك بالدفاع عن نفسك فأصبحت محاميا لغيرك .

فأخرجت له من حقيبتي كتاب منهاج الصالحين للسيد الخوئي و قلت : هذا مذهب أهل البيت و فيه الدليل ، فقاطعني قائلا : دعنا من مذهب أهل البيت فنحن لا نعرفه و لا نؤمن به .

كنت متوقعا هذا و لذلك أحضرت معي بعد البحث و التنقيب عدة مصادر لأهل السنة و الجماعة كنت رتبتها حسب علمي فوضعت البخاري في المرتبة الأولى ثم صحيح مسلم و بعده كتاب الفتاوى لمحمود شلتوت و كتاب

بداية المجتهد و نهاية المقتصد لابن رشد ، و كتاب زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي و عدة مصادر أخرى من كتب (أهل السنة) ، و لما رفض الـــرئيس أن ينظر

في كتاب السيد الخوئي سألته عن الكتب التي يثق بها ، قال : البخاري و مسلم .

و أخرجت صحيح البخاري و فتحته على الصفحة المعينة و قلت : تفضل يا سيدي إقرأ .

– قال : إقرأ أنت ؟ و قرأت : حدثنا فلان عن فلان عن عائشة أم المؤمنين قالت توفي رسول الله (صلى الله عليه و آله) و لم يحرم من الرضعات إلا خمسا فما فوق .

و أخذ الرئيس مني الكتاب و قرأ بنفسه و أعطاه إلى وكيل الجمهورية بجانبه فقرأ هو الآخر و ناوله لمن بعده في حين أخرجت صحيح مسلم و أطلعته على نفس الأحاديث ثم فتحت كتاب الفتاوى لشيخ الأزهر شلتوت و قد ذكر هو الآخر اختلافات الأئمة في مسألة الرضاعة فمنهم من ذهب إلى القول بأن المحرم ما بلغ خمس عشرة رضعة و منهم من قال بسبعة و منهم من حرم فوق الخمسة عدا مالك الذي خالف النص و حرم قطرة واحدة ثم قال شلتوت : و أنا أميل إلى أوسط الآراء فأقول سبعا فما فوق ، و بعد ما اطلع رئيس المحكمة على كل ذلك قال : يكفي . ثم التفت إلى زوج المرأة و قال له : إذهب الآن و آئتني بوالد زوجتك ليشهد أمامي بأنها رضعت مرتين أو ثلاثا و سوف تأخذ زوجتك معك هذا اليوم . .

و طار المسكين فرحا ، و اعتذر وكيل الجمهورية و بقية الأعضاء الحاضرين للالتحاق بأعمالهم و أذن لهم الرئيس ، و لما خلا بنا المجلس التفت إلي معتذرا و قال : سامحني يا أستاذ لقد غلطوني فيك و قالوا فيك أشياء غريبة و أنا الآن عرفت أنهم حاسدون و مغرضون يريدون بك شرا .

و طار قلبي فرحا بهذا التحول السريع و قلت : الحمد لله الـــذي جعـــل نصري على يديك يا سيدي الرئيس ، فقال : سمعت بأن عندك مكتبـــة عظيمـــة فهل يوجد فيها كتاب حياة الحيوان الكبرى للدميري ؟ .

قلت : نعم ، فقال : هل تعيرني إياه ، فقد مضى عامان و أنا أبحث عنه : قلت : هو لك يا سيدي متى أردت ، قال : هل عندك وقت يسمح لك بـــالمجيء إلى مكتبتي لنتحدث و أستفيد منك .

قلت : أستغفر الله فأنا الذي أستفيد منك ، فأنت أكبر مني سنا و قدرا ،

و عندي أربعة أيام راحة في الأسبوع و أنا رهن إشارتك .

و اتفقنا على يوم السبت من كل أسبوع لأنه ليس له جلسات للمحكمة في ذلك اليوم .

و بعدما طلب مني أن أترك له كتابي البخاري و مسلم و كتاب الفتاوى لمحمود شلتوت لكي يحرر منها النص قام بنفسه و أخرجني من مكتبه مودعا .

و خرجت فرحا أحمد الله سبحانه على هذا النصر و قد دخلت خائفا مهددا بالسجن و خرجت و قد انقلب رئيس المحكمة إلى صديق حميم يحترمني و يطلب مني مجالسته ليستفيد مني . إنها بركات طريق أهل البيت الذين لا يخيب من تمسك بهم و يأمن من لجأ إليهم .

و تحدث زوج المرأة في قريته و شاع الخبر في كل القرى المجاورة بعد ما رجعت المرأة إلى بيت زوجها و انتهت القضية بحلية الزواج ، فأصبح الناس يقولون بأني أعلم من الجميع و أعلم حتى من مفتي الجمهورية .

و قد جاء زوج المرأة إلى البيت و معه سيارة كبيرة و دعاني إلى القرية أنا و كل عائلتي و أعلمني أن كل الأهالي ينتظرون قدومي و سيذبحون ثلاثة عجول لإقامة الفرح و اعتذرت إليه بسبب انشغالي في قفصة و قلت له : سوف أزوركم مرة أخرى إن شاء الله .

و تحدث رئيس المحكمة إلى أصدقائه و اشتهرت القضية و ردَّ الله كيد الكائدين و جاء بعضهم معتذرين و قد فتح الله بصيرة البعض منهم فاستبصروا و أصبحوا من المخلصين ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء و الله ذو الفضل العظيم .

و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين و صلى الله على سيدنا محمد و على آله الطيبين الطاهرين .